رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب

الصواب

العدد
157
السنة الثالثة عشرة
خريف 2016

- التصوف السياسي (الحلولي): من (الحلاّج) إلى (غولن)
- ملاحظات عن الاستشراق
- جدل الإيمان بين الصورة والحقيقة
- حين تفقد الحكومات ما تبقى من سمعتها!

مجلة سياسية ثقافية فصلية تصدرها مؤسسة الإعلام والفن للاتحاد الإسلامي الكوردستاني

A political and cultural magazine, issued quarterly by Kurdistan Islamic Union

صاحب الامتياز: صلاح الدين بابكر

رئيس التحرير: سالم الحاج

salimalhaj83@yahoo.com

07504499179

هيئة التحرير

سعد الزيباري saadz76@yahoo.com

نبيل فتحي حسين nabil_fathi72@yahoo.com

سرهد أحمد علي Sarhad_ahmad72@yahoo.com

الإخراج الفني

قوباد ياسين طه tqubadyasen@yahoo.com

الموقع الإلكتروني: http://alhiwarmagazine.blogspot.com

البريد الإلكتروني: Alhiwar2003@yahoo.com

العنوان: أربيل ـ محلة طيراوه / مقابل نقليات الشمال / قرب المركز الثاني للاتحاد الإسلامي الكوردستاني

محتويات العدد

دراسات		٤
– الكورد والدولة العثمانية بين الانتماء القومي والولاء الديني	د.هاشم عبد الرزاق	٥–٢٧
– المجوسية = الزرادشتية جدل التوحيد والتثنية	د. فَرست مرعي	٢٨–٣٨
– المستشرق (توماس أرنولد) والفن الإسلامي	أ.د.ناصر عبد الرزاق	٣٩–٥٣
– فشل العقل المسلم في توظيف القيم الإسلامية	ئاشتى ستار شيخاني	٥٤– ٦٣
– الحقوق السياسية للأمة في النظام السياسي الإسلامي	سالم الحاج	٦٤–٨٨
– شرح عروج النبـي فيزيائياً!	هفال عارف برواري	٨٩–١٠٥
عبق الكلمات/ صلاحُ دين الإســـلام	عبدالباقي يوسف	١٠٦–١٠٧
مقالات		١٠٨
– تركيا بين طريق مسدود وآخر وعِر	د.سعد الديوه جي	١٠٩– ١١٢
– بين صوت القاضي في شرق كوردستان وصدى الحزنوي في غربها	محسن جوامير	١١٣– ١١٦
– مقترحات بخصوص (مشروع دراسات السنة النبوية الشريفة)	أ.د.عمادالدين خليل	١١٧– ١٢٠
– معالِم تصفي لك مودة العالَم	علاء الدين حسـن	١٢١– ١٢٤
– كيف ندعو..ومن أين نبدأ؟	سالم البرزنجي	١٢٥– ١٤٥
مرافئ/ المؤتمر السابع.. خطوة أخرى بالاتجاه الصحيح	د.يحيى عمر ريشاوي	١٤٦
ثقافة		١٤٧
– التاريخ على الخشبة.. أي قيمة؟ أي هدف؟	ياسين سليماني	١٤٨–١٥٣
– شعرية السرد في رواية (من يسكب الهواء في رئة القمر)	أثير محسن الهاشمي	١٥٤– ١٦٣
– الفن الروائي ودوره في إحداث الخلل المجتمعي	رولا حسينات	١٦٤– ١٧٠
– صدر حديثا		١٧١

قراءة في كتاب		١٧٢
– أطلس العالم للشريف الإدريسي	د.محمد نزار الدباغ	١٧٣-١٧٦
بصراحة/ عمليات الحشد الشعبي!	صلاح سعيد أمين	١٧٧
اخبار وتقارير		١٧٨
– المؤتمر العام السابع لـ(الاتحاد الإسلامي الكوردستاني)..	المحرر السياسي	١٧٩- ١٨٤
– استمرار حالة الانقسام السياسي في الإقليم	الحوار	١٨٥- ١٨٦
– ندوة فكرية في أربيل تعرض مخاطر الفكر المتطرف	الحوار	١٨٧- ١٩١
– **آخر الكلام/ الشيطان يكمن في التفاصيل!**	محمد واني	١٩٢

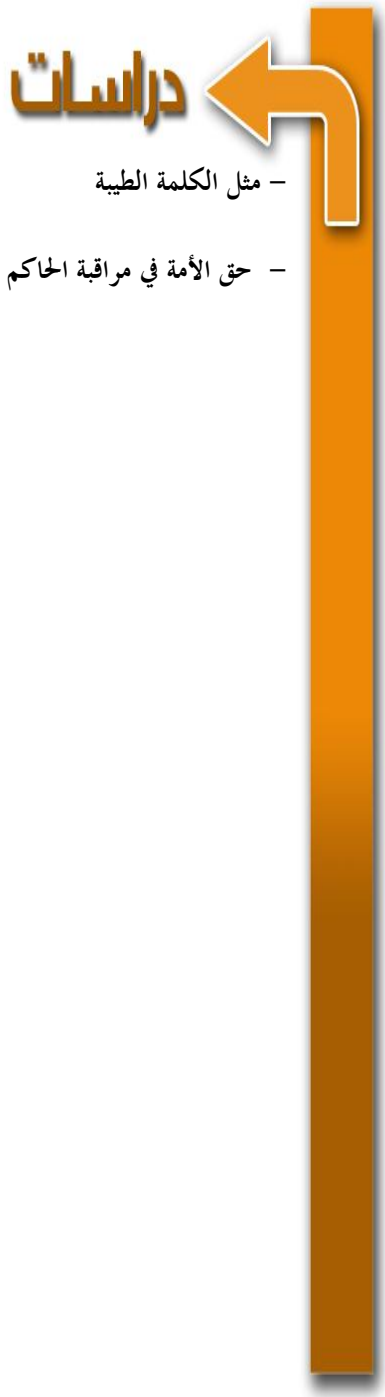

- مثل الكلمة الطيبة — د. دحّام الهسنياني
- حق الأمة في مراقبة الحاكم ومحاسبته، وعزله — سالم الحاج

مثل الكلمة الطيبة

د. دحام إبراهيم الهسنياني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين.. . والصلاة والسلام على رسول الله، سيد المرسلين، وعلى آله، وصحبه، ومن دعا بدعوته واختطّ سبيله إلى يوم الدين.. وبعد:

فإن الأمثال في القرآن الكريم وسيلة من الوسائل التي استخدمها القرآن في بيان إظهار حقائقه ومعانيه الخفية التي قرّرها ليهتدي بها من هداه الله على فوزه وبغيته في الدنيا والآخرة، وتقوم الحجة على من ضلّ الهدف الذي ترمي إليه من بيانها للحقائق المستترة والمعاني الخفية.

وقد تنوعت أساليب القرآن الكريم في توصيل رسالة التوحيد للناس، وما ذلك إلا لأنها – أعني رسالة التوحيد – أعظم حقيقة في الكون، وحريّ بها أن تكون محط عناية القرآن الكريم. والمتدبر في هذه الصورة القرآنية، يدرك مدى ثقل هذه الكلمة، واهتمام القرآن بها، حتى جاء ترسيخها في عقول وقلوب الناس بهذه الصورة الرائعة، والمثل البديع. وفي هذا المثل الرائع نجد الحث والترغيب في الكلمة الطيبة، لقيام كل مكلف قادر، وعلى حسب طاقته، بمهمة الدعوة إلى الله، والقول بكلمة الحق، والكلمة الطيبة، حتى تتزكى النفوس، وترتفع إلى مراقي الفلاح والسعادة الخالدة.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصلهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[١].

والآية التي نحن بصددها، زاخرة بالمعاني والصور، التي تجعل الكلمة في أرقى حال: جمالاً، وكمالاً، ونفعاً.. وفقنا الله للتمسك بهذه الكلمة الطيبة، والقول بها، والسير وراء منهجها المحكم، للوصول إلى أهدافنا، بعد أن نستفرغ وسعنا، ونبذل جهدنا، ونفني طاقتنا.

الكلمة لغة: قال ابن مالك:

كلامُنا لفظ مفيد كـ(استقم)

واسم وفعل، ثم حرف، الكلم

والمعنى: (اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليها)، وفائدة يحسن السكوت عليها أخرج الكلمة، وبعض الكلم، وهو مركب من ثلاث كلمات فأكثر، ولم يحسن السكوت عليه، نحو (إن قام زيد). وقول المصنف: (استقم)، فإنه كلام مركب من فعل أمر وفاعل مستتر، والتقدير(استقم أنت)، فكأنه قال: (الكلام هو اللفظ المفيد فائدة كفائدة استقم)[٢].

اصطلاحًا: قال ابن عباس: (هي شهادة أن لا إله إلا الله)، من قال: (لا إله إلا الله خالصاً من قلبه دخل الجنة)[٣].

تشبيهاً بلاغياً: المشبه: الكلمة الطيبة. المشبه به: الشجرة الطيبة (النخلة). أداة التشبيه: الكاف. وجه الشبه: يقول (ابن القيّم): "شبّه تعالى الكلمة الطيبة، بالشجرة الطيبة، لأنّ الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع.. والكلمة الطيبة هي شهادة أن لا إله إلا الله، فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة، الظاهرة والباطنة، وكل عمل صالح مُرضٍ لله تعالى ثمرة هذه الكلمة". قال (ابن عباس): "أصلها ثابت، قول لا إله إلا الله من قلب المؤمن، وفرعها في السماء: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء"[٤]. وقال (الربيع بن أنس): "كلمة طيبة هذا مَثَلُ الإيمان، والإيمان الشجرة الطيبة، وأصلها الثابت الذي لا يزول الإخلاص فيه، وفرعها في السماء: خشية الله"[٥].

مثل الكلمة الطيبة

يقول الله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

فهذا مَثَلٌ بديعٌ عظيمُ الفائدةِ، مُطابقٌ لما ضُرب له تمام المطابقة، وقد بدأه الله بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً﴾. أيْ: ألَمْ ترَ بعين قلبك، فتعلمَ كيف مثّل الله مثلاً وشبّهه شبهاً للكلمة الطيّبة كلمة الإيمان. وختَمَه بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ أيْ: إن القصد من ضرب هذا المثل، وغيره من الأمثال، هو تذكيرُ الناس ودعوتُهم إلى الاعتبار وعقلِ الخطاب عن الله.

وهذا في غاية الحسن، من حيث ضرب المثل للمعاني المعقولة بالأشياء المحسوسة المستقرة في بداهة العقول، والتي تتراءى للناس في معايشهم كل يوم. وإن منتهى الحسن في نتاج هذه الشجرة، ذلك التثبيت عند سؤال الملكين في القبر، ثم نوال رضا الله تعالى وثوابه يوم القيامة، كما قال تعالى بعد ضرب هذا المثل: ثبت هذا المعنى من حديث (البراء بن عازب) (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[٦]. ويأتي تكامل المشهد في عرض الصورة المناقضة، فبضدّها تتميز الأشياء" ففي مقابل كلمة التوحيد وشجرة الإيمان – التي شبهتها بعض الأحاديث بالنخلة – تأتي الكلمة الخبيثة، كلمة الكفر، كالشجرة الخبيثة: شجرة الحنظل: "لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يتقبل منه شيء"[٧].

والتثبيت: الربط على القلب، فلا يتزحزح، ولا يضطرب، فيضيع منه الإيمان. والله تعالى يثبت الإيمان في القلوب المؤمنة، فلا تضطرب، لهذا تجد أهل الإيمان في وقت الشدائد كالجبال الرواسي ثباتاً وقوة.

ولا شك أنَّ هذا البدء والختم في الآية فيه أعظم حَضّ على تعلُّمِ هذا المثل وتَعَقُّلِه، وفيه دلالة على عِظم شأن هذا المثل المضروب، كيف لا وهو يتناول بيان الإيمان، الذي هو أعظم المطالب وأشرف المقاصدِ على الإطلاق.

يقول الشيخ (محمد متولي الشعراوي): "هي كلمة طيبة قيلت، لكنّها مثل الشجرة الطيبة" لأنها ترسخ في أذن من يسمعها فتصير حركة خاضعة للكلمة، وكلما فعل السامع لهذه الكلمة فعلاً ناتجاً من تأثير هذه الكلمة، فإن بعض الثواب يعود إلى من قال هذه الكلمة، حتى ولو كان قد مات، فكأن قائل هذه الكلمة ما زال يعيش، وكأن عمره قد طال بكلمته الطيبة. إذاً، فأعمال الخير التي تحدث من الإنسان ليس معناها أنها تطيل العمر" لأن العمر محدود بأجل، ولكنْ هناك إنسان يعطي عمره عرضاً، وآخر يعطيه عمقاً، ويظلّ العطاء منه موصولاً إلى أن تقوم الساعة، فكأنه أعطى لنفسه عمراً خالداً. ويقولون: والذكر للإنسان عمر ثان"[٨].

الكلمة الطيبة كحبّة القمح المفردة، قد تهمل وتذهب أدراج الحياة، وقد تكون مباركة فتنبت وتثمر، بل وقد تكون الثمرة

خصبة تتضاعف وتتضاعف، وتنتشر هنا، أو تتنقل هناك، تناسب أرضا صالحة، ومورداً عذباً، فتتضاعف إلى سبعمائة ضعف، بل إلى ما شاء الله، وتؤتي أكلها بإذن ربها.

والكلمة الطيبة في أول مبتدأها (صدقة)، كما أخبر عن وصفها الصادق المصدوق (صلى الله عليه وسلم): (الكلمة الطيبة صدقة)[٩]، لأنها تفتح النفس، وتسعد القلب، وتدمل الجراح، وتذهب الغيظ، وتعلن السلام. والصدقة تتضاعف بالنيّة، وتتضاعف بالأثر منها، فكذلك الكلمة قد تحتفظ بذاتها، وقد تنمو وتنمو حتى تكون كالشجرة الباسقة. والكلام الطيب مندوب إليه، وهو من جليل أفعال البر" لأن النبيّ عليه السلام جعله كالصدقة بالمال، ووجه تشبيهه (صلى الله عليه وسلم) الكلمة الطيبة بالصدقة بالمال، هو أن الصدقة بالمال تحيا بها نفس المتصدق عليه، ويفرح بها، والكلمة الطيبة يفرح بها المؤمن، ويحسن موقعها من قلبه، فاشتبها من هذه الجهة[١٠].

قال الإمام ابن حجر: قال ابن بطال: وجه كون الكلمة الطيبة صدقة، أن إعطاء المال يفرح به قلب الذي يعطاه، ويذهب ما في قلبه، وكذلك الكلام الطيب، فأثبت بها من هذه الحيثية[١١].

والكلمة الطيبة تشمل كل قول يقرب إلى الله تعالى، فالأمر بالمعروف صدقة، والنهي عن المنكر صدقة، وبكل تسبيحة أو تكبيرة أو تهليلة صدقة، وتعليم العلم النافع صدقة، وابتداء السلام، وردّه، صدقة، وكل خطوة يخطوها العبد إلى الصلاة صدقة، وإزالة الأذى عن الطريق صدقة.

ولا بدّ من معرفة بعض ملامح هذه الكلمة:

- الكلمة الطيبة جميلة، رقيقة، لا تؤذي المشاعر، ولا تخدش النفوس.
- جميلة في اللفظ والمعنى، يشتاق إليها السامع، ويطرب لها القلب.
- كما أنها طيبة الثمر، نتائجها مفيدة، وغاياتها بناءة، ومنفعتها واضحة.
- أصلها ثابت، مستمدة من المنبع الصافي: كتاب الله، وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم)، وتمتد إلى السماء بفرعها، لأنها نقيّة، صادرة عن نيّة صادقة.
- وتؤتي أكلها باستمرار: يسمع السامع فينتفع بها، وينقلها لغيره فينتفع، حتى ينتفع بها الخلق الكثير، بل ويستمر الانتفاع بها إلى ما شاء الله.
- وليس ألصق بهذه الخصائص، وأكثر قرباً، من كلمات الدعاة، المؤديّة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- الداعية إلى العمل الإسلامي، وبناء مقوماته، والهادية الناس إلى الخير، ومستلزماته.

■ تعلّم الداعية البناء وطرقه، وتهديهم إلى الجهاد، ومعرفة قواعده الشرعية، وما قد يقود ذلك إلى تخطيط لقيام المجتمع المسلم، أو من منهاج لنشر الحق بين الأنام[١٢].

فالمشبه هو الهيئة الحاصلة من البهجة في الحسّ، والفرح في النفس، وازدياد أصول النفع باكتساب المنافع المتتالية، بهيئة رسوخ الأصل، وجمال المنظر، ونماء أغصان الأشجار، ووفرة الثمار، ومتعة أكلها. وكلّ جزء من أجزاء إحدى الهيئتين، يقابله الجزء الآخر من الهيئة الأخرى، وذلك أكمل أحوال التمثيل: أن يكون قابلاً لجمع التشبيه، وتفريعه[١٣].

سيظلّ للكلمة أثرها الفعال في تغيير أفكار الناس وأمزجتهم ومشاعرهم وواقعهم، وذلك إذا استوفت شروطاً معينة. وليس أدلّ على رفعة مكانة الكلمة في حياة البشر، من أنّ الأنبياء– عليهم الصلاة والسلام –كانوا يجيدون استخدامها في التعبير عن الحقائق الراسخة، والربط بينها وبين واقع البشر ورصيد الفطرة المتبقي لديهم. فهذا نوح عليه السلام يجادل قومه باستفاضة، حتى ضجّ قومه من ذلك، حين قالوا: ﴿**قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكثرتَ جِدَالَنَا**﴾[١٤]، وهذا إبراهيم عليه السلام يكرمه الله تعالى، فيهبه من قوة الحجة ما يفحم قومه: ﴿**وتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**﴾[١٥].

وهذا موسى عليه السلام يقول: ﴿**واحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي**﴾[١٦]، ثم يطلب من الله تعالى أن يتفضل عليه بإشراك (هارون) معه في التبليغ، لفصاحة لسانه، حين يقول: ﴿**وأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ**﴾[١٧]، والله تعالى يقوم لخاتم أنبيائه: ﴿**وقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً**﴾[١٨]، وكلّ هذا قبس مما نسبه الباري عزّ وجلّ لنفسه حين قال: ﴿**قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ**﴾[١٩].

وحجج النبيين ومضامين خطابهم للخلق –في الأصول – واحدة، أو تكاد، مما يجعل جذور الكلمة الطيبة ضاربة في أعماق الزمن، من لدن نوح عليه السلام إلى خاتمهم محمد (صلى الله عليه وسلم)، وهذا يجعل حركة التاريخ كلها في سياق عامٍ واحدٍ، هو: التأكيد على أهمية الكلمةً الطيبة في إنقاذ البشرية من الضلالة.

ونحن – في كثير من الأحيان – نستخّف بقيمة الكلمة، ومع أهمية العمل إلا أن لكل منهما مجاله الذي لا يصلح فيه غيره. وفي تاريخنا الإسلامي أمثلة كثيرة جداً، غيَّرت فيها الكلمة مسار شخص أو مدينة، بل قارة، فمما يذكرون في هذا الصدد، أن وفداً من بعض بلاد أفريقية وفَدَ حاجّاً، فالتقى بالإمام (مالك بن أنس)، صاحب المذهب، فأثنى

(مالك) على والي ذلك البلد خيراً، وتمنى لو رزقت المدينة مثله، في عدله وصلاحه. فبلغ ذلك والي ذلك البلد الإفريقي، فأمر بتدريس كتب (مالك) في بلده، وأدى ذلك إلى انتشار المذهب المالكي في أرجاء أفريقية!. وما أظنّ أن ما حدث كان يخطر للإمام على بال.

وقد تغني الكلمة الواحدة غناء جيش أو جيوش، كما حدث في (غزوة الأحزاب)، حين أسلم (نعيم بن مسعود)، واستخدم عدم علم المشركين بذلك، في تبديد الثقة بين قريش واليهود، على ما هو مشهور.

شجرة الإيمان:

لا يخفى على مسلمٍ ما للإيمان من أهميّةٍ عظيمةٍ، ومكانةٍ عاليةٍ رفيعةٍ، ودرجةٍ ساميةٍ مُنيفةٍ، فهو أعظمُ المطالبِ، وأَجَلُّ المقاصدِ، وأنبلُ الأهداف" إذ به ينال العبدُ سعادةَ الدنيا والآخرة، ويُدرك أهمّ المطالب، وأجَلَّ المقاصد، ويظفرُ بالجنَّةِ ونعيمِها، وينجو من النارِ وسخَطِ الجبَّارِ، وينالُ رضى الربِّ، فلا يسخط عليه أبداً، ويتلذّذُ بالنظرِ إلى وجهه الكريم، في غير ضرّاءَ مضرّة، ولا فتنةٍ مضلّةٍ. وثمراتُ الإيمان، وفوائدُه، كثيرةٌ لا تُحصى، فكم للإيمان من فوائدَ عظيمة، وثمارٍ يانِعةٍ، وخيرٍ مستمرّ في الدنيا والآخرة.

ولما كان الإيمان بهذه المثابة، وعلى هذا القدرِ من الأهمية، كانت النصوص المبيّنة لفضله، والدالّة على شريف قدره، كثيرةً جداً، ومتنوّعةً" إذ إنَّ مِن حكمة الله البالغة، ونعمته السابغة على عباده، أنْ جعل الأمر كلّما كانت الحاجة إليه أعظم، والضرورة إليه ألزم، كانت براهينُه، وطرقُ تحصيله، وسُبُلُ نيلِه، أوفر وأكثر.. وحاجة العباد إلى الإيمان هي أعظم الحاجات، وهي أعظم من حاجتهم إلى طعامهم وشرابهم، وسائر شؤونهم" ولذا كانت دلائلُ الإيمان أقوى الدلائل، وبراهينُه أصحَّ البراهين، وسبلُ نيله وتحصيله أيسرَ السبل مسلكاً، وأقربَها مأخذاً، وأسهلَها مُتناولا" ولذا أيضاً تنوّعت وتعدّدت براهينُ الإيمان، ودلائله، الموضحة له، إجمالاً وتفصيلاً.

وإنَّ من أعظم دلائل الإيمان، التي اشتمل عليها القرآن: ضربَ الأمثال، التي بها تتّضح حقيقتُه، وتستبينُ تفاصيلُه وشعبُه، وتظهرُ ثمرتُه وفوائدُه.

والمَثَلُ هو عبارة عن قولٍ في شيء، يُشبِه قولاً في شيء آخر، بينهما مشابهة، لتبيين أحدهما من الآخر، وتصويره. ولا ريب "أنَّ ضربَ الأمثال مما يأنسُ به العقلُ، لتقريبها المعقول من المشهود، وقد قال تعالى وكلامه المشتمل على أعظم الحِجَج وقواطع البراهين: ﴿**وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العَالِمُونَ**﴾[٢٠]، وقد اشتمل منها (أيْ: القرآن) على بضعة وأربعين مثلاً، وكان بعضُ السلف إذا قرأ مثلاً لم يفهمه، يشتدُّ بكاؤُه،

ويقول: لست من العالِمين[٢١]. وكان (قتادة) يقول: "اعقلوا عن الله الأمثال"[٢٢].

كلمة التوحيد

وقد قال بعض السلف عن الكلمة الطيبة أنها كلمة التوحيد، وعموم اللفظ أنها كلّ كلمة طيبة، ولا منافاة بين القولين.

قال الإمام الشوكاني: "ها هنا مثلاً للكلمة الطيبة، وهي كلمة الإسلام، أيْ لا إله إلا الله، أو ما هو أعمّ من ذلك من كلمات الخير"[٢٣].

ثبت في الحديث أن أفضل كلمة قالها الناس قول: لا إله إلا الله" تلك الكلمة التي قامت عليها السماوات والأرض، وهي الكلمة الفصل بين الحق والباطل، وهي فيصل التفرقة بين الكفر والإيمان، إنها خير كلمة عرفتها الإنسانية، تلك الكلمة التي أخذها الله تعالى عهداً على بني آدم، وهم في بطون أمهاتهم، وأشهدهم عليها، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**﴾[٢٤].

يذكر المفسرون أن المراد بـ (الكلمة الطيبة) شهادة أن لا إله إلا الله، أو المؤمن نفسه، وأن المراد بـ (الكلمة الخبيثة) كلمة الشرك، أو الكافر نفسه.

وهذا المثل القرآني جاء عقيب مثل ضربه تعالى لبيان حال أعمال الكفار، وهو قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ**﴾[٢٥]، فذكر تعالى مثل أعمال الكفار، وأنها كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، ثم أعقب ذلك ذكر مثل أقوال المؤمنين.

ووجه هذا المثل أنه تعالى شبّه الكلمة الطيبة – وهي كلمة لا إله إلا الله، وما يتبعها من كلام طيب – بالشجرة الطيبة، ذات الجذور الثابتة والراسخة في الأرض، والأغصان العالية التي تكاد تطال عنان السماء، لا تنال منها الرياح العاتية، ولا تعصف بها العواصف الهوجاء، فهي تنبت من البذور الصالحة، وتعيش في الأرض الصالحة، وتجود بخيرها في كل حين، ثم تعلو من فوقها بالظلال الوارفة، وبالثمار الطيبة، التي يستطيبها الناس، ولا يشبعون منها. فكذلك الكلمة الطيبة، تملأ النفس بالصدق والإيمان، وتدخل إلى القلب من غير استئذان، فتعمل به ما تعمل.

وقد روى الطبري عن الربيع بن أنس (رضي الله عنه) في قوله تعالى: ﴿**كَلِمَةً طَيِّبَةً**﴾، قال: هذا مثل الإيمان، فالإيمان الشجرة الطيبة، وأصله الثابت الذي لا

يـزول: الإخـلاص لله، وفرعـه في السـماء: خشية الله.

وهذه الشجرة أيضاً مثلها كـالمؤمن، فهـو ثابت في إيمانـه، سـامٍ في تطلعاتـه وتوجهاتـه، نـافع في كـل عمـل يقـوم بـه، مقـدام مهمـا اعترضه مـن صـعاب، لا يعـرف الخـوف إلى قلبه سبيلاً، معطاء على كل حال، لا يهتـدي البخل إلى نفسه طريقاً، فهو خير كله، وبركة كله، ونفع كله. وعلى هـذا يكـون المقصـود بالمثل تشبيه المؤمن، وقولـه الطيـب، وعملـه الصالح، بالشجرة المعطاء، لا يـزال يُرفـع لـه عمل صـالح في كـل حـين ووقـت، وفي كـل صباح ومساء.

على أنه قـد ورد في بعـض الروايـات أن الشجرة الطيبة، الـتي ورد ذكرهـا في الآيـة، هي شجرة النخل، وأن الشجرة الخبيثـة هـي شجرة الحنظل" يرشد لذلك ما رواه أبو يعلى في (مسنده) عن أنـس (رضـي الله عنـه)، أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أتـي بطبـق عليـه ثمـر نخـل، فقـال: ﴿**مَـثَلاً كَلِمَـةً طَيِّبَـةً كَشَـجَرَةٍ طَيِّبَـةٍ أَصـلهَا ثَابِـتٌ وَفَرْعُهَـا فِـي السَّمَاء تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِـإِذْنِ رَبِّهَـا**﴾، هي النخلة.

فإذا كانت الشـجرة الطيبـة رمـز العطـاء والبذل، فإن كلمة التوحيد رمز العبوديـة لله، ودليل الإخلاص له، وبرهان الاعتماد عليـه. وإذا كانـت الشـجرة الطيبـة عنـوان الخـير والجود، فإن المؤمن خير كلـه، وبركـة كلـه، وطيب كله.

ولا شك أن القـرآن حـين يضـرب مـثلاً لكلمة التوحيد، أو للمؤمن، بالشجرة الطيبـة الخيرة المعطاء، يكون قد أوصل الفكـرة الـتي أراد إيصـالها بشـكل أكثـر وضـوحاً، وأشـدّ بياناً، من أن يأتي بتلك الفكرة مجردة، خاليـة من أي تمثيل أو تشبيه.

وأيّـاً كانـت الكلمـة، فـلا خـلاف في الأقوال، لأن الكلمة لا تطيـب إلا أن تكـون مبنيّة على أصل التوحيد، وكلمة التوحيـد لا تثمر إلا الكلمات الطيبة، والأصل في الكـلام الطيـب المثمـر مـا كـان مبنيّـاً علـى أسـس الشريعة، وقواعد العقيدة، ولهذا فـان أصـلها ثابت.

وقال ابن رجـب: فالكلمـة الطيبـة: هـي كلمة التوحيد، وهي أسـاس الإسـلام، وهـي جارة على لسان المؤمن، وثبـوت أصـلها هـو ثبوت التصديق بها في قلب المؤمن. وارتفـاع فرعها في السـماء، هـو علـو هـذه الكلمـة، وبسوقها، وأنها تخـرق الحجـب، ولا تتنـاهى دون العرش.

وإتيانها أكلها كـل حـين: هـو مـا يرفـع بسببها للمؤمن كل حين من القـول الطيـب، والعمل الصالح، فهو ثمرتها[٢٦].

وكما أن الشجرة لا تتم إلا بعرق راسـخ وأصل قائم وفروع عالية، فكذلك الإيمـان لا

يتم إلا بمعرفة القلب، وقول اللسان، وعمل الأركان، فيكون كما يقول النسفي: ".. والكلمة الطيبة: كلمة التوحيد، أصلها تصديق بالجنان، وفرعها إقرار باللسان، وأكلها عمل بالأركان.."[٢٧].

"فهذا مثل كلام الأولياء، فكلمتهم الطيبة كلمة التوحيد، التي لا أطيب منها، وهي أصل كل سعادة راسخة في قلوبهم، معرفة في كل عرق منهم أوجب إعراقها أن بسقت فروعها التي هي الأعمال الدينية من أعمال القلوب والجوارح، فصارت كلما هزت اجتنى الهاز ثمراتها التي لا نهاية لها، عالماً بأنها من فتح مولاه، لا صنيع له فيها بوجه، بل له تعالى المنّ عليه في جميع ذلك.."[٢٨].

يتبين مما سبق ان الكلمة الطيبة تشمل كلمة التوحيد وغيرها من كلمات الخير التي تدعو إلى الفضائل.. ولكن العلماء ركزوا على كلمة التوحيد، لأنها الأساس لكل كلمات الخير.

يقول (الآلوسي): "الكلمة الطيبة هي كلمة التوحيد التي غرسها الحق في أرض بساتين الأرواح، وجعل تعالى أصلها هناك ثابتاً بالتوفيق، وفرعها في سماء القربة، وسقاها من سواقي العناية، وساقها المعرفة، وأغصانها المحبة، وأوراقها الشوق، وحارسها الرعاية، تؤتي أكلها في جميع الأنفاس، من لطائف الربوبية، وعرفان أنوار العبودية.."[٢٩].

ويقول (ابن القيم) في تفسير الآية: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً**..﴾: وإذا تأملت هذا التشبيه، رأيته مطابقاً لشجرة التوحيد الثابتة، الراسخة في القلب، التي فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة في السماء، ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت، بحسب ثباتها في القلب، ومحبة القلب لها وإخلاصه، ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقها، ومراعاتها حق رعايتها. فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها، واتصف قلبه بها، وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها، فعرف حقيقة الإلهية التي يثبتها قلبه لله، ويشهد بها لسانه، وتصدقها جوارحه، ونفى تلك الحقيقة، ولوازمها، عن كلّ ما سوى الله عز وجل، وطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية، طائفة سالكة سبيل ربهم ذلاً، غير ناكبة عنها، ولا باغية سواها بدلاً، كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلاً. فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب، على هذا اللسان، لا تزال تؤتي ثمرَتَها من العمل الصالح الصاعدِ إلى الله كلَّ وقت. فهذه الكلمة الطيّبةُ هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الربِّ تعالى، وهذه الكلمةُ الطيّبةُ

تُثمرُ كَلِماً كثيراً طيّباً، يقارنُه عملٌ صالحٌ، فيرفع العملُ الصالح الكلمَ الطيّب، كما قال تعالى: ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾[٣٠]، فأخبر تعالى أنَّ العملَ الصالحَ يرفعُ الكلِمَ الطيِّب، وأخبر أنَّ الكلمةَ الطيّبة تُثمر لقائلها عملاً صالحاً كلَّ وقت. والمقصود أنَّ كلمةَ التوحيد، إذا شهد بها المؤمنُ، عارفاً بمعناها وحقيقتها، نفياً وإثباتاً، متَّصفاً بموجبها، قائماً قلبُه ولسانُه وجوارحُه بشهادته" فهذه الكلمةُ الطيّبةُ هي التي رفعتْ هذا العملَ من هذا الشاهد، أصلها ثابت راسخ في قلبه، وفروعها متَّصلة بالسماء، وهي مخرجة لثمرتها كلَّ وقت"[٣١].

تشبيه الكلمة الطيبة بالشجرة

وعندما نتأمّل هذا المثل العظيم، نجِدُ أنَّ الله تعالى ذَكَر فيه مُمثَّلاً له، ومُمثَّلاً به، ووجهَ المثلية بينهما. فالممثَّلُ له، هو الكلمة الطيّبة، والممثَّلُ به: الشجرة الطيّبة، ووجه المثلية، هو كما قال الله: ﴿**أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا**﴾، فشبَّهَ تعالى كلمةَ الإيمان الثابتة في قلب المؤمن، وما يترتّب عليها من فروع وشُعب وثمار، بالشجرة الطيّبة الثابتة الأصل الباسقةِ الفرع في السماء علوّاً، التي لا تزالُ تؤتي ثمراتها كلَّ حين. ومن يتأمّل في المُمثّلِ به، وهو الشجرة الطيّبة، والممثّل له، وهو كلمة الإيمان في قلب المؤمن، وما يترتّب عليها من ثمار، يجدُ أوصافاً عديدةً متطابقة بينهما، وهو شبهٌ حقيقي في طبيعة الكلمة وطبيعة الشجرة" وما فيهما من حياة ونماء، والكلمة تنمو وتمتد وتثمر، كما تنمو الشجرة وتمتد وتثمر، سواء بسواء![٣٢].

وتشبيه الكلمة الطيبة بالشجرة، لأن الشجرة تثمر الثمر النافع، كالكلمة التي تؤدي إلى العمل الصالح، فعروق هذه الشجرة العلم والمعرفة واليقين، وساقها الإخلاص، وفروعها الأعمال، وثمرتها ما توجبه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة والصفات الممدوحة والأخلاق الزكية والسمت الصالح والهدي والدل المرضي، فيستدل على غرس هذه الشجرة في القلب، وثبوتها فيه، بهذه الأمور[٣٣].

وقد قال بعض السلف: إن الشجرة الطيبة هي النخلة، لحديث (عبد الله بن عمر) (رض) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت. ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله. قال: هي النخلة)[٣٤].

أنَّ النخلةَ فيها بركةٌ في كلِّ جزء من أجزائها، فليس فيها جزء لا يُستفاد منه، وهكذا الشأنُ بالنسبة للمؤمن، "ولما كانت

النخلة أشبه الأشجار بالإنسان شبّهت به، وذلك أن كل شجرة إذا قطع رأسها، تشعبّت الغصون من جوانبها، والنخلة إذا قطع رأسها يبست وذهبت أصلاً. ولأنها تشبه الإنسان، وسائر الحيوان، في الالتقاح، لأنها لا تحمل حتى تلقح.."[٣٥].

وفي رواية أخرى عن (ابن عمر) (رضي الله عنه) أيضاً، أنه قال: كنا عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال: (**أخبروني بشجرة طيبة تشبه الرجل المسلم، لايحات ورقها ولا، ولا، ولا، تؤتي أكلها كلّ حين**). قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر (رضي الله عنه) وعمر (رضي الله عنه) لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئاً، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): هي النخلة)[٣٦].

قال الحافظ ابن حجر: "قوله: (ولا ولا ولا)، قيل في تفسيره: ولا ينقطع ثمرها، ولا يعدم فَيْؤها، ولا يبطل نفعها.. وبركة النخلة موجودة في جميع أجزائها، مستمرة في جميع أحوالها، فمن حين تطلع، إلى أن تيبس، تؤكل أنواعاً، ثم بعد ذلك ينتفع بجميع أجزائها، حتى النوى في علف الدواب، والليف في الحبال، وغير ذلك مما لا يخفى. وكذلك بركة المسلم عامة في جميع الأحوال، ونفعه مستمر له ولغيره، حتى بعد موته.."[٣٧].

ولا فرق بين خصوص النخلة أو عموم الشجر الطيب، ففي كليهما يتأدى المعنى، والأصل التشبيه بالشجرة، والمشبه بها شجرة الإيمان، ليحصل التطابق.

"فالمشبه هو الهيئة الحاصلة من البهجة في الحس، والفرح في النفس، وازدياد أصول النفع باكتساب المنافع المتتالية بهيئة رسوخ الأصل، وجمال المنظر، ونماء أغصان الأشجار، ووفرة الثمار، ومتعة أكلها، وكل جزء من أجزاء إحدى الهيئتين يقابله الجزء الآخر من الهيئة الأخرى، وذلك أكمل أحوال التمثيل أن يكون قابلاً لجمع التشبيه وتفريقه"[٣٨].

فابن عمر وقع في نفسه أنها النخلة، والحاضرون أخذوا يذكرون شجر البوادي: شجرة السدر، أو شجرة السرح، أو كذا وكذا، فلما لم يعرفوها أخبرهم النبي (صلى الله عليه وسلم) بأنها النخلة. أخبر (ابن عمر) أباه بما وقع في نفسه، وقال: إني استحييت أن أتكلم لما رأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، وعمر يشجعه، قال: لأن تكون قلتها أحبّ إليّ من كذا وكذا" يحب أن يبرز ابنه، وأن يظهر له فهم وإدراك. ففي هذا الحديث أنه شبه المؤمن بشجرة النخل، ولعلّ وجه الشبه كثرة المنافع فيها" فإنّ نفعها كثير" فإن ثمرها غذاء وقوت يقتات به، وهو من أنفع الأغذية تمراً ورطباً وبلحاً، ومنه أيضاً يؤخذ دبسها ونواها.. أو تعلف به الدواب، وكذلك

خوصها يعمل منه الحصر والفرش والزماميل والأواني. وكذلك جريدها يصلح عصياً وسياطاً، ويجعل في سقف المباني، وكذلك أيضاً يوقد به، ويصلح وقوداً، وكذلك ليفها تعمل منه الحبال ونحوها" فمنافعه كثيرة.

فكذلك المؤمن منافعه كثيرة؛ يعني أنه عبادات بقلبه، عبادات بلسانه، عبادات بيديه وبرجليه، وبسمعه وببصره، عبادات بماله، يعني أن هذه كلها منافع، كذلك أيضاً ينفع المؤمنُ إخوته، ينفعهم بنصيحته، ينفعهم بيديه، ينفعهم بلسانه، ينفعهم بإشارته، وببدنه، فمنافعه كثيرة، كما أن منافع النخلة كثيرة. فهذا بيان أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يحب ضرب الأمثلة، حتى تقرب الأشياء إلى الأفهام.

أنَّ النخلة لا بدّ لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر، وكذلك شجرة الإيمان لا بدّ لها من أصل وفرع وثمر، فأصلها الإيمان بالأصول الستة المعروفة، وفرعُها الأعمال الصالحة، والطاعات المتنوّعة، والقربات العديدة، وثمراتُها كلُّ خير يحصِّلُه المؤمن، وكلُّ سعادة يجنيها في الدنيا والآخرة.

روي عن (طاووس) أنه قال: "مثل الإيمان كشجرة" فأصلها الشهادة، وساقها وورقها كذا، وثمرُها الورع، ولا خير في شجرة لا ثمر لها، ولا خير في إنسان لا ورع فيه"[٣٩].

قال (البغوي) رحمه الله: "والحكمة في تمثيل الإيمان بالشجرة، هي أنَّ الشجرةَ لا تكون شجرةً إلاّ بثلاثة أشياء: عِرق راسخ، وأصلٌ قائم، وفرع عالٍ. وكذلك الإيمان لا يتمّ إلا بثلاثة أشياء: تصديقٌ بالقلب، وقولٌ باللسان، وعمل بالأبدان"[٤٠].

وقال ابن القيم رحمه الله: "الإخلاص والتوحيد شجرةٌ في القلب، فروعُها الأعمال، وثمرها طِيبُ الحياة في الدنيا، والنعيمُ المقيمُ في الآخرة. وكما أنَّ ثمار الجَنّة لا مقطوعة ولا ممنوعة، فثمرة التوحيد والإخلاص في الدنيا كذلك. والشرك والكذب والرياء شجرة في القلب، ثمرها في الدنيا الخوفُ والهمُّ والغمُّ وضيق الصدر وظلمة القلب، وثمرها في الآخرة الزَّقومُ والعذاب المقيم، وقد ذكر الله هاتين الشجرتين في (سورة إبراهيم)"[٤١].

أنَّ النخلةَ، كما وصفها النبيّ (صلى الله عليه وسلم): (لا يسقط ورقُها)، وبين المسلم والنخلة في هذا وجه شبه، يتضح بما روي عن ابن عمر: قال: "كنا عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ذات يوم فقال: (إنَّ مثل المؤمن كمثل شجرة لا تسقط لها أنملة، أتدرون ما هي؟) قالوا: لا. قال: (هي النخلة، لا تسقط لها أنملة، ولا تسقط لمؤمن دعوة)[٤٢].

قال القرطبي في تفسيره مبيِّناً أهميةَ هذه الزيادة، وعِظم فائدتها: وزاد فيه الحارث بن

أسامة زيادةً تساوي رحلة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (وهي النخلة لا تسقط لها أثلة، وكذلك المؤمن لا تسقط له دعوة)، فبيّن معنى الحديث والمماثلة[٤٣].

فالكلمة هي كلمة الإخلاص، والشجرة أصل الإيمان، وأغصانها اتباع الأوامر واجتناب النواهي، وزهرها ما يهم به المؤمن من الخير، وثمرها عمل الطاعات، وحلاوة الثمر جني الشجرة، وغاية كماله تناهي نضج الثمرة، وبه تظهر حلاوتها[٤٤].

والدعاء مأمور به، كما هو معلوم، وموعود عليه بالإجابة، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٤٥]، لكن الدعاء سببٌ مقتضٍ للإجابة، مع استكمال شرائطه وانتفاء موانعه، وقد تتخلّف الإجابة لانتفاء بعض شروطه، أو وجود بعض موانعه، وآدابه، والتي من أعظمها حضور القلب، ورجاء الإجابة، والعزم في المسألة[٤٦].

وذكر ابن القيّم – رحمه الله – في معنى الحديث وجهاً آخر، وهو أنّ ذلك يدلّ على: (دوام لباسها وزينتها، فلا يسقط عنها صيفاً ولا شتاءً، كذلك المؤمن لا يزول عنه لباس التقوى وزينتها حتى يوافيَ ربَّه تعالى)[٤٧].

والنخلة ينتفع بكل شيء فيها، من جريدها وسعفها وعرجونها وساقها وعشميقها، حتى ظلها وثمرها.

روى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: قال ناس من فقراء المسلمين قالوا يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يتصدقون ولا نتصدق، وينفقون ولا ننفق، قال: (أفرأيتم لو كل مال الدنيا وضع بعضه على بعض أكان بالغاً السماء؟) قالوا: لا يا رسول الله، قال: (ألا أخبركم بشيء أصله في الأرض وفرعه في السماء؟ أن تقولوا في دبر كل صلاة: لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله عشر مرات، فإن أصلها في الأرض وفرعها في السماء)[٤٨].

الدروس التربوية والدعوية من المثال النبوي

١. المسابقة العلمية.. سنة نبوية

قد يظنّ أحد أن المسابقات العلمية طارئة على المنهج الإسلامي، وأنها من روح العصر، ولكن الحقّ أن العلماء كانوا – على مرّ العصور – يستعملون الألغاز والأحاجي في تدريس العلم، وخصوصاً عند الاستراحات، وبين الدروس المتعددة، بل وألّفوا فيها الكتب والمصنفات، وهم في ذلك يتبعون الهدي النبوي.

(وفي الحديث غير ما تقدم امتحان العالم أذهان الطلبة بما يخفى، مع بيانه لهم، إنْ لم يفهموه.. وأما ما رواه أبو داود عن النبي (صلى الله عليه وسلم) (أنه نهى عن الأغلوطات (أيْ: صعاب المسائل).. فإن

ذلك محمول على ما لا نفع فيه، أو ما خرج على سبيل تعنت المسؤول أو تعجيزه، وفيه التحريض على الفهم في العلم)[٤٩].

وهكذا، حرصت الشريعة الإسلامية على أن يستفيد المؤمن من جميع وقته، حتى عند استراحته وفيئته، فأجازت له اللهو المباح، واللعب الجاد، فكان من المباح للمؤمن استعمال الرمي والمناضلة، والمسابقة الفكرية، والإلغاز من أجل قوة العقل، وفي الحالتين فلا تفريط في الوقت، ولا ضياع في الجهد، فيا للروعة" ما أحرص الإسلام على وقت أبنائه[٥٠].

٢. تربية النبي (صلى الله عليه وسلم) أصحابه على الاستنباط وحل الألغاز:

قال ابن حجر: "وفي هذا الحديث من الفوائد: منها: امتحان العالم أذهان الطلبة بما يخفى، مع بيانه لهم، إنْ لم يفهموه.. وفيه التحريض على الفهم في العلم، وفيه أيضاً أن المُلغِّز ينبغي له ألا يبالغ في التعمية، بحيث لا يجعل للمُلَغَّز له باباً يدخل منه، بل كلما قَرَّبه، كان أوقع في نفس سامعه"[٥١].

ولا شك أن السؤال مدعاةٌ للتفكير، وتنميته، ومدعاة للاشتياق لمعرفة الجواب، مما يكون أرسخ في الذهن.. قال البغوي: "فيه دليل على أنه يجوز للعالم أن يطرح على أصحابه ما يختبر به علمهم"[٥٢].

وعلى المعلم أن يحسن اختيار المسائل التي يطرحها على طلابه، وكذلك له أن يسمح بالمناقشة بين الطلاب، والإدلاء بالآراء، ألا ترى إلى قوله: (فوقع الناس في شجر البوادي)، أن ذلك مشعِرٌ بأن الجميع قد ذهبوا في تحليل هذه المعضلة كلّ مذهب. قال الحافظ: أيْ ذهبت أفكارهم في أشجار البادية، فجعل كل منهم يفسرها بنوع من الأنواع، وذهلوا عن النخلة[٥٣].

والمتأمل في المسألة التي طرحها النبي (صلى الله عليه وسلم) عليهم، يجد أنها قد حفزت هممهم، وبعثتهم على التفكير في الحل، وتلهفت أنفسهم لمعرفة الجواب الصحيح من رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، لما عجزوا عن حلّها.

٣. بناء القاعدة الفكرية:

هناك معضلة يقع فيها كثير من القرّاء، وهي أنه في أثناء القراءة لا يحرص على بناء فكره، وإحياء قدراته العقلية، ولا يستحثها للنظر والتأمل، وإنما يقع أسيراً ينتظر التلقين من المؤلف، ويقف دائماً موقف المتلقي. ومثل هذا، وإن حصل كمّاً من المعلومات، فإنه ليس قارئاً جيداً، لأنه لا يملك البصيرة، ولا القدرة على التمييز والموازنة بين اجتهادات العلماء والمفكرين. "فالتفكير هو الذي يجعل ما نقرؤه ملكاً لنا"[٥٤].

ونظير ذلك من يعتني بالحفظ وحده، ولا يلتفت إلى الفهم. والحفظ – على الرغم من أهميته وضرورته – فإنه لا ينبغي الاكتفاء به، بل يجب تسخيره لخدمة الفقه والفهم. وقديماً عتب (الإمام أحمد) على بعض المحدثين بقوله: "ما أقلّ الفقه في أصحاب الحديث"[٥٥].

ومن لطائف الأخبار في هذا الباب، ما ذكره (إسحاق بن راهويه)، حيث قال: (كنت أجالس بالعراق أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وأصحابنا، فكنا نتذاكر الحديث من طريق وطريقين وثلاثة، فيقول يحيى بن معين من بينهم: وطريق كذا. فأقول: أليس قد صح هذا بإجماع منا؟ فيقولون: نعم. فأقول: ما مراده؟ ما تفسيره؟ ما فقهه؟ فيقفون كلهم إلا أحمد بن حنبل)[٥٦].

إن بناء القاعدة الفكرية للقارئ من أشق المهمات التي تواجه القارئ الجاد، فليس كل كتاب يمكن أن يبني فكر الإنسان، حتى بعض الكتب المفيدة، التي قد يستفيد منها القارئ مادة علمية، قد لا تخدم ذلك البناء. وما أحسن قول الإمام ابن القيم: "الفكر هو الذي ينقل من موت الفطنة إلى حياة اليقظة"[٥٧].

وهنا يأتي دور المعلمين والمربين في توجيه طلابهم، والأخذ بأيديهم في الطريق القويم. وقديماً كان بعض العلماء يربّي فكر الطالب ببعض مسائل الحساب والفرائض، ويحاوره بعويص المسائل، وهذا منهج نبوي أصيل في التربية والتعليم، فها هو ذا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يسأل أصحابه: (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟).

وبهذا يتبين أن القراءة الجادة هي قراءة التفهم والبصيرة والإدراك. ونعمة الفهم من أجلِّ النعم التي ينعم الله تعالى بها على العبد، و"رُبَّ شخص يفهم من النص حكماً أو حكمين، ويفهم منه الآخر مائة أو مئتين"[٥٨].

وكم جرَّ سوء الفهم على صاحبه من الخلل والاضطراب" وما أحسن قول الإمام (ابن القيم): "ما أكثر ما ينقل الناس المذاهب الباطلة عن العلماء بالأفهام القاصرة"[٥٩].

ثمرات الكلمة الطيبة

الكلمة الطيبة هي شهادة أن لا إله إلا الله، فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة، الظاهرة والباطنة، فكل عمل صالح مرضيّ لله، ثمرة هذه الكلمة.. فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان، لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الرب تعالى، وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلِماً كثيراً طيباً، يقارنه عمل صالح، فيرفع العمل الصالح بالكلم الطيب، كما قال تعالى: ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾[٦٠]، فأخبر تعالى أن العمل الصالح

يرفع الكلم الطيب، وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملاً صالحاً كل وقت[٦١].

الكلام فنٌّ وأدب وذوق، ومن لا يتقن هذا الفن يضيِّع الكثير من الفوائد والمغانم، فكم من كلمة خبيثة لا يأبه العبد بها، تودي به إلى الذُّل والتهلكة، وكم من كلمة طيِّبة قرَّبت بين المتباعدين، وأصلحت ما بين المتخاصمين، وجمعت شمل المتدابرين، فأورثت صاحبها عزّاً وحمداً بين الناس، لا يُمحى على مرِّ الأيام" لذلك أمر الله عباده بأن يجمِّلوا ألسنتهم بالكلام الحسن، وضربَ لهم مثلاً حيَّاً، يصوِّر فيه قداسة الكلمة الطيِّبة.

إن تصوير المعاني في القرآن معجزة من معجزاته الكثيرة، فهو بأسلوبه المتميِّز يبعث الحياة في الجماد، ويحوِّل المعنى المجرد إلى أمر شبه محسوس، والخبر الغيبي إلى أمر مُتَخَيَّل شبه ملموس، ليقرِّبه من الأذهان، ويجلِّيه للأبصار، وينفي عنه الغموض، فتكون الصورة أوضح، والدلالة أبلغ، والحكمة أنفع!!.

وهذه إحدى صور القرآن الكريم ينقلها من العالم المجرَّد إلى عالم الحسِّ والإدراك، إنها الكلمة الطيِّبة، وهي أشبه ما تكون بفاكهة لذيذة المذاق، كثيرة الفائدة، إنها تُسعد قائلها وسامعها" فهي تخرج من القلب المزكّى، ويطلقها اللسان المنقّى، لتستقر في القلب، وتُسعد الناس بما تخلقه من جوّ يفيض بالأُلفة والمودَّة، وتُنْعِشُهم بأريجها الفوَّاح. إن الكلمة الطيِّبة ترجمة صادقة للشعور الطيِّب والإحساس النبيل، تحمل بين حروفها دفء الحبِّ ولذَّة العطاء، وسعادة التواصل الرفيع بين إنسان وإنسان" فهي رَوْح ورَيحان، كمثل شجرة مباركة، جذورها ضاربة في عُمق الأرض، تمتصُّ منها غذاءها وأملاحها، وتحوِّلها إلى نُسغ يصعد إلى ساقها فأغصانها فأوراقها، فترتعش فيها دفقة الحياة، وإذا بها تتطاول صاعدة في السماء، ثمَّ تزهر وتثمر في موعدها المحدَّد، بإذن خالقها، فتتجمَّع حولها القلوب المتلهِّفة، والنفوس المتعطِّشة، لجني ثمرها، والتنعُّم بخيرها المتجدِّد كلَّ عام. ولئن كانت جذور الشجرة الطيِّبة تتفرَّع في جوف الأرض، فإن الكلمة الطيِّبة تتفرَّع في شغاف القلب، وتلامس سويداءه، لتخلِّف مكانها أمناً وسلاماً، بينما تصعد فروعها إلى سماء النفس فتجلوها، وإلى مرآة الوجدان فتصقلها، وتنشر على من حولها ظلال الإيمان الندية، فهي لبنة أساسية في صرح السعادة الإنسانية[٦٢].

إن الكلام الطيِّب رحيق الأنبياء، ولغة المؤمنين الصادقين.

والمؤمن الحقُّ هو من تخلّق بخلق القرآن، فسما تفكيره، وتهذَّبت مشاعره، فانعكس هذا كلّه على كلامه وتصرفاته، فهو هادئ، رزين، وقور، لا يلفظ إلا كلاماً موزوناً

طاهراً نقيّاً. فهو إمَّا أن يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر، وإمَّا أن يصلح بين الناس، أو يعين على عمل نافع.

وقد وجَّه القرآن إلى ما ينبغي أن تكون عليه مجالس المؤمنين بقوله تعالى: ﴿**لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ**﴾(٦٣).

كما وجَّه القرآن إلى وجوب أن يكون كلامنا صادقاً، موزوناً، يراد به الوصول إلى الحقِّ، وإلى إقامة المجتمع الصالح السليم البنية، قال تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنوا اتَّقوا الله وقولوا قولاً سَديداً، يُصْلِحْ لَكُم أَعمالَكُم ويَغْفِرْ لَكُم ذُنوبَكم ومَنْ يُطِعِ الله ورسولَهُ فقد فازَ فوزاً عَظيماً**﴾(٦٤). هذا فيما بين الإنسان وبين إخوانه في الإنسانية.

أمَّا فيما بينه وبين ربِّه، فلسانه دائم التسبيح والتحميد والتمجيد والدعاء، ولا يدور إلا بكلمات الذِّكر والشكر لله. فالمؤمن قرآن متحرِّك، سلوكه سلوك الأتقياء، وأقواله أقوال الأنبياء، لا غضب، ولا فُحش، ولا إسفاف، ولا مبالغة، ولا لغو، وإذا غضب فإنه يملك نفسه، ويصونها عن الانزلاق في مهاوي السفاهة والابتذال.

قدوته في ذلك رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، الّذي ملك قلوب الناس بكلامه الطيِّب، وقوله اللّيِّن. أمَّا منهله، الذي يستلهم منه كنوز الكلِم، ولآلئه، فهو القرآن الكريم، الّذي سبى القلوب ببيانه الأخَّاذ، وكلامه العذب السلسبيل.

الكلمة الطيِّبة نفحة روحانية، تصل ما بين القلوب، وتربطها برباط المحبَّة والودِّ والتآلف.

الكلمة الطيِّبة تُزهر في النفس، لتتفتَّح بأجمل أزهار الخير والحبِّ، الّتي يعبق شذاها فوَّاحاً في كلِّ زمان ومكان.

إن لشجرة الإيمان جذوراً ضاربة في أرض الهدى ومحبَّة الله، من تمسَّك بها، فقد استمسك بالعروة الوثقى، واكتسب ثباتاً وتصميماً لا زيغ فيه ولا ضلال.

وهكذا تثمر الكلمة الطيبة بحسن نيّة قائلها.. أو بحسن ذاتها، أو بمحض رحمة الله عز وجل، بما جعله من بركة العلم، مما قد يكون أضعافاً مضاعفة عن أجر العمل ذاته، وما قد تؤديه لصلاح الخلق. وما أخصب تاريخنا الإسلامي بكثرة الخلق الذين انتفعوا بالمواعظ، ثم صارو من قادة الأمة، وكتب الله لقائل الكلمة مثل أجور أعمالهم، من غير أن ينقص منها شيئاً.

فهذا التابعي (أبو محمد حبيب) يقبل على الآجلة، وينتقل عن العاجلة، بسبب موعظة الإمام (الحسن البصري)، حيث وقعت موعظته في قلبه، وأقبل على العلم والعمل بعد الموعظة.

وهذا التابعي الكوفي الثقة (أبو عبد الله زاذان الكندي)، الذي كان يضرب ويغني

بالعود، وكان له صوت حسن، فمرّ عليه عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) فقال: (ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة كتاب الله)، فتاب من ضرب العود، وكسره، ولازم (ابن مسعود) حتى صار إماماً في العلم.

وانظر ما حصل لسري السقطي وبشر الحافي.. وأمثالهما.

والكلمة الطيبة، قد ينتفع بها سامعها المباشر. وقد ينتفع بها فيما بعد، بل قد يكون نفعه أشد وأكبر.

وقد تلاقي الكلمة قلباً صافياً، ونية صادقة، فتتمكن من القلب، وتثمر الكلمة بالنية، كما تصادف البذرة الماء الصالح، والتربة الصالحة، فتؤتي الشجرة أكلها بإذن ربها. وهكذا (فرّب مبلغ أوعى من سامع).

وأجر الكلمة المعطاء، وما يكتبه الله عز وجل للسامع وللمبلّغ، بل ولسلسلة المبلّغين، فلقائل الكلمة كِفْل منها، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، وهذا من فضل الله على عباده، ومما فضّل به المتكلمين بالعلم عن غيرهم، إذ تبقى ثمرتهم منتجة، وعلمهم مستمراً، وفضلهم دائماً، إلى ما يشاء الله.

والناس في استقبال الكلمة أنواع: فمنهم من يسمعها ويعمل بها، ومنهم من لا ينتفع بها إطلاقاً، ومنهم من يقوم بنقلها للغير.

وما ضرّ المتحدث أن يتحدث بما يعلم، ويبلّغ الرسالة للناس، وينقل الكلمة الطيبة.

فسوف يظل الناس على هذه النماذج، ويجب أن لا يقف الصنف الثالث مانعاً من تبليغ العلم، ولا حاجزاً في بث الكلمة الطيبة.

وقد شبّه الرسول (صلى الله عليه وسلم) هذه الأصناف الثلاثة في استقبال الكلمة الطيبة، بأنواع من الأرض، فقال (صلى الله عليه وسلم): (مثل ما بعثني الله من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضاً، فكان منها ثغبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماءً، ولا تنبت كلأً. فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعمل، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به)[٦٥].

ضرب النبي (صلى الله عليه وسلم) لما جاء به من الدين مثلاً بالغيث العام، الذي يأتي في حال حاجتهم إليه، ومثّل قلوب الناس فيه، كمثل الأرض في قبول الماء. **فأصبح هناك ثلاثة طوائف:**

الطائفة الأولى: من حمل العلم، وتفقّه فيه، فأحيا قلبه، وعمل به، وعلّمه غيره، فانتفع ونفع، فمثله كمثل الأرض في قبول الماء، فأصاب الأرضَ المطرُ، فانتفضت حية بعد أن

كانت ميتة، وتنبت الكلأ، فينتفع به الناس، والدواب، بالشرب والرعي والزرع وغيرها.

الطائفة الثانية: من حمل العلم والحديث، ولم يتفقه فيه، فهؤلاء لهم قلوب واعية، لكن ليست لهم أفهام، ولا رسوخ لهم في العلم، يستنبطون به المعاني والأحكام، ولا اجتهاد عندهم في الطاعة، فهم يحفظونه حتى يأتي طالب متعطش لما عندهم، فينتفع به. فهؤلاء نفعوا بما بلغهم، فهؤلاء مثلهم كمثل الأرض الصلبة، التي لا تنبت، ولكنها تمسك الماء لغيرها، فهذه الأرض لا تقبل الانتفاع في نفسها، ولكن يستقر فيها الماء، فينتفع به الناس والدواب.

والطائفة الثالثة: من لا يحفظ العلم، ولا يحمله، ولا فهم له، وإذا سمع العلم لا ينتفع به، ولا يحفظه، ولا يعمل به، ولا ينقله لينتفع به غيره، فهذا مثله كمثل الأرض السبخة، أو الملساء، التي لا تنبت، فهي التي لا تنتفع بالماء، ولا تمسكه لينتفع به غيرها[٦٦].

وهكذا ما على الداعية سوى أن يقول كلمته المعطاء الطيبة، ولا يهتم بكثرة الخاسرين، الذين هم كالقيعان، فهناك من الناس من هم كالأرض الصلبة، سينقلون الكلمة الطيبة، وتنتفع بها خلائق وبشر كثير، وقد تثمر في مكان آخر، أو تؤتي أكلها في زمن آخر. وقد يستمع للكلمة أناس كالأرض الطيبة، لا تلبث أن تسمع مع صدى الكلمة تكبيرات مدوية، ولا تمكث حتى ترى لنور الكلمة بريقاً يأخذ بالأنظار، فتحيا بالتكبير نفوس، وبالبروق تبصر عيون، والأجر من بعد ذلك مكتوب لصاحب الكلمة.

ولعل هذه الكلمة الطيبة هي من أنواع ما عناه سيد الخلق (صلى الله عليه وسلم) بقوله: (إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يلقي لها بالاً، يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم)[٦٧]. وهذا التوجيه يضع لأدب التخاطب قاعدة متينة، تسير به على هدى ونور، ويوجّه المتكلم إلى مراعاة الاتزان في كل كلمة ينطق بها، سواء تجاه نفسه، أو تجاه الآخرين. مما يجعل التميّز بأدب التخاطب في الإسلام متّسماً بقيمةٍ رفيعةِ المستوى بين القيم الحضارية البنّاءة.

وقد ركّز العلماء السابقون على الشطر الثاني من الحديث، لكثرة المتحدثين في المجتمع الإسلامي، ولم يتحدث عن شطره الأول إلا القليل، ومما قيل: "والكلمة التي ترفع بها الدرجات، أو يكتب بها الرضوان، هي التي يدفع بها عن المسلم مظلمة، أو يفرج عنه كربة، أو ينصر بها مظلوماً..)[٦٨].

فكيف بالكلمة التي تدفع عن مجموع المسلمين المظالم، وتدفع عنهم الكرب، بدعوتهم لإقامة شرع الله؟ وكيف بالكلمة

التي تقلع الظلم من جذوره، بتطبيق منهج الله؟ وكيف بعبارات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ وإذا كانت الدرجات ترفع بما يحقق المصالح الدنيوية، فكيف بما يحقق المصالح الأخروية؟ وعلى الأدنى يقاس الأعلى، وكيف بالكلمات التي تقود إلى قيام مجتمع مسلم.

إن الأجر عظيم، والثواب جزيل – إذا صحت النية – في الكلمات التي تقيم خيراً، وتدفع باطلاً، وتحيي سنّة، وتميت بدعة، بلْ ويزداد الأجر، ويرتفع الثواب، فيما يدفع العمل الإسلامي وينميه، أو يدعو جمهور المسلمين لتبنيه، أو يدفع عنه السوء وما قد يعتريه، فكيف إذن بما ينشئ العمل ابتداء ويغذيّه؟ ويعلّم الدعاة النظام وفنونه، وقواعد العمل وأصوله؟ مما يؤدي إلى هداية الخلق الكثير، وإلحاقهم لركب الدعوة، وإتمام المسير. ومع هذا يقال أيضاً: ما هو فضل الكلمات التي تقود – فوق ذلك كله – إلى قيام مجتمع إسلامي؟ وكيف بما يخرج الناس من الظلمات إلى النور؟ أو تحويل المجتمع من الجاهلية إلى الإسلام؟ وإقامة شرع الله في الأرض؟

ومن هنا ينبغي للداعية أن لا يزهد أبداً بما عنده من العلم، أو يبتعد – بحجة الزهد – عن تبليغ الأمانة، فما يدري أين يكون الخير؟ ومتى تؤتي كلمته عطاءها، بل ومتى تثمر؟

فالكلمة الواحدة قد تنشئ دعوة، وقد تبني مؤسسة؟ وقد ينقذ الله تعالى بها قلوباً، أو يعمر بها نفوساً، بل وقد يحيي الله بها أقواماً من السبات، أو يخرج بها الله عز وجل أمماً من عالم الأموات، وما على الداعية إلا تبليغ الرسالة، ونقل الأمانة، والله تعالى يختار الأرض الصالحة لها، ولو بعد حين، وينبتها نباتاً حسناً، ولو بعد سنين. وقد تؤتي الكلمة ثمارها في المكان البعيد، حتى يكتب الأجر للداعية دون أن يشعر، ولعلّ الله تعالى يكتب له أجر النية، ويبعده – بحكمته – عن سيئة الرياء.

وما على الداعية إلا التبليغ، ولا يترك الفرصة تفوت من يديه، لعلّ الله تعالى يكتب له أجر الكلمة المعطاء، التي لا يلقي لها بالاً وترفعه الدرجات، فلا يفّوت عليه الفرصة رفيق السفر، ولا فرصة اللقاء العابر في وليمة أو مناسبة، ولا جلسة استراحة في ناد أو مقهى، ولا جلسة المرافقة في الدائرة أو الدراسة، ولا يفّوت مجال الارتباط في تجارة أو معاملة، ولا يزهد في الكلمة الطيبة الصغيرة في السوق، وعند الشراء، أو في الحدائق عند الاسترخاء، أو في المسجد بعد الصلوات، أو عند التعارف مع الغير في السفرات والخلوات، وأشباه ذلك مما قد ييسره الله، والموفق السعيد من وفقه الله لكلمة الخير التي تنتشر في الآفاق، فيكتب الله

له أجرها وأجر من يعمل بها إلى ما يشاء الله[٦٩].

خصائص هذه الشجرة

لا بدّ من البحث عن صفات الشجرة التي شبهت بالكلمة الطيبة، والتي تظهر من الآية أنها أربعة خصائص:

١. إنها شجرة طيبة: شبّه الله تعالى الكلمة الطيبة كشجرة طيبة، والطيّب من كل شيء البالغ النفع، الذي لا ضرر فيه.

"فالصفة الأولى لتلك الشجرة كونها طيبة، وذلك يحتمل أموراً:

أحدهما: كونها طيبة المنظر والصورة والشكل.

وثانيها: كونها طيبة الرائحة.

وثالثها: كونها طيبة الثمرة، يعني أن الفواكه المتولدة منها تكون لذيذة مستطابة.

ورابعها: كونها طيبة بحسب المنفعة، يعني أنها كما يستلذ بأكلها، فكذلك يعظم الانتفاع بها.

ويجب حمل قوله: شجرة طيبة، على مجموع هذه الوجوه، لأن اجتماعها يحصل كمال الطيب"[٧٠].

أنَّ النخلة وُصفت في الآية بأنَّها طيّبة، وهذا أعمّ من طيب المنظر والصورة والشكل، ومن طيب الريح، وطيب الثمر، وطيب المنفعة. والمؤمن أجلّ صفاته الطيب في شؤونه كلّها، وأحواله جميعها، في ظاهره وباطنه، وسرِّه وعلنه" ولهذا عندما يدخل المؤمنون الجَنَّةَ تتلقّاهم خزنتها، وتقول لهم: ﴿**سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ**﴾[٧١]، وقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[٧٢]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ**﴾[٧٣].

فالطيب أجَلُّ صفاتهم، وأجمل نعوتهم، وأحسن حليتهم، في أحوالهم كلها، في أقوالهم وأعمالهم، وفي حركاتهم وسكناتهم، وشؤونهم جميعها.

٢. ثبات أصلها وعمق جذورها: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾

وأصل هذه الشجرة ثابت مستقر في الأرض، وجذورها – التي تقوم عليها، وتعتمد عليها في بقائها واستمرار نفعها – ثابتة لا تزول، ولا تستطيع العوامل الطبيعية أن تجتثه وتقتلعه، لأن الجذور تمتد إلى آماد بعيدة، تستطيع أن تجلب لنفسها ما تحتاج إليه من الماء لتغذى به، فيزداد أصلها امتداداً إلى أسفل، ويزداد ساقها امتداداً إلى أعلى، فتمتاز بالثبات والعلو[٧٤].

أنّ النخلةَ شديدةُ الثبوت، كما قال الله تعالى في الآية المتقدمة: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾، وهكذا الشأنُ في الإيمان إذا رسخ في القلب، فإنه يصير أشدّ ما يكون من الثبات، لا يزعزعه شيء، بل يكون ثابتاً كثبوت الجبال الرواسي.

سئل الأوزاعي – رحمه الله– عن الإيمان أيزيد؟ قال: "نعم حتى يكون كالجبال، قيل: أينقص؟ قال: نعم، حتى لا يبقى منه شيء"(٧٥).

وسئل الإمام أحمد عن زيادة الإيمان ونقصانه، فقال: "يزيد حتى يبلغ أعلى السموات السبع، وينقص حتى يصير إلى أسفل السافلين السبع"(٧٦).

يقول الأمام الرازي: "والصفة الثانية: قوله: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾، أيْ راسخ، باق، أمن الانقلاع والانقطاع والزوال والفناء، وذلك لأن الشيء الطيب إذا كان في معرض الانقراض والانقضاء، فهو وإن كان يحصل الفرح بسبب وجدانه، إلا أنه يعظم الحزن بسبب الخوف من زواله وانقضائه. أما إذا علم من حاله أنه باق دائم، لا يزول ولا ينقضي، فانه يعظم الفرح بوجدانه، ويكمل السرور بسبب الفوز به"(٧٧).

حين نعرف أن أصول دعوات الأنبياء – عليهم السلام– واحدة، تركّزت في الدعوة إلى التوحيد الخالص، وعبادة الله تعالى، وإقامة الحق والعدل في الأرض، وإعمارها بما يسمح بإقامة مجتمع التوحيد، ندرك أيّ جذور ضاربة تمتلكها الكلمة الطيبة على اتساع أمداء الزمان والمكان، وندرك أيّ رصيد من المنطق العام الذي بناه الأنبياء تستند إليه، وأيّ رصيد ضخم من الفطرة يؤازرها في عملية البلاغ المبين. وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد). قال (ابن حجر): ومعنى الحديث أن أصل دينهم واحد، وهو التوحيد، وإن اختلفت فروع الشرائع(٧٨).

فالكلمة الطيبة إرث موروث متصل بالأنبياء –عليهم الصلاة والسلام–. ولكن المشكلة أنّ التفريق بين الأصول والفروع قد لا يتهيأ لكل الناس، مما يجعل الخلط بينهما وارداً، وحينئذ فقد يجمد ما ينبغي أن يتطور، وقد يتطور ما ينبغي أن يثبت.

ويؤخذ من قوله: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾: أنَّ النخلة أصبر الشجر على الرياح والجهد، وغيرُها من الدوح العظام تميلها الريح تارة، وتقلعها تارة، وتقصف أفنانها، ولا صبر لكثير منها على العطش كصبر النخلة. فكذلك المؤمن صبورٌ على البلاء لا تزعزعه الرياح، وقد اجتمع فيه أنواع الصبر الثلاثة: الصبر على طاعة الله، والصبر عن معاصيه، والصبر

على أقداره المؤلمة، قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[٧٩].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٨٠].

٣. وفرعها في السماء: ضمن صفات هذه الشجرة أن فروعها تتفرع إلى مسافات بعيدة نحو السماء، وآخذة في جهة العلو بساقها، وما يتفرع عنه.

يقول الأستاذ سيد قطب: "إنّ الكلمة الطيبة – كلمة الحق – كالشجرة الطيبة، ثابتة، سامقة، مثمرة.. ثابتة لا تزعزعها الأعاصير، ولا تعصف بها رياح الباطل، ولا تقوى عليها معاول الطغيان – وإنْ خيّل للبعض أنها معرضة للخطر الماحق في بعض الأحيان – سامقة متعالية، تطلّ على الشر والظلم والطغيان من عل – وإن خيّل إلى البعض أحياناً أنّ الشرّ يزحمها في الفضاء – مثمرة لا ينقطع ثمرها، لأن بذورها تنبت في النفوس المتكاثرة آناً بعد آن..."[٨١].

وهكذا تتبين عظمة هذه الشجرة الباسقة القائمة ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾، وهذا الوصف يدلّ على كمال تلك الشجرة من وجهين:

الأول: أن ارتفاع الأغصان، وقوتها في التصاعد، يدلّ على ثبات الأصل، ورسوخ العروق.

الثاني: أنها متى كانت متصاعدة مرتفعة كانت بعيدة عن عفونات الأرض وقاذورات الأبنية، فكانت ثمراتها نقية طاهرة طيبة عن جميع الشوائب[٨٢].

٤. نفعها الدائم للخلق باستمرار أكلها وثمارها ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾.

فهي شجرة دائمة النفع، وبركتها وخيرها موجود في جميع أجزائها، مستمر في جميع أحوالها، فمن حين أن تزرع ينتفع بها ثمراً وظلاً ومنافع أخرى، لا تبخل بشيء من المنافع على طالب له، وذلك (بإذن الله) أيْ: بتيسير وإرادة خالقها ومالكها ومدبر أمرها.

"والمراد: أن الشجرة المذكورة كانت موصوفة بهذه الصفة، وهي أن ثمراتها لا بدّ أن تكون حاضرة دائمة في كل الأوقات، ولا تكون مثل الأشجار التي يكون ثمرها حاضراً في بعض الأوقات دون بعض"[٨٣].

إن هذه الشجرة الطيبة التي ضربها الله تعالى مثلاً للكلمة الطيبة دائمة الثمار، وديمومة عطائها نابعة من تناسق الصفتين السابقتين: ثبات الجذور، وبسوق فروعها في جو السماء، والكلمة التي لا جذور لها لا تستطيع أن تصنع شيئاً. والأفكار التي تبثها قصيرة العمر كزهور الربيع، والكلمة التي لا

تنسجم مع لغة العصر، لا تستطيع ملامسة أعماق الإنسان الذي تقرع سمعه، والذي وصفناه بأنه بالغ التعقيد. وقد ملّكتنا هذه الآيات الكريمة المقياس الذي نتعرف به على الكلمة الطيبة، وهذا المقياس هو: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾، فنحن إذا أردنا من هذا المنظور أن نقيس أداء خطب الجمعة في عالمنا الإسلامي، وآثارها في ترقية فهم الناس للإسلام، والتزامهم به، وجدنا أنّ أطناناً من الورق تكتب أسبوعياً دون أن تؤتي الثمار التي تتناسب مع حجم ذلك الجهد المبذول، ونعني به خطأ الأسلوب.

إنَّ النخلةَ كلّما طال عمرُها ازداد خيرُها وجاد ثمرُها، وكذلك المؤمن إذا طال عمره، ازداد خيرُه وحسن عمله. روى الترمذي عن عبد الله بن بُسر: أنَّ أعرابياً قال: يا رسول الله من خير الناس؟ قال: (من طال عمرُه، وحَسُن عملُه)[٨٤].

إنَّ النخلةَ، كما أخبر الله: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾، والأكل الثمر، فهي تؤتي ثمرها كلَّ حين: ليلاً ونهاراً، صيفاً وشتاءً، إمّا تمراً أو بُسراً أو رُطَباً. وكذلك المؤمن يصعد عملُه أوّل النهار وآخره، قال الربيع بن أنس: ﴿كُلَّ حِينٍ﴾: "أيْ كلّ غدوة وعشية" لأنَّ ثمر النخل يؤكل أبداً، ليلاً ونهاراً، وصيفاً وشتاءً، إمّا تمراً أو رطباً أو بُسراً، كذلك عمل المؤمن يصعد أول النهار وآخره"[٨٥].

وقال الضحّاك: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾: "تخرج ثمرها كلَّ حين، وهذا مثل المؤمن يعمل كلَّ حين كلَّ ساعة من النهار، وكلَّ ساعة من الليل، وبالشتاء والصيف، بطاعة الله"[٨٦].

وقد أورد (ابن جرير) عن السلف عدّةَ أقوال في المراد بقوله تعالى: ﴿كُلَّ حِينٍ﴾، ثم قال: "وأولى الأقوال في ذلك عندي قول من قال: عنى بالحين في هذا الموضع: غدوة وعشية، وكلَّ ساعة" لأنَّ الله تعالى ضرب ما تؤتي هذه الشجرة كلّ حين من الأكل لعمل المؤمن وكلامه مثلاً، ولا شك أنَّ المؤمنَ يُرفع له إلى الله في كلِّ يوم صالح من العمل والقول، لا في كلّ سنة، أو في كلّ ستة أشهر، أو في كلِّ شهرين، فإذا كان ذلك كذلك فلا شك أنَّ المثل لا يكون خلافاً للممثَّل به في المعنى، وإذا كان ذلك كذلك كان بيِّناً صحة ما قلنا. فإن قال قائل: فأيُّ نخلة تؤتي في كلِّ وقت أكلاً، صيفاً وشتاء؟ قيل: أما في الشتاء، فإنَّ الطلع من أكلها، وأما في الصيف، فالبَلَح والبُسر والرطب والتمر، وذلك كلّه من أكلها"[٨٧].

ثم روى عن قتادة أنه قال: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾: "يؤكل ثمرها في الشتاء والصيف"[٨٨].

إن مهمة المسلم أن يعيش عصره ويكون مؤثراً لا متأثراً، وأن يكون له دور في صياغة لغة العصر.

ولا ريب أن وجود هذه الأوصاف الجليلة مما يدل على عظمة هذه الشجرة، وفخامتها، وأناقة فضلها.

أنَّ النخلة لا تبقى حيّةً إلاّ بمادة تسقيها وتنميها، فهي لا تحيا ولا تنمو إلاّ إذا سُقيت بالماء، فإذا حبس عنها الماء ذبلت، وإذا قطع عنها تماماً ماتت، فلا حياة لها بدونه. وهكذا الشأنُ في المؤمن، لا يحيا الحياة الحقيقية، ولا تستقيم له حياته، إلاّ بسقي من نوع خاص، وهو سقيُ قلبه بالوحي، كلام الله وكلام رسوله (صلى الله عليه وسلم)" ولهذا سمَّى الله الوحيَ روحاً، في نحو قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا**﴾[٨٩]. وقوله: ﴿**يُنَزِّلُ المَلاَئِكَةَ بالرُوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾[٩٠]، لأنَّ حياة القلوب الحقيقية إنَّما تكون به، وبدونه فإنَّ الإنسان يكون ميتاً، ولو كان بين الناس من الأحياء: ﴿**أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا**﴾[٩١]. ولذا يقول الله تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾[٩٢]. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

فهذا وجه شبهٍ ظاهرٍ بين المؤمن والنخلة، فالنخلة لا تحيا إلاّ إذا سُقيت بالماء، والمؤمن لا يحيى قلبُه إلاّ إذا سُقي بالوحي، وكما أنَّ الأرض الميتة إذا أنزل الله عليها الماء، اهتَزَّت ورَبَتْ وأنبتت من كلِّ زوجٍ بهيج، فكذلك القلب الميّت، إذا سمع الوحي وقَبِلَه، صَلُحَ وحسُنَ ونما فيه من الخير الشيءُ الكثير.

ولذا لّما حذّر الله في (سورة الحديد) من عدم الخشوع لذكر الله، كحال الذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم، قال عقِب ذلك تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[٩٣]. وفي هذا إشارة إلى أنَّ الذي يُحيي الأرض بعد موتها بالماء، فهو كذلك يُحيي القلوبَ بعد موتها بالوحي، ولكن ذلك إنّما يكون لمن عقل آيات الله.

وبهذا يتبيّن أنَّ شجرة الإسلام في القلب، إن لم يتعاهدها صاحبُها بسقيها كلَّ وقت، بالعلم النافع والعمل الصالح، والعود بالتذكّر على التفكّر، والتفكّر على التذكّر، وإلاّ أوشك أن تيبس. يقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (إن الإيمان يخْلَقُ في القلب كما يخلَقُ الثوبُ، فجدّدوا إيمانكم)[٩٤]. وبالجملة، فالغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أن يهلك، ومن هنا تعلم شدّة حاجة العباد إلى ما

أمر الله به من العبادات، على تعاقب الأوقات، وعظيم رحمته، وتمام نعمته وإحسانه إلى عباده، بأن وظّفها عليها، وجعلها مادة لسقي غِراس التوحيد الذي غرسه في قلوبهم[٩٥].

كما أن النخلةَ سهلٌ تناول ثمرها، ومتيسّر، فهي إمَّا قصيرة، فلا يحتاج المتناول أن يرقاها، وإمّا باسقة، فصعودها سهلٌ، بالنسبة إلى صعود الشجر الطوال غيرها، فتراها كأنَّها قد هُيّئت منها المراقي والدرج إلى أعلاها. وكذلك المؤمن، خيره سهلٌ قريبٌ لمن رام تناوله، لا بالغرِّ ولا باللئيم.

وإنَّ النخلةَ قد يخالطها دغلٌ ونبت غريبٌ ليس من جنسها قد يؤذي النخلةَ، ويضعف نموها، ويزاحمها في سقيها" ولهذا تحتاج النخلة في هذه الحالة إلى رعايةٍ خاصّة، وتعاهدٍ من صاحبها، بحيث يُزال عنها هذا الدغل والنوابت المؤذية، فإن فعل ذلك كَمُل غرسه، وإن أهمله أوشك أن يغلب على الغرس، فيكون له الحكم، ويضعف الأصل.

وهكذا الأمر بالنسبة للمؤمن، لا شك أنَّه يصادفُه في الحياة أمورٌ كثيرةٌ قد توهي إيمانَه وتُضعف يقينَه، وتزاحم أصلَ الإيمان الذي في قلبه" ولهذا يحتاج المؤمن أنْ يحاسب نفسَه في كلِّ وقت وحين، ويجاهدها في ذلك، ويجتهد في إزالة كلِّ وارد سيء على القلب، ويُبعد عن نفسه كلَّ أمر يؤثّر على الإيمان، كوساوس الشيطان، أو النفس الأمّارة بالسوء، أو الدنيا بفتنها ومغرياتها، أو غير ذلك. والله يقول: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[٩٦].

إنَّ النخلة لا تنبت في كلِّ أرض، بل لا تنبت إلاّ في أراضٍ معيّنةٍ طيّبة التربة، فهي في بعض الأماكن لا تنبت مطلقاً، وفي بعضها تنبت ولكن لا تثمر، وفي بعضها تُثمر ولكن يكون الثمر ضعيفاً، فليس كلُّ أرض تناسب النخلة.

ثم إنَّ هذه الشجرة متفاوتة في قلوب المؤمنين تفاوتاً عظيماً، بحسب تفاوت هذه الأوصاف التي وصفها الله بها، فعلى العبد الموفّق أن يسعى لمعرفتها ومعرفة أوصافها وأسبابها وأصولها وفروعها، ويجتهد في التحقق بها علماً وعملاً، فإنَّ نصيبه من الخير والفلاح والسعادة، العاجلة والآجلة، بحسب نصيبه من هذه الشجرة.

يقول ابن القيم: "النخلة كلها منفعة، لا يسقط منها شيء بغير منفعة، فثمرها منفعة، وجذعها فيه من المنافع ما لا يُجهل للأبنية والسقوف وغير ذلك، وسعفُها تُسقف به البيوت مكان القصب، ويُستر به الفُرَج والخَلَلُ، وخوصُها يُتخذ منه المكاتل والزنابيلُ وأنواعُ الآنية، والحُصُر وغيرها، وليفُها وكربها فيه من المنافع ما هو معلوم عند الناس"[٩٧].

وهكذا الشأن بالنسبة للمؤمن مع إخوانه وجلسائِه ورفقائه، لا يُرى فيه إلاّ الأخلاق الكريمة، والآداب الرفيعة، والمعاملة الحسنة، والنصح لجلسائه، وبذل الخير لهم، ولا يصل إليهم منه ما يضر، بل لا يصل إليهم منه إلاّ ما ينفع، كالكلمة الطيّبة، والموعظة الحسنة، والخلق الجميل، والعون والمساعدة، ونحو ذلك، فهو كالنخلة ما أخذتَ منه من شيء نفعك.

مثل الكلمة الخبيثة:

ولما كانت الأشياء تتميَّز بأضدادها ذكر الله لنا الكلمة الخبيثة بمقابل الكلمة الطيِّبة، فلولا الظُلْمة لما عُرف فضل النور، ولولا القُبح لما ظهرت روعة الجمال، لأنَّ تعوُّد الإنسان على رؤية الجمال وحده، يجعله باهتاً في نظره، ويفقده قيمته، مهما كان جليلاً، فإذا ما صدمت عيني الإنسان دمامةُ القُبح، أدرك روعة الجمال، وإذا ما أَدْمَتْهُ يد الشرِّ، أحسَّ بحنوِّ اليد الرحيمة، حين تمتدُّ إليه لتمسح جراحه. وإذا كانت الكلمة الطيِّبة كشجرة طيِّبة، فإن الكلمة الخبيثة كشجرة مرٌّ ثمرها، خبيث ريحها، طلعها كأنه رؤوس الشياطين، جذورها متآكلة نَخِرَة، لفظتها الأرض وطرحتها، فإذا بها تهوي جثَّة هامدة، وحطباً يابساً يُحرق أو ينبذ بعيداً. والكلمة الخبيثة ألغام متفجِّرة في طريق المجتمع المتكاتف، تُفتِّت وحدته، وتقتلع جذور الأخوَّة الّتي تثبِّت المحبَّة بين أبنائه، وتنشر مكانها بذور البغضاء والأحقاد، فيعمُّ فيه الفساد، وتنهار أواصره، وتتداعى مقوِّماته، ليصبح هباء منثوراً تذروه الرياح.

والكلمة الخبيثة، وهي كلمة الشرك – وما يتبعها من كلام خبيث – فهي على النقيض من ذلك:

- كلمة ضارة غير نافعة، فهي تضرّ صاحبها، وتضرّ ناقلها، وتضرّ متلقيها، وتضرّ كلّ من نطق بها.
- وتسيء لكل سامع لها، إنها كلمة سوء لا خير فيها.
- وكلمة خُبْثٍ لا طيب فيها، وكلمة مسمومة لا نفع فيها.
- فهي كالشجرة الخبيثة، أصلها غير ثابت، ومذاقها مرّ، وشكلها لا يسر الناظرين.
- تتشابك فروعها وأغصانها، حتى ليُخيَّل للناظر إليها أنها تطغى على ما حولها من الشجر والنبات.
- إلا أنها في حقيقة أمرها هزيلة، لا قدرة لها على الوقوف في وجه العواصف والأعاصير.
- بل تنهار لأدنى ريح، وتتهاوى لأقل خطر يهددها.
- إذ ليس من طبعها الصمود والمقاومة، وليس من صفاتها الثبات

والاستقرار.

- إنها شجرة لا خير يرتجى منها، فطعمها مر، وريحها غير زاكية.
- فهي شر كلها، وخبث كلها، وسوء كلها.

وهكذا الكافر، لا ثبات له في هذه الحياة ولا قرار، فهو متقلب بين مبدأ وآخر، وسائر خلف كل ناعق، لا يهتدي إلى الحق سبيلاً، ولا يعرف إلى الخير طريقاً، فهو شر كله، اعتقاداً وفكراً، وسلوكاً وأخلاقاً، وتطلعاً وهمة.

أمَّا الكلمة الخبيثة فهي معول للهدم والتمزيق والتفريق، تعمل تخريباً في أوصال المجتمع، فتهدُّ كيانه.

والكلمة الخبيثة نتنة الرائحة، تصدر عن بؤر نفسية عفنة.

وإن الكلمة الخبيثة – كلمة الباطل – كالشجرة الخبيثة" قد تهيج وتتعالى وتتشابك" ويخيّل إلى بعض الناس أنها أضخم من الشجرة الطيبة، وأقوى، ولكنها تظلّ نافشة هشة، وتظلّ جذورها في التربة قريبة، حتى لكأنها على وجه الأرض.. وما هي إلا فترة ثم تجتث من فوق الأرض، فلا قرار لها ولا بقاء.

ونلحظ هنا في وَصْف الكلمة الخبيثة بأنها كالشجرة الخبيثة" أن الحق تعالى لم يَقُلْ إن تلك الشجرة الخبيثة لها فَرْع في السماء" ذلك أنها مُجْتثة من الأرض، مُخْلخلة الجذور، فلا سَند لها من الأرض، ولا مددَ لها من السماء. ولذلك يَصِفها الحق تعالى: ﴿**مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ**﴾، أيْ: ما لها من ثبات أو قيام، وكذلك الكُفْر بالله.

ليس هذا، وذلك، مجرد مثل يضرب، ولا مجرد عزاء للطيبين، وتشجيع. إنما هو الواقع في الحياة، ولو أبطأ تحقّقه في بعض الأحيان.

والخير الأصيل لا يموت، ولا يذوي، مهما زحمه الشر، وأخذ عليه الطريق.. والشر كذلك لا يعيش إلا ريثما يستهلك بعض الخير المتلبس به – فقلّما يوجد الشر الخالص – وعندما يستهلك ما يلابسه من الخير، فلا تبقى فيه منه بقية، فإنه يتهالك ويتهشم مهما تضخم واستطال، إن الخير بخير! وإن الشرّ بشرّ!

روي عن قتادة في هذه الآية: (أن رجلاً لقي رجلاً من أهل العلم فقال له: ما تقول في الكلمة الخبيثة؟ قال: لا أعلم لها في الأرض مستقراً، ولا في السماء مصعداً، إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافي بها يوم القيامة)[٩٨].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿**وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ**﴾[٩٩]، قال: ضرب الله مثل الشجرة الخبيثة كمثل الكافر. يقول: إن الشجرة الخبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من

قرار، يقول: الكافر لا يقبل عمله، ولا يصعد إلى الله، فليس له أصل ثابت في الأرض، ولا فرع في السماء[١٠٠].

ورد في بعض الروايات أن الشجرة الخبيثة المذكورة في المثال هي شجرة الحنظل: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾.

وروى الطبري عن أنس (رضي الله عنه) في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾. قال: تلكم الحنظل، ألم تروا إلى الرياح كيف تصفقها يميناً وشمالاً؟[١٠١].

وختم الله تعالى بيان هذا المثل بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، فهذا تصريح بحكمة ضرب الله الأمثال، أيْ بيان الصفات العجيبة وغاياتها للناس، الذين أعطوا التفكير والعقل، يرشدهم إلى النافع فيأخذون به، والضار فيجتنبونه[١٠٢].

وفي ضرب مثل هذه الأمثال زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني، فهي أمثال مصداقها واقع في الأرض، ولكن الناس كثيراً ما ينسونه في زحمة الحياة.

الهوامش:

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٤-٢٥.

(٢) شرح ابن عقيل: ١/١٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، للحافظ إسماعيل بن كثير القرشي (ت: ٧٧٤هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م: ٢/٥٣٠.

(٤) جامع البيان في تأويل آي القرآن، الإمام ابن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م: ١٣/٣٠٢

(٥) تفسير البغوي (معالم التنزيل)، للإمام الحافظ أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي ت٥١٦ هـ، تحقيق خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار، الطبعة الأولى،١٤٠٦ هـ، دار المعرفة، بيروت، لبنان: ٤/ ٢٠٣

(٦) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن.

(٧) تفسير القرآن العظيم، للحافظ إسماعيل بن كثير القرشي (ت: ٧٧٤هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م: ٤/٦١٦.

(٨) تفسير الشعراوي: ١/١١٧٩.

(٩) رواه البخاري (٦٠٢٣).

(١٠) شرح صحيح البخاري لابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي (ت: ٤٤٩هـ)، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، ط٢، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم: ٩/٢٢٥.

(١١) فتح الباري شرح صحيح البخاري للإمام ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م: ١٠/٥٥٠.

(١٢) الإيجابية في حياة الداعية، د. عبد الله يوسف الحسن، دار المنطلق، دبي، الطبعة الأولى – ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م: ٣٠-٣١.

(١٣) تفسير التحرير والتنوير، للشيخ محمد بن الطاهر عاشور، الدار التونسية ١٩٨٤م: ٢٥٠/١٢.

(١٤) سورة هود، الآية: ٣٢.

(١٥) سورة الأنعام، الآية: ٨٣.

(١٦) سورة طه، الآيتان: ٢٧-٢٨.

(١٧) سورة القصص، الآية: ٣٤.

(١٨) سورة النساء، الآية: ١٤٩.

(١٩) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.

(٢٠) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.

(٢١) مفتاح دار السعادة لابن القيم، تحقيق: علي بن حسن بن عبد الحميد، دار ابن عفان، نجد، الأولى (١٤١٦هـ): ٥١.

(٢٢) رواه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور للسيوطي: ٢٦/٥.

(٢٣) تفسير فتح القدير للإمام الشوكاني، مطبعة الحلبي، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٤٩هـ - ١٩٢٩م: ١٠٦/٣.

(٢٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

(٢٥) سورة إبراهيم، الآية: ١٨.

(٢٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، تحقيق: محمود بن شعبان بن عبد المقصود، مكتب تحقيق دار الحرمين، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م: ٢٥/١.

(٢٧) تفسير النسفي للإمام عبد الله بن احمد النسفي، دار الكتاب العربي، بيروت: ٢٦١/٢.

(٢٨) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي، دائرة المعارف، الهند، الطبعة الأولى، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م: ٤١٣/٣.

(٢٩) تفسير روح المعاني للعلامة الآلوسي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م: ٢٣٢/١٣.

(٣٠) سورة فاطر، الآية: ١٠.

(٣١) أمثال القرآن للإمام ابن قيم الجوزية، مطبعة الجاحظ، بغداد – الطبعة الأولى ١٩٩١م: ٨٣.

(٣٢) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب، دار الشروق، بيروت، الطبعة الشرعية التاسعة، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م: ١٣٨/٦.

(٣٣) أعلام الموقعين عن رب العالمين، الإمام ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م: ١٧٤/١.

(٣٤) رواه البخاري (٦١) في: كتاب العلم: باب قول المحدث: حدثنا أو أخبرنا وأنبأنا، ومسلم "٢٨١١" "٦٣" في صفات المنافقين.

(٣٥) الجامع لأحكام القرآن، الإمام أبو عبد الله القرطبي الأنصاري (ت: ٦٧١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م: ٢٣٦/٩.

(٣٦) رواه البخاري (رقم الحديث: ٥٧٠٥). صحيح مسلم: ٢١٦٤/٤ باب مثل المؤمن مثل النخلة.

(٣٧) فتح الباري شرح صحيح البخاري للإمام ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م: ١٩٣/١.

(٣٨) تفسير التحرير والتنوير، للشيخ محمد بن الطاهر عاشور، الدار التونسية ١٩٨٤م: ٢٢٤/١٣.

(٣٩) مصنف عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت: ٢١١هـ)، المكتب الإسلامي – بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي: ١٦١/١١.

(٤٠) تفسير البغوي (معالم التنزيل)، للإمام الحافظ أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي ت٥١٦ هـ، تحقيق خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ، دار المعرفة، بيروت، لبنان: ٣٣/٣.

(٤١) الفوائد لابن القيم، تحقيق: بشر محمد عيون، نشر دار البيان، الأولى (١٤٠٧هـ): ٢١٤-٢١٥.

(٤٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري للإمام ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م: ١٤٥/١.

(٤٣) الجامع لأحكام القرآن، الإمام أبو عبد الله القرطبي الأنصاري (ت: ٦٧١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م: ٢٣٦/٩.

(٤٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين: للشيخ محمد بن علان الصديقي الشافعي (ت١٠٥٧)، دار الريان للتراث، القاهرة، مصر، ط١/ ١٤٠٧هـ١٩٨٧م: ٧٤/٤.

(٤٥) سورة غافر، الآية:٦٠.

(٤٦) جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي (ت: ٧٩٥هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤١٢هـ ـ١٩٩١م: ٣٦٨.

(٤٧) مفتاح دار السعادة لابن القيم، تحقيق: علي بن حسن بن عبد الحميد، دار ابن عفان، نجد، الأولى (١٤١٦هـ): ١١٦/١.

(٤٨) مصنف عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت: ٢١١هـ)، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي: ٢٣٣/٢ حديث رقم ٣١٨٨.

(٤٩) فتح الباري شرح صحيح البخاري للإمام ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م: ١٤٦/١.

(٥٠) مسافر في قطار الدعوة، د. عادل عبد الله الشويخ، تقديم: محمد أحمد الراشد، دبي، دار المنطلق: ٣٩.

(٥١) فتح الباري شرح صحيح البخاري للإمام ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م: ١٧٥/١-١٧٦.

(٥٢) شرح السنة: ٣٠٨/١.

(٥٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري للإمام ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م: ١٧٦/١.

(٥٤) وقفات من آفات القراء، أحمد بن عبد الرحمن الصويان، مجلة البيان: ٩٢، العدد (١٤٩).

(٥٥) طبقات الحنابلة، أبو الحسين ابن أبي يعلى، محمد بن محمد (المتوفى: ٥٢٦هـ)، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة – بيروت: ٣٢٩/١.

(٥٦) تاريخ بغداد المسمى (دار السلام)، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت: ٤٦٣هـ)، بتصحيح السيد محمد سيد العرفي، دار الكتاب العربي، بيروت: ٤١٩/٤.

(٥٧) مفتاح دار السعادة، الإمام ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، تحقيق: علي بن حسن بن عبد الحميد، دار ابن عفان، نجد، الأولى (١٤١٦هـ): ١٨١/١.

(٥٨) المصدر نفسه: ٦٠/١.

(٥٩) مدارج السالكين، الإمام ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٣ – ٢٠٠٣: ٤٣١/٢.

(٦٠) سورة فاطر، الآية: ١٠.

(٦١)أعلام الموقعين عن رب العالمين، الإمام ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م: ٧٢/١.

(٦٢) القرآن منهاج حياة، غازي صبحي، مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، دمشق، ط ١٩٩٦،١م: ٢٥٢/٢.

(٦٣) سورة النساء، الآية: ١١٤.

(٦٤) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧٠ـ٧١.

(٦٥) رواه البخاري (٧٩) ومسلم (٢٢٨٢).

(٦٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر: ٢٣٤/١، وشرح صحيح مسلم للامام النووي، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م: ٥٢/١٥–٥٣.

(٦٧) رواه البخاري في كتاب الرقاق (٦٤٧٨).

(٦٨) فتح الباري شرح صحيح البخاري للإمام ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م: ٣٧٦/١١.

(٦٩) الايجابية في حياة الداعية، د. عبد الله يوسف الحسن، دار المنطلق، دبي، الطبعة الأولى – ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م: ٣٣ – ٣٦ بتصرف.

(٧٠) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي، دار الكتب العلمية، طهران، الطبعة الثانية: ١١٦/١٩.

(٧١) سورة الزمر، الآية: ٧٣.

(٧٢) سورة النحل، الآية: ٣٢.

(٧٣) سورة الحج، الآية: ٢٣.

(٧٤) الأمثال في القرآن الكريم، د. الشريف العبدلي، عالم المعرفة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م: ١٤٧.

(٧٥) رواه اللالكائي في شرح الاعتقاد: ٩٥٩/٥.

(٧٦) رواه ابن أبي يعلى في الطبقات: ٢٥٩/١.

(٧٧) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي، دار الكتب العلمية، طهران، الطبعة الثانية: ١١٧/١٩.

(٧٨) فتح الباري شرح صحيح البخاري للإمام ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م: ٤٨٩/٦.

(٧٩) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥ـ١٥٧.

(٨٠) سورة الزمر، الآية: (١٠).

(٨١) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب، دار الشروق، بيروت، الطبعة الشرعية التاسعة، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م: ٢٠٩٨/٤.

(٨٢) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي، دار الكتب العلمية، طهران، الطبعة الثانية: ١١٧/١٩.

(٨٣) المصدر نفسه: ١١٧/١٩.

(٨٤) رواه أحمد (٤٠/٥، رقم ٢٠٤٣١)، والترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في طول العمر للمؤمن، ٥٦٥/٤ – ٥٦٦، برقم ٢٣٣٠، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والحاكم (٤٨٩/١، رقم ١٢٥٦) وقال: صحيح على شرط مسلم. والبيهقي (٣٧١/٣، رقم ٦٣١٧) الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في طول العمر للمؤمن، ٥٦٥/٤ – ٥٦٦، برقم ٢٣٣٠، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٨٥) تفسير البغوي (معالم التنزيل)، للإمام الحافظ أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي ت٥١٦ هـ،

تحقيق: خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ، دار المعرفة، بيروت، لبنان: ٣٣/٣.

(٨٦) رواه ابن جرير في تفسيره: جامع البيان في تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م: ٢٠٨/٨.

(٨٧) جامع البيان في تأويل آي القرآن، الإمام ابن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م: ٢١٠/٨.

(٨٨) المصدر نفسه: ٢١١/٨.

(٨٩) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

(٩٠) سورة النحل، الآية: ٢.

(٩١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

(٩٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

(٩٣) سورة الحديد، الآية: ١٧.

(٩٤) رواه الحاكم (٤/١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وقال: "رواته ثقات"، ووافقه الذهبي. ورواه الطبراني في الكبير، كما في مجمع الزوائد (٥٢/١)، وقال الهيثمي: "إسناده حسن".

(٩٥) أعلام الموقعين عن رب العالمين، الإمام ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م: (١٧٤/١).

(٩٦) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

(٩٧) مفتاح دار السعادة، الإمام ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، تحقيق: علي بن حسن بن عبد الحميد، دار ابن عفان، نجد، الأولى (١٤١٦هـ): ١٢٠/١.

(٩٨) الدر المنثور في التفسير المأثور، الإمام جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ ـ١٩٨٨م: ٥٠/٦.

(٩٩) سورة إبراهيم، الآية: ٢٦.

(١٠٠) فتح الباري شرح صحيح البخاري للإمام ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م: ٣٧٧/٨.

(١٠١) رواه الترمذي "٣١١٩" في التفسير: باب ومن سورة إبراهيم عليه السلام، وصححه الحاكم في المستدرك: ٣٥٢/٢، ووافقه الذهبي.

(١٠٢) الأمثال في القرآن الكريم، د. الشريف العبدلي، عالم المعرفة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م: ١٤٨.

حق الأمة في مراقبة الحاكم ومحاسبته، وعزله

(٢-٣)

سالم الحاج

✍ إنّ الحق في مراقبة الحاكم، ومحاسبته، وعزله، هو أحد الحقوق الثابتة للأمة الإسلامية. وقد عرف ذلك بموجب الكتاب، والسنة، والإجماع، ودلّت عليه سيرة الخلفاء الراشدين، وأقوال العلماء المعتمدين. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ مصطلح (الرقابة) – بهذا المعنى – لم يستعمل في الفقه الإسلامي، والنظم السياسية الإسلامية، وإنما استعملت مصطلحات أخرى مقابلة، مثل: (الاحتساب)، أو (الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر)، و(النصح)[1]. ونعرض فيما يلي الأدلة التي يمكن اعتمادها في التعريف بهذا الحق:

أولاً: الأدلة من القرآن الكريم:

أ- هناك آيات عديدة، في القرآن الكريم، يفهم منها وجوب هذا الحق، وأهمية ممارسته، ومن ذلك قوله تعالى:﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾(آل عمران/١٤)، وقوله تعالى:﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ﴾(التوبة/٧١)، وقوله:﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(آل عمران/١١٠)، وقوله تعالى:﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾(الحج:٤١)، وغيرها. "فهذه الآيات الكريمة تدل دلالة واضحة على وجوب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتي تتضمن رقابة الأمة على أعمال رئيس الدولة"[٢]. ومن المعلوم أن هذا الواجب قد جاء عاماً يشمل كل معروف، وكل منكر، ويدخل فيه الجميع: حكاماً ومحكومين، فليس من موجب لإخراج الحكام من ذلك الأمر. قال الإمام النووي: "قال العلماء: لا يختصّ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، بأصحاب الولايات، بل ذلك جائز لآحاد المسلمين. قال إمام الحرمين: والدليل عليه إجماع المسلمين، فإن غير الولاة في الصدر الأول، والعصر الذي يليه، كانوا يأمرون الولاة بالمعروف، وينهونهم عن المنكر، مع تقرير المسلمين إياهم"[٣]. وهذا يبيّن أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، "حق مشترك بين الأمة، والسلطة، بل هو فرض عليهما جميعاً"[٤]. يؤكد الإمام الغزالي هذا المعنى، إذ يرى أن القيام بهذا الواجب فرض على كل مسلم قادر عليه، وهو لا يحتاج إلى إذن السلطة: "فإن الآيات والأخبار التي أوردناها، تدلّ على أنّ كلّ من رأى منكراً، فسكت عليه، عصى، إذ يجبُ نهيه، أينما رآه، وكيفما رآه، على العموم. فالتخصيص بشرط التفويض من الحاكم، تحكّم لا أصل له"[٥].

فهذه الآيات الكريمة، وغيرها، تثبت فرضية هذا الأصل، الذي قال عنه الإمام (الغزالي):إنه "القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين"[٦]. وهذا يعني أن مراقبة الأمة، بأفرادها وجماعاتها، هو ليس حقاً فحسب، بل هو من الواجبات المفروضة على الأمة الإسلامية[٧].

ب/ قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ولا تَعَاوَنُوا عَلَى الْأِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾(المائدة/٢). وهذه الآية الكريمة أصل مهم في حث المسلمين على الاشتراك في (الشأن العام)، والالتقاء والتعاون مع الآخرين في سبيل ذلك. ولا شك أن التعاون

على البر والتقوى – بهذا الإطلاق – يشمل كل مجالات البر والتقوى، وهو ما يقودنا إلى الميدان السياسي مرة أخرى، بالضرورة، إذ يجب إقرار الحاكم ومعاونته في كل خير، ونهيه وردعه عن إتيان الظلم والمنكرات.

ج–قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ(٧٨) كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾(المائدة ٧٨–٧٩). وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنْ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾(الأعراف/١٦٥). ففي الآية الأولى، علّل الله سبحانه استحقاق بني إسرائيل للعنة، بتركهم النهي عن المنكر. وفي الآية الثانية، رتّب النجاة على القيام بدفع المنكر، وعدم السكوت على الظلم[٨].

ويستفاد من الآيتين الكريمتين خطورة السكوت عن المنكر، سواء كانت منكرات السلطة، أم منكرات العامة، وضرورة التصدي لها، ومقاومة الانحراف. وهو ما يؤيد ضرورة مراقبة السلطة، ومحاسبتها على أخطائها، أولاً بأول.

ثانياً: الأدلة من السنة النبوية:

حفلت السنة النبوية بالكثير جداً من الآثار، التي تفيد بوجوب مراقبة الأمة لحكامها، وضرورة محاسبتهم على أخطائهم، وخطورة التهاون في هذا الشأن، خوفاً من تعرّض الأمة كلها لسخط الله وعذابه.. ومن ذلك:

أ– ثمة أحاديث كثيرة تؤكد على مبدأ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، الذي جاء في القرآن الكريم. ومنها: قوله(ﷺ): {لتأمرّن بالمعروف، ولتنهوّن عن المنكر، أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم}[٩]. وقوله(ﷺ): {من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فان لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان}[١٠]، وأحاديث أخرى كثيرة.

ب– وثمة أحاديث أخرى توجب النصيحة على المسلم، تجاه الجميع، حكاماً ومحكومين. ومن ذلك قوله(ﷺ): {الدين النصيحة، قلنا، لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم}[١١].

ج– وأحاديث أخرى حثّت على الوقوف في وجه السلطان الظالم، ولو كلّف ذلك النفس والمال. قال(ﷺ): {أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر}[١٢]، {سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله}[١٣]، {كلا، والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على

يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتقصرنه على الحق قصراً}[١٤].

وهذه الأحاديث يفهم منها أن مراقبة الحكّام، ومحاسبتهم، هو من حقوق الأمة، بل من واجباتها، التي لا يجوز التهاون فيها، وإلا كان التعرض للعذاب في الدنيا، قبل الآخرة.. ولعل في حديث (السفينة) المعروف[١٥]، ما يؤكد هذه المعاني، ويبيّن أن القيام بهذا الواجب هو الطريق إلى نجاة الجميع، وإلا فإن في التقاعس عنه، وإهماله، خطراً قد يؤدي بسفينة المجتمع إلى الدمار والخراب[١٦].

ثالثاً: الإجماع:

أجمع فقهاء المسلمين على أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، واجب على الأمة[١٧]، ولم يشذ عن ذلك إلا الأصمّ، من المعتزلة، الذي أوقفه على وجود الإمام العادل، فإن وجد، وإلا فهو غير واجب. وكذلك الشيعة الإمامية، الذين ربطوا هذا الحق بوجود الأئمة المعصومين[١٨].

قال الإمام (النووي): "تطابق على وجوب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة"[١٩]. وإذا كان إجماع الأمة على وجوب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، قائماً، فهو يعني إجماعهم على مشروعية (الرقابة) على الحكّام، ومشروعية محاسبتهم، لأن أعمالهم مشمولة بمبدأ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. وقد كان هذا الأمر واضحاً، شديد الوضوح، في سيرة الخلفاء الراشدين، فـ"سلطة الأمة في مراقبة الحكام، وتقويمهم، ليست محل جدل، فالنصوص التي جاءت بها قاطعة في دلالتها، وصراحتها، وخلفاء الرسول(ﷺ)كانوا أول من عمل بها، وطبقها"[٢٠]. "وكان الخلفاء الراشدون يعتبرون ذلك حقاً للأمة مصوناً، وعليهم حفظه لهم"[٢١]. وخطبة الخليفة الأول للمسلمين "تعتبرُ سابقةً دستورية مهمة في تقرير حق الأمة في مراقبة الحاكم، ومحاسبته، وتقويمه، إن أخطأ، ورفض طاعته في معصية الله ورسوله"[٢٢]. وهو ما أكّده وسار عليه الخليفة الثاني للمسلمين (عمر بن الخطاب)، الذي أرسى مبدأ: (إذا رأيتم فيّ اعوجاجاً فقوموني)[٢٣]، ورفعَ شعار: (لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها)[٢٤].وهو ما سار عليه أيضاً الراشدان من بعده: عثمان وعلي(رضي الله عنهما). وقد ضعفت تلك الروح –بشكل عام– بعد عهد الخلفاء الراشدين، إذ لم تجد تشجيعاً من الخلفاء، بل على العكس واجه بعضهم كلَّ كلمة، أو نقد، بالعنف والقسوة، "حتى أخمدوا في الناس روح الاهتمام بمسائل السياسة، بعد أن كان هذا، من قبل، جزءاً من الدين"[٢٥]. ولكن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ظلّ باقياً يقوم بدوره في

حياة المسلمين، وقد وجد تعبيره في (ديوان الحسبة)، وفي ممارسات علماء وجمهور المسلمين، في كل مراحل التاريخ الإسلامي. قال الإمام (الباقلاني)، بعد أن ذكر واجبات الإمام: "فهذا الذي يليه ويقام لأجله، فإن غلط في شيء منه، أو عدل به عن موضعه، كانت الأمة من ورائه لتقويمه، والأخذ له بواجبه"[٢٦].

*** أساس حق الأمة في المراقبة**

إذا ثبتت مشروعية ووجوب الرقابة على الحكام، من خلال آيات الكتاب الكريم، وأحاديث الرسول(ﷺ)، وإجماع الأمة بعد ذلك، فإن البحث في أساس حق الأمة في المراقبة على الحكام، يعتمد على جملة أمور، هي:

أولاً: إذا كان الحكام هم وكلاء عن الأمة، في تولي مناصبهم، وفي أداء واجباتهم –كما مرّ معنا خلال البحث– فإن ما يترتب على ذلك، أن الوكيل يجب أن لا يخرج عن حدود وكالته، وأنّ لموكله أن يراقبه في تنفيذ واجباته، ويحاسبه على تقصيره فيها. فالأمة هي صاحبة السلطة في الأصل، ومن الواجب عليها – وليس ذلك حقاً لها فحسب – أن تراقب وكلاءها، وتحاسبهم، إذا قصروا، أو أساءوا "[٢٧].

ثانياً: إن الأمة هي المخاطبة أصلاً بتنفيذ أحكام الشريعة، وهي القوامة على هذا التنفيذ،"فخطاب التكليف القرآني موجه، في جملته، إلى الجماعة أو الأمة الإسلامية، لا إلى فرد معين من أفرادها"[٢٨]. وقد وكلت الأمة (الحاكم أو الخليفة) للقيام بهذه الواجبات، وتنفيذ هذه الأحكام، لأن الأمة لا يمكن أن تباشر، جميعها، هذه الواجبات. كما أن هذه الإنابةَ لا تعفي الأمة من مسؤوليتها، وذلك "يوجب مراقبتها للقائمين عليها، وتوجيههم، ومحاسبتهم، لتخرج بذلك من عهدة هذه المسؤولية"[٢٩]. فإذا ثبت تقصير الحاكم في هذا التنفيذ، فإن من حق الأمة، التي نصبته لتنفيذ ذلك، أن تحاسبه، بل ولها أن تعزله[٣٠].

ثالثاً: لقد أوجب الله سبحانه للأمة (حق التشاور)، واعتبره من بين الصفات الأساسية، التي يتميز بها كيان المسلمين – كما مرّ معنا في البحث –. و(حق الشورى) هذا، الذي يتضمن بذل الرأي، والنصح، لأئمة المسلمين وعامتهم، هو أحد الأسس الركينة التي يقوم عليها، ويستند إليها، مفهوم (حق المراقبة) من الأمة لحكامها[٣١]. "ولو لم يكن حق الرقابة على تصرفات الإمام، ومساءلته، لما كان هناك وجه للشورى، التي التزم بها الإسلام في نظام الحكم، واعتبرها أساساً وأصلاً فيه"[٣٢] .

رابعاً: إن (عقد البيعة) بين الأمة والحاكم، والذي تقوم على أساسه شرعية الحكم، إنما يقوم على التزام متبادل من الطرفين: التزام

من الحاكم بالعمل بشرع الله، وإقامة الحق والعدل، يقابله التزام من الأمة بالنصرة والطاعة في المعروف.. وهذا الالتزام المتقابل هو الذي يعطي الأمة الحق في (مراقبة الحكام)، لأن الأمة لا ينتهي عملها بانتخاب الحاكم، بل لا بد لها من مراقبته، ومحاسبته، إنْ أخلّ بواجباته والتزاماته تجاهها[٣٣].

خامساً: إن (الأمة)، وبموجب الأمر الإلهي: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾(آل عمران/١٠٤)، وبموجب الولاية، التي رتّبها للمؤمنين – على أساس الإيمان– تجاه بعضهم البعض، وما يترتب على ذلك من واجبات: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾(التوبة/٧١)، مسؤولة عن أمر الحاكم بالمعروف، ونهيه عن المنكر. وقد تقدّم – فيما مضى – الحديث عن أن هذا الواجب يشمل الحكام، كما يشمل سائر المسلمين[٣٤]. وعلى هذا، فإن (الأمة) لها الحق في مراقبة (الحكام)، ومحاسبتهم، والضرب على أيديهم، لأن ذلك من مقتضيات الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر[٣٥].

سادساً: إن (الحاكم)، في النظام السياسي الإسلامي، هو فرد كبقية الأفراد، "لا يكسبه الحكم فضل مزيّة على غيره، فكما يحاسب غيره، ويسأل، يحاسب هو، ويسأل. فنصوص الشريعة لا تفرق بين الرؤساء والمرؤوسين، في خضوعهم للحساب والعقاب"[٣٦]. فالحاكم في النظام الإسلامي ليس معصوماً، بل إن (الأمة) هي المعصومة، بدليل حديث الرسول (ﷺ): {إن أمتي لا تجتمع على ضلالة}[٣٧]. وهذا التكييف القانوني – الشرعي لمركز (الحاكم)، وتقرير مسؤوليته المدنية والجزائية، أسوة ببقية المسلمين، هو أحد الأسس المهمة كذلك، التي يقوم عليها (حق الأمة في مراقبة الحاكم، ومحاسبته)، لأنه ليس مصوناً عن الخطأ والنقد[٣٨].

*** كيفية ممارسة الأمة للرقابة**

أولاً: عن طريق الإنابة:

تبين لنا، مما سبق، أن حق الرقابة هو أحد الحقوق الشرعية الثابتة للأمة، بموجب الكتاب، والسنة، وإجماع المسلمين. وهو حق ثابت للأمة بمجموعها، يرقى إلى مستوى الوجوب والإلزام، بحيث تأثم الأمة، بمجموعها، إن قصّرت في أدائه، أو أهملته[٣٩]. ولكن، هل يجوز للأمة أن تعهد بالقيام بهذا الواجب، وممارسة هذا الحق، إلى فئة خاصة، أو إلى هيئة منتخبة، تتولى هي مراقبة الحاكم، ومحاسبته، وعزله، إنْ اقتضى الأمر؟! هذا ما يؤكد على ضرورته، وأهميته، بعض الباحثين المعاصرين[٤٠]، وذلك من

منطلق أن الأمة – بمجموعها – يتعذر عليها القيام بهذه الواجبات، فلابد إذن من الإنابة فيها. والإنابة أمرٌ قد مضت به الشريعة، وأجمع على شرعيتها المسلمون[٤١]. ثم إن الإنابة في القيام بواجب مراقبة الحاكم، ومحاسبته، هو شأن "ينسجم مع الرأي القائل: إن واجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، هو فرض كفاية، لا فرض عين، وأنه إذا قام به أمة، سقط الحرج عن الآخرين"[٤٢].

ولا شك أن انتخاب هيئة للرقابة، هو أمر يُعين على، ويسهّل، عملية رقابة الأمة لحكامها، كما أنه سيضع القواعد، والأسس القانونية، لعملية المحاسبة، والنصح، التي تقوم بها الأمة، وذلك عن طريق الدستور والقوانين المنظمة لعمل المجلس.. ومن هنا، فإن الالتجاء إلى وسيلة الرقابة المنظمة، عن طريق هيئة منتخبة، تنوب عن الأمة، هي خطوة، فضلاً عن كونها منّظمة، وبذلك نتفادى الارتجال، والعفوية، والفوضى، في عملية المراقبة، والمحاسبة، فإنها – من جهة أخرى – تكتسب قوتها، وشرعيتها، من حيث كونها جهة منتخبة شرعياً، من قبل الأمة، كما أنها جهة تملك حق استعمال (السلطة)، وهو الأمر الذي يكفله لها الدستور، والقوانين التي تنظم عمل المجلس[٤٣].

ثانياً: المراقبة الفردية:

اتضح لنا فيما سبق، أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، هو واجبٌ فرضٌ على كل مسلم، فرضاً على الكفاية. قالﷺ: {من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان}[٤٤]. وهذا الحديث أصل من أصول الإسلام في مسألة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهو "يدلّ على أن كل إنسان محاسب ببذل وسعه، ومحاسب على قدر طاقته في تغيير المنكر وإزالته، وليس بعد الإنكار بالقلب درجة، فلا يعفى من الإنكار بالقلب"[٤٥]. فكل مسلم بالغ عاقل يجب عليه القيام بهذا الواجب، بحسب علمه واستطاعته، فإن لم يستطع أن ينكر بيده، فعليه الإنكار بلسانه، فإن لم يستطع ذلك، فإن الإنكار بالقلب يبقى واجباً ملازماً لكل مسلم، لا يسقط عنه بحال من الأحوال، لأن الإنكار بالقلب مقدور عليه من قبل كل إنسان! وقد ورد عن السلف الصالح تشبيه الذي لا ينكر المنكر حتى بقلبه بـ (ميت الأحياء)[٤٦]، لأن الإنكار بالقلب هو (أضعف الإيمان)، كما ورد في الحديث الشريف. والإنكار بالقلب، وإن كان موقفاً سلبياً، لكنه يدخل في الإنكار، وهو وسيلة من وسائل التغيير، بحسب الحديث الشريف. "وهيهات أن يمتدّ عُمْر منكرٍ من المنكرات في

مجتمع ينطوي قلبه على إنكاره، وإنْ لم يتحرّك لسانه، أو تعمل يده، فإنّ امتداد الزمن كفيل بأن تتحرك الألسنة، وتعمل الأيدي"[٤٧].

وقد رسم الإسلام للإنسان منهجاً عاماً في (الإيجابية)، والتصدي للشأن العام، وتحمّل المسؤولية، كما في حديث {سيد الشهداء حمزة..}[٤٨]، وكما في قولهﷺ: {كلكم وكلكم مسؤول عن رعيته}[٤٩]. فكل فرد مسلم، هو على ثغرة من ثغور الإسلام، ومن واجب الجميع أن يتحمّل مسؤوليته، ويؤدي واجبه كاملاً. فكل مسلم – مهما كان موضعه في المجتمع، وعلى حسب علمه، وقدرته – هو مسؤول، وعليه أن يتحمل هذه المسؤولية، لأنه محاسب عليها يوم القيامة[٥٠].

يقول الإمام (الغزالي)، في الإنكار على الأمراء والسلاطين: "والجائز من جملة ذلك، مع السلاطين، الرتبتان الأوليان، وهما: التعريف والوعظ، وأما المنع بالقهر فليس ذلك لآحاد الرعية مع السلطان، فإن ذلك يحرّك الفتنة، ويهيج الشر، ويكون ما يتولد منه من المحذور أكثر"[٥١]. فهو يرى أن أفراد الرعية لهم الحق في الإنكار على السلاطين والأمراء، ولكنه يؤكد أن يكون ذلك في حدود التعريف والوعظ (الإنكار القولي)، ولا يتعداه إلى (الإنكار باليد)، لأن فيه تهييجاً للفتنة، ومحاذيره أشد من فوائده[٥٢]. وما يهمنا هنا هو إبراز دور (الرقابة الفردية)، ومشروعية ذلك، وقد قالﷺ: {سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب، ورجل قام إلى إمام جائر، فأمره، ونهاه، فقتله}[٥٣].

وفي الحديث إشادة بدور (الرقابة الفردية) وأهميتها، كما أن فيه بياناً لمشروعيتها.. وقد سبق قول الإمام النووي: "قال العلماء: ولا يختص الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، بأصحاب الولايات، بل ذلك جائز لآحاد المسلمين"[٥٤]. وقد أشار الإمام الغزالي في (الإحياء) إلى نكتة مهمة، فيما يتعلق بدور الأفراد في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، حين قال: "إعلم أن الزجر إنما يكون عن المستقبل، والعقوبة تكون على الماضي، والدفع على الحاضر الراهن، وليس إلى آحاد الرعية إلا الدفع، وهو إعدام المنكر، فما زاد على قدر الإعدام، فهو إما عقوبة على جريمة سابقة، أو زجر عن لاحق، وذلك إلى الولاة، لا إلى الرعية"[٥٥]. فهو يحدد عمل (الأفراد)، في هذا المجال، بالحال والآني والمشاهد من المنكرات، وليس لهم تنفيذ العقوبة على جريمة وقعت في الماضي، أو الزجر عما يتوقع أن يحصل في المستقبل، لأن ذلك يفتح الباب واسعاً للفوضى الاجتماعية، كما أن فيه افتئاتاً على حقوق (السلطة العامة)، التي يدخل ذلك ضمن اختصاصاتها. "ولا بديل من قصر دور الآحاد على إزالة المنكرات الحاضرة، وتفويض الأمر من قبل ذلك، ومن

بعده، إلى الدولة، إلا انفراط عقد السلطة، وضعف هيبة الدولة، وفتح الذريعة إلى عدوان بعض الفئات على بعض، بحجة العقوبة على منكرات سابقة، أو الزجر عن منكرات لاحقة، وفي ذلك من الفساد ما فيه"[٥٦]. وهذا الفهم ينسجم مع ظاهر ومفهوم الحديث النبوي الشريف: {من رأى منكم منكراً، فليغيره...}، فربط بين رؤية المنكر، وبين الإقدام على تغييره[٥٧].

ثالثا: المراقبة الشعبية (الجماعية):

إذا كان صحيحاً أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، واجب على كل فرد مسلم –كما مرّ معنا– فإن ذلك لا ينفي أن يتم أداء هذا الواجب بشكل جماعي، بل إن الآيات القرآنية لتؤكد أهمية العمل الجماعي في هذا الشأن، كما في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(آل عمران: ١٠٤)، أو قوله تعالى: ﴿الذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾(الحج: ٤١)، وقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾(التوبة/ ٧١). وكذلك، فإنّ الأحاديث النبوية الشريفة، في هذا المعنى، تؤكد جماعية هذا العمل. قالﷺ: {لتأمرّنّ بالمعروف، ولتنهونّ عن المنكر، أو ليسلطنّ الله عليكم شراركم، ثم يدعو خياركم، فلا يستجاب لهم}[٥٨]. وهذه الآيات والأحاديث تبيّن بوضوح أنّ القيام بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، هو فريضة جماعية، وليس شأناً فردياً – في الأصل –. ومن ثمّ فإننا نرى أن التوجيه القرآني يدعو المسلمين إلى تكوين وإيجاد (أمة)، أو جماعة خاصة متميزة من بينهم، تقوم بأداء هذا الواجب. وهذا هو ما رجّحه الإمام (محمد عبده)، وتلميذه (رشيد رضا)، في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾(آل عمران/ ١٠٤)[٥٩]. فذِكْرُ لفظ (الأمة) في الآية الكريمة فيه دلالة "على أنّ هناك أوامر وواجبات كبيرة عامة، لا يستطيع القيام بها واحد بمفرده، كما أن هناك منكرات كبيرة عامة لا يستطيع تغييرها الإنسان وحده، بل لا بدّ من فئة، أو تجمّع، من أهل العزم، يتعاونون من أجل تحقيق هذا المعروف، أو تغيير هذا المنكر"[٦٠].

إنّ الجماعية المطلوبة في شأن (رقابة الأمة على الحكام)، فضلاً عن استنادها إلى ما سبق ذكره من الأدلة الشرعية، لتتأكد وتتعزز من منطلق قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ

وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾(المائدة/٢)، وهو ما دأب المسلمون على القيام به، فرادى وجماعات، منذ عهود الإسلام الأولى. ففي (صلح الحديبية)، ومع أنّ قائد المسلمين، وإمامهم، هو الرسول الكريم ﷺ نفسه، فإن المسلمين عارضوا (الصلح) معارضة جماعية، أو بتعبير آخر "معارضة إجماعية"[٦١]، ولم ينكر عليهم الرسول ﷺ معارضتهم هذه، بل كان يرشدهم برفق إلى أنه رسول الله، ولن يعصيه، وأنّ الله سبحانه لن يضيعه، وكان ذلك كلّه جزءاً من المنهج النبوي السديد في تربية المسلمين. وفي عهد الصديق (أبي بكر)، وكذلك في عهد الفاروق (عمر) (رضي الله عنهما)، حدثت وقائع يمكن اعتبارها من باب القيام بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، كما في معارضة الكثير من الصحابة – بادىء الأمر – لأبي بكر، في شأن مقاتلة المرتدين، أو في شأن جمع القرآن. أو كما في معارضة المسلمين – أو جَمْعٍ كبير منهم – لعمر(رضي الله عنه)، في شأن عدم توزيع أراضي السواد. وفي خلافة (عثمان رضي الله عنه) برزت المعارضة الجماعية، في الحادثة المعروفة بالفتنة الكبرى، والتي انتهت بمقتل الخليفة الثالث (عثمان رضي الله عنه). ولا تهمنا تفصيلات الوقائع هنا، بقدر ما يهمنا التأكيد على تقبّل المسلمين لحركة المعارضة الجماعية هذه، وعدم إنكارهم اجتماع هؤلاء القوم على أمرهم – بغضّ النظر عن صوابهم أو خطأهم–.!! وفي عهد الإمام علي(رضي الله عنه) قامت معارضة (طلحة والزبير وعائشة) في بداية الأمر، ثم ظهرت حركة (الخوارج) بعد ذلك، وكلّها أحداث قامت على مبدأ المعارضة الجماعية، وفي ذلك ما يشير إلى بداهة هذا الأمر عند المسلمين آنذاك!

ومن هذه الأحداث، وغيرها كثير، يتبيّن لنا أن المسلمين مارسوا عملية (الرقابة على السلطة الحاكمة)، أو فلنقل: مارسوا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، بصورتيه الفردية والجماعية، وسواء كانت المعارضة سلمية، أم مسلحة[٦٢]!.

*** صور للرقابة الشعبية**

إذاً، فإنّ (الرقابة الشعبية)، فضلاً عن استنادها إلى نصوص صريحة من القرآن والسنة، قد مورست عند المسلمين، عملياً، في تجربتهم التاريخية. ولكن السؤال هنا هو: هل يمكن تنظيم عملية (الرقابة الشعبية على السلطة)؟ وما أشكال ذلك التنظيم؟

لقد رأينا، في التاريخ الإسلامي، ظهور حركات مسلحة للمعارضة، كالخوارج مثلاً، كما رأينا ولادة أحزاب، أو تيارات سياسية–فكرية، كالشيعة مثلاً، أو المعتزلة، وإن كان ذلك لا يعني أنها لم تلجأ إلى العمل المسلح، أو العنيف. وهناك من يرى أن فكرة

الأحزاب السياسية قد ظهرت عند المسلمين في وقت مبكر جداً، أي منذ حادثة (السقيفة)" عندما افترق جمهورالمسلمين إلى ثلاثة فرق، واضحة الاختلاف والبرامج السياسية، وهي: فريق الأنصار، وفريق المهاجرين، وفريق أهل بيت النبي(ﷺ)[٦٣]. فهذه التجربة التاريخية الثرّة للمسلمين، فضلاً عما شهدته الحضارة الإسلامية، من ظهور نظام الطوائف والأصناف (وهي تشبه النقابات والجمعيات، التي عرفت في العصر الحديث)[٦٤]، أو ظهور حركات العيارين والشطار، هي صور وانعكاسات وآثار لممارسة مثل هذا (الحق) في المجتمعات الإسلامية.

وإذا كان هناك ثمة خلاف معاصر، بين المسلمين، في شرعية وجود الأحزاب السياسية، من وجهة النظر الإسلامية، فإن الاتجاه الغالب بين المفكرين والباحثين الإسلاميين المعاصرين، يؤيد قيام الأحزاب في الدولة الإسلامية، ويرى أن فوائد ذلك هي أكبر بكثير من مساوئه[٦٥]، و"أنّ ترك الجماهير هملاً في مواجهة حكم منظم، لن يؤول إلا إلى الاستبداد، وإفراغ مبادىء الحكم الإسلامي- كالشورى، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والبيعة، وأهل الحل والعقد- وإفراغها من محتواها، وتركها شعارات فارغة، وقلاعاً خاوية"[٦٦]. ومن ثمّ، فإن "تنظيم المجتمع الإسلامي في شكل تجمعات سياسية وثقافية واجتماعية، هو السبيل الأمثل، إنْ لم يكن الأوحد، لتقوية جانبه في مواجهة السلطة، إنْ جارتْ ... والسير به في اتجاه الاكتفاء الذاتي، وتقليل اعتماده على السلطة، حتى لا يرتهن لها، فتشمخ وتستبد"[٦٧]. ذلك أننا "إذا أردنا أن يكون لفريضة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، معناها وقوتها وأثرها في عصرنا، فلا يكفي أنْ تظلّ فريضة محدودة الأثر، محدودة القدرة، ولا بد من تطوير صورتها، بحيث تقوم بها قوة تقْدِر على أن تأمر وتنهى، وتنذر وتحذر، وأن تقول عندما تؤمر بمعصية: لا سمع ولا طاعة، وأن تؤلّب القوى السياسية على السلطة، إذا طغتْ، فتسقطها، بغير العنف والدم"[٦٨].

وهكذا، فإننا نستطيع القول: إنّ الأحزاب السياسية، وكذلك النقابات العماليّة، والمنظمات المهنية والجماهيرية، وبقيّة منظمات المجتمع المدني، بصورةٍ عامة، بما في ذلك مؤسسات الصحافة والإعلام، تستطيع أن تقوم – كأطر منظمة وجماعية – بدور رقابيّ كبير، على مؤسسات السلطة بشكل عام.. وهذا أمر يقرّه الشرع، وتحتّمه الضرورة، لأنّ من الواضح أنّ الجهود الجماعية، المنظمة بالطبع، هي أقدر بكثير من الجهود الفردية، على تحقيق الأهداف،

وإحداث الأثر المطلوب، وكذلك في تنظيم عملية (المراقبة)، ودعمها، وتقويتها، وفي توجيه وترشيد (الرأي العام)، وحراسته، والحيلولة دون استغفال الشعوب، والاستخفاف بها.

رابعاً: المراقبة القانونية والقضائية:

والقضاء، أو الرقابة القضائية، هو من أهم الضمانات الفاعلة، في حفظ حريات الناس، وصيانة حقوقهم، ولذلك فقد عرفته البشرية منذ زمن بعيد، موغل في القدم . "ويعتبر القضاء حارسا للقانون، وضامناً لتنفيذه"[٦٩]، وهي الجهة التي "يلجأ إليها الأفراد إذا عسفت الهيئات العامة بحقوقهم، أو صادرت حرياتهم، متجاوزة في ذلك على القانون"[٧٠]. يقول (ابن قدامة): "القضاء من فروض الكفايات، لأن أمر الناس لا يستقيم بدونه، فكان واجباً عليهم، كالجهاد، والإمامة"[٧١].

ويرى بعض علماء القانون، أن الرقابة القضائية تشكّل ضمانة حقيقية لحقوق وحريات الأفراد، إذا ما قورنت بغيرها من أنواع الضمانات، ذلك أن "الرقابة البرلمانية، والرقابة الإدارية، لا تشكلان ضمانات أكيدة لحماية حقوق الأفراد، وحرياتهم العامة، تجاه السلطات العامة... لأن الأولى سياسية، يتحكم فيها حزب الأغلبية، وتخضع لأهوائه. والثانية تجعل الأفراد تحت رحمة الإدارة، إذ تقيم من الإدارة خصماً وحكماً، في وقت واحد"[٧٢]. ومن هنا عدّ بعض الباحثين القانونيين الرقابة القضائية "أفضل صور الرقابة وأهمها وأقواها، من حيث المحافظة على مبدأ الشرعية في تطبيقه، الأمر الذي يؤدي إلى حماية الحقوق والحريات الفردية، وتصبح الدولة قانونية من الناحية النظرية والعملية"[٧٣].

وإذا كانت رقابة القضاء – في التجربة الإسلامية – تتم عن طريق فروع القضاء المختلفة، مثل ولاية القضاء، وولاية المظالم، وولاية الحسبة، وولاية الشرطة، وولاية المدينة، وغيرها، فإن (ولاية المظالم) يمكن اعتبارها "أكثر أنواع القضاء اختصاصاً برقابة المشروعية، لأنها تختص بالمسائل المتعلقة بأصحاب السلطة، فهذه الولاية تشبه (القضاء الإداري)، الذي يختص بالمسائل التي تكون الإدارة طرفاً فيها"[٧٤].

وإذا كان دور القضاء العادي، في الرقابة على أعمال السلطات العامة، يتضمن دوره في الرقابة على أعمال الإدارة (بما في ذلك رأس الدولة نفسه)، ورقابته على شرعية القوانين – أيْ: دستوريتها[٧٥]– ثمّ رقابته على أعمال السلطة القضائية نفسها[٧٦]. فإنّ رقابة (قضاء المظالم)، الذي كان الغرض الأساسي منه، هو إخضاع السلطات العامة للقانون الإسلامي، "وبسط سلطان القانون

على كبار الولاة، ورجال الدولة، ممن قد يعجز القضاء عن إخضاعهم لحكم القانون"[٧٧]، كانت أوسع من حيث الصلاحيات، والاختصاصات، وأقوى من حيث التأثير، وخاصة بالنسبة للحقوق والحريات السياسية. ذلك أن الاعتداء على (الحقوق السياسية) للرعية يتم في الغالب من جانب أصحاب السلطة والنفوذ، أيْ من السلطة التنفيذية، فكان دور هذا القضاء واضحاً في الأخذ على أيدي أصحاب النفوذ، والوقوف في وجه مظالمهم.. لقد كان (قضاء المظالم) وسيلة لحفظ الحقوق والحريات السياسية للمواطنين، في عصور الإسلام، وكان له أثر واضح في حفظ هذه الحقوق والحريات[٧٨].

أما (ولاية الحسبة)، وهي من حيث عرّفها (الماوردي) "أمرٌ بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهيٌ عن المنكر إذا أظهر فعله"[٧٩]، فهي ولاية تختص بمراقبة النظام العام، وحسن سير أوامر الشارع، وتنفيذها.. وجوهر (نظام الحسبة) يقوم على فلسفة (الوقاية)، فهي رقابة وقائية، تعمل على منع الجرائم قبل وقوعها، ولا يقتصر أمر ذلك على الأفراد فحسب، فللمحتسب سلطة الاحتساب على الولاة، والقضاة، والأمراء أيضاً[٨٠].

ومن هنا نفهم أن القضاء في الإسلام، يشكل "الدعامة الرئيسية لحفظ الحقوق، وصيانة الحريات، لأن مهمته الكبرى تتجلى في وقف الظلم، ودرء الفساد، وقطع دابر التنازع والخصام، والفصل بين المتخاصمين، وحفظ الشرع، وأوامره"[٨١].

وإذا كانت الحقوق السياسية – في الغالب – ذات علاقة متصلة بالسلطة الحاكمة (السلطة التنفيذية)، فإن هذا يقتضي التحاكم إلى طرف آخر، خارجها، "ولا يستطيع القيام بهذا الدور إلا السلطة القضائية"[٨٢]. "وهكذا فإن القضاء، وقد أوكل إليه الله عز وجل إحقاق الحق، ودفع الظلم، والحكم بما أنزل الله، وتطبيق الشرع، لا يعرف فرقا بين الإدارة والأفراد، في أخذ الحق من الظالم، كائناً من كان، وردّه إلى المظلوم، أياً كان"[٨٣].

*النتائج المترتبة على حق المراقبة

لما كانت (المراقبة) حقاً للأمة، تقوم من خلاله بدور إيجابي، وفعال، في توجيه الحاكم ونصحه وتقويمه، فإن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما العمل إذا لم يستجب الإمام لنصح الأمة، وتمادى في باطله؟!.. إن الأمر الذي لا شك فيه، والذي هو موضع إجماع الأمة، هو أنّ من حق الأمة أن تقوم بعزل الخليفة، إذا قامت الأسباب الموجبة لذلك، "فعزل الخليفة – كما يقول باحث معاصر – "بسبب يوجبه، هو مبدأ ثابت في الشرع، بأدلة قوية جازمة، وأن الأمة هي التي تتولى

ذلك، بما لها من ولاية عليه"[٨٤]. ذلك أن "الجهة التي لها حقّ إنشاء العقد، لها حقّ فسخه، إذا وجدت الأسباب لذلك"[٨٥].

*الأسس التي يقوم عليها حق الأمة في عزل (الخليفة)

هناك مجموعة أسس شرعية يقوم عيها هذا الحق، نشير فيما يلي إلى أهمها[٨٦]:

الأساس الأول: إن مسؤولية إقامة نظام الحكم الإسلامي تقع على عاتق الأمة جميعها – وقد تقدم الكلام في هذا فيما سبق–، ولكن الأمة تختار لهذه المسؤولية نائباً عنها ووكيلاً لها، "وقد أجمع علماء المسلمين على أن طريق ثبوت الخلافة هو الاختيار من الأمة"[٨٧]، فإذا ثبت ذلك ترتّب عليه أن الأمة، التي تملك حقّ تعيين الخليفة، تملك حقّ عزله أيضاً، إن استوجب العزل، ذلك أن من له حق التعيين، له حق العزل، كما يقول الفقهاء[٨٨].

الأساس الثاني: لّما كانت (الخلافة) عقداً بين الأمة والحاكم، يتم عن طريق (البيعة)، وتثبت بموجبه لكلٍّ طرف حقوقٌ وواجبات، فإن الإخلال بشروط العقد يكون موجباً لفسخه، فإذا أخل (الإمام) بشروط العقد، فإن الأمة لها حق فسخه. وهذا ما صرّح به الإمام (الجويني)، إذ يقول: "فإن قيل: فمن يخلعه؟ قلنا: الخلع إلى من إليه العقد"[٨٩].

الأساس الثالث: مبدأ الطاعة في المعروف، وهو مبدأ سياسي مهم، في النظام الإسلامي، فقد أوجب الله سبحانه على المسلمين طاعة أولي الأمر، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾(النساء/٥٩)، وقد جاء التأكيد عليه في أحاديث كثيرة صحيحة[٩٠]. وهذا المبدأ يتضمن في وجهه الآخر – كما هو واضح – مبدأ آخراً هو (عدم الطاعة في المعصية)، إذ {لا طاعة في معصية الله}[٩١]، و{إنما الطاعة في المعروف}[٩٢]. قال الإمام النووي: "أجمع العلماء على وجوبها في غير معصية، وعلى تحريمها في المعصية. نَقَلَ الإجماعَ على هذا القاضي عياض، وآخرون"[٩٣].

الأساس الرابع: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهو "القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين"، كما يقول الإمام (الغزالي)[٩٤]. وهو من الواجبات التي أكد الله سبحانه وجوبها على المسلمين، في العديد من آيات القرآن، منها قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(آل عمران/١١٠)، وقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (التوبة/ ٧١).. إن حق الأمة في عزل الخليفة، إذا أحدث ما يستوجب ذلك،

يصبح بدلالة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، من الواجبات المفروضة على الأمة.

*** موجبات (أسباب) عزل الخليفة**

رأينا أن هناك إجماعاً بين الفقهاء على حقّ الأمة في (عزل) الخليفة، عند حدوث ما يستوجب ذلك[٩٥]، إذ لا عَزْل إلا بسبب يوجبه، كما يقول (الإيجي)[٩٦]. وينقل الإمام (الجويني) الإجماع على ذلك[٩٧]، ولأن القول بغير ذلك "مدعاة للفوضى، وإثارة للفتن"[٩٨]، "إذ إنّ عدم وضع ضوابط تكفل لرئيس الدولة الاستقرار، مما يؤدي إلى عدم تمكن رئيس الدولة من إدارة شؤون دولته، فيكون العزل عندها عائقاً عن الوصول إلى الغاية الأساسية من رئاسة الدولة"[٩٩]، وذلك "سبب من أخطر أسباب هلاك الأمة نفسها، لأنها عندئذ تعيش حياة الأهواء، والنزوات، والفوضى، وضياع هيبة الدولة"[١٠٠].

وهذا ما انتبه إليه قديماً (ابن عمر رضي الله عنه)، عندما نصح الخليفة الراشد (عثمان بن عفان رضي الله عنه)، أيام الفتنة، أن لا يستجيب لطلب الثائرين عليه بخلع نفسه، وعلّل ذلك بقوله: "فلا أرى أن تسنّ هذه السنة في الإسلام: كلما سخط قوم على أميرهم خلعوه"[١٠١]. وهو أيضاً ما أكّده الإمام (الجويني) بفصيح العبارة، في قوله: "إن في الذهاب إلى خلعه والخلاعه بكل عثرة، رفض الإمامة، ونقضها، واستئصال فائدتها، ورفع عائدتها، وإسقاط الثقة بها"[١٠٢].

وإذ اتضح أن خلع الإمام، أو عزله، لا يكون إلا بسبب، فإن السؤال الآن هو: ما الأسباب التي بموجبها يتعرّض (الإمام) للمساءلة والعزل؟!

ذكر الإمام (الماوردي) ذلك بقوله: "والذي يتغيّر به حاله (أي: الإمام)، فيخرج به عن الإمامة، شيئان: أحدهما: جرح في عدالته، والثاني: نقص في بدنه"[١٠٣]. وهذا الاجمال الذي يبدأ به (الماوردي) كلامه في أسباب عزل الإمام، يجد مصداقاً له في كلام للإمام (علي بن أبي طالب)، إذ يقول: "وليس يجب إنكار إمامة من عقدت له الإمامة، إلا أن يجور في حكم، أو يبطل حداً، أو يضعف عن القيام بها"[١٠٤]. وهو ما يجد تفصيلاً له عند الإمام (الباقلاني)، إذ يقول: "إن قال قائل: ما الذي يوجب خلع الإمام عندكم؟ قيل له: يوجب ذلك أمور" منها: كفر بعد إيمان. ومنها: تركه إقامة الصلاة، والدعاء إلى ذلك. ومنها" عند كثير من الناس: فسقه، وظلمه، بغصب الأموال، وضرب الأبشار، وتناول النفوس المحرّمة، وتضييع الحقوق، وتعطيل الحدود... ومما يوجب خلع الإمام أيضاً: تطابق الجنون عليه... وكذلك القولُ فيه إذا صمّ، أو خرس، وكبر وهرم، أو عرض له أمر يقطع

عن النظر في مصالح المسلمين، والنهوض بما نصب لأجله، أو عن بعضه، لأنه إنما أقيم لهذه الأمور، فإذا عطل وجب خلعه، ونصب غيره"[١٠٥]. وقد لخص (الإمام التفتازاني) هذه الأسباب، أدقّ تلخيص، في قوله: "ينحلّ عقد الإمامة، بما يزول به مقصود الإمامة"[١٠٦]. وهذا في الحقيقة ضابط دقيق، ينظر إلى الهدف والوظيفة، التي من أجلها وجد (الإمام)، "فكل ما من شأنه تعطيل رسالة الدولة، وأهدافها، والإخلال بنظامها، يؤدي إلى خلع رئيس الدولة، سواء تعلّق ذلك بشخصه، أم بدينه، أم بأسلوب حكمه ونهجه"[١٠٧].

وأخطر هذه الأسباب، وألصقها بموضوعنا، هو ما تعلّق بالشق الأول: أي (الجرح في عدالته)، وهو ما يعرف باسم (الفسق). وهو على ضربين، كما يقول (الماوردي): "أحدهما ما تابع فيه الشهوة، والثاني ما تعلق فيه بشبهة"[١٠٨]. فالنوع الأول هو الفسق العملي، الذي يتعلق بأفعال الجوارح، أما الثاني فهو الفسق الاعتقادي، والذي قد يصل درجة الكفر.

وإذا كنا قد رأينا إجماع العلماء على حق الأمة في عزل (الإمام)، إذا حدث منه ما يستوجب ذلك، فإن الإمام (النووي) ينقل (إجماعاً) من نوع آخر، حيث يقول: "وأجمع أهل السنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق، أما الوجه المذكور في كتب الفقه لبعض أصحابنا أنه ينعزل – وحكي عن المعتزلة أيضاً – فغلطٌ مِنْ قائله، مخالف للإجماع. وسبب عدم انعزاله، وتحريم الخروج عليه، ما يترتب على ذلك من الفتن، وإراقة الدماء، وفساد ذات البين، فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه"[١٠٩]. ويقول الإمام (ابن تيمية): "المشهور من مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة، وقتالهم بالسيف، وإن كان فيهم ظلم، كما دلّت على ذلك الأحاديث الصحيحة المستفيضة عن النبي(ﷺ). لأن الفساد في القتال والفتنة، أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة، فلا يدفع أعظم الفسادين بالتزام الأدنى"[١١٠].

في حين نرى الإمام (القرطبي) يقول: "الإمام إذا نصب، ثم فسَقَ، بعد انبرام العقد، فقال الجمهور: إنه تنفسخ إمامته، ويُخلع بالفسق الظاهر المعلوم، لأنه قد ثبت أن الإمام إنما يقام لإقامة الحدود، واستيفاء الحقوق، وحفظ أموال الأيتام والمجانين، والنظر في أمورهم، إلى غير ذلك، مما تقدم ذكره، وما فيه من الفسق يقعده عن القيام بهذه الأمور، والنهوض بها، فلو جوزنا أن يكون فاسقاً أدى إلى إبطال ما أقيم لأجله"[١١١]. وهذ منطق قوي، يستند إلى الهدف والوظيفة، التي من أجلها وجد منصب الإمام، كما ذكرنا

عند إيراد قول (التفتازاني): "ينحل عقد الإمامة، بما يزول به مقصود الإمامة"[١١٢]. فالإمام إنما ينصب لتحقيق أهداف وغايات مطلوبة، ولا يعقل أن يمارس خلافها، ويبقى مستمراً في منصبه ووظيفته[١١٣]. وهذا ما يقرّه المنطق، وهو المعروفُ من الشريعة، وانظر إلى أقوال العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾(البقرة/١٢٤)، لترى إجماعهم على أن الظالم والفاسق لا يكون إماماً، "وكيف يصلح لها من لا يجوز حكمه، وشهادته، ولا تجبُ طاعته، ولا يُقبل خبره، ولا يُقدّم للصلاة؟"[١١٤]. أمّا ما نقله الإمامان (النووي) و (ابن تيمية) عن إجماع أهل السنة على عدم انعزال السلطان بالفسق، فهو محمول على الاحتياط والحذر من الوقوع في الفتنة، وقطع الطريق على موجباتها، لا أنهم يرون الإمام الفاسق، أو الظالم، ليس مستحقاً للعزل، ذلك أنّ (لا ينعزل) لا تعني أنه غير مستحق للعزل.. يقول (ابن عابدين): "وقال في المسايرة: وإذا قلّدَ عدْلاً، ثم جارَ وفسقَ، فإنه لا ينعزل، ولكن يستحقُّ العزل، إنْ لم يستلزم فتنة"[١١٥]. فالحذر من الوقوع في (الفتنة) هو المقصود! ولهذا نرى أن تعليل الإمام (النووي)، وكذلك (ابن تيمية)، بعد نقلهما للإجماع المذكور[١١٦]، يركّز على النتائج والآثار المترتبة على (العزل)، وكيف أن "المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه"، وأن "الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم". وهكذا، وبعبارةِ باحثٍ معاصر، فإن "الأصل عند هؤلاء الفقهاء هو عزل رئيس الدولة بفسقه وظلمه، وهذا هو الإجماع الحق الذي لا يحيد عنه مسلم. وما خرج هؤلاء الفقهاء عن ذلك الإجماع، إلا بسبب تصوّرهم ما يمكن أن يلحق الأمة من أذى، إذا قرر أهل الحل والعقد فيها خلْعَ رئيس الدولة الفاسق والظالم"[١١٧]. ومن هنا، فإننا نرى أن الكثير من الكتاب والباحثين المعاصرين، يميلون إلى تفهّم مواقف فقهائنا الأقدمين، والتماس الأعذار لهم، انطلاقاً من قراءة الواقع الذي كان يعيشه أولئك الفقهاء، وإعمالاً للنصوص التي وردت حول هذا الموضوع، وتوفيقاً بينها.. ففي ظلّ غياب مؤسساتٍ دستورية منتخبة، وتدهور (الشورى) الإسلامية، وتحولها إلى مؤسسات شكلية فارغة المحتوى، وفي ظلّ الخوفِ من تكرار التجارب الدموية، التي ملأت التاريخ الإسلامي، وحذار الفتنة، وعدم الاستقرار، مال الفقهاء، رويداً رويداً، إلى التشدّد في أحكام العزْل، وتحريمِ الخروجِ على الحاكم الجائر، بالرغم من أن التجربة الراشدية أسست لمبدأ (الأخذ على يد الحاكم)، وتقويمه بحدّ السيف، إنْ جارَ أو ظلم[١١٨]. "فمنذ أن انتهت المحاولة الأولى لعزل الخليفة

الراشدي الثالث، (عثمان بن عفان)، إلى صراع دموي مدمر، أشعل نار الفتنة، وقضى على أيّ أمل بقيام حكم شوري، أضحى الموت الطبيعي، أو المدبّر، هو المخرج الوحيد لاستبدال الخليفة. وأمستْ آليات استبدال الإمام، وموجباتُ خلْعه، حبراً على ورق"[١١٩]. ولكن تجارب الشعوب، وتراكم الخبرات التاريخية، فتح الطريق أمام حلول لهذا المشكل، أسهل منالاً، وأقلّ كلفة، وأكثر تحقيقا للمقاصد الشرعية[١٢٠]، ومن ذلك ما يقترحه الكثير من هؤلاء الباحثين، من اللجوء إلى تشكيل هيئة دستورية عليا، تحت أيّ مسمّى كانت، كأن تكون (المحكمة العليا)، أو (المحكمة الدستورية)، أو (المجلس الأعلى)، أو (محكمة المظالم)، أو غير ذلك، تكون مختصّة بالنظر في المنازعات التي تنشأ بين رأس السلطة التنفيذية، وبين بقية السلطات (التشريعية أو القضائية)، ويتمّ ذلك عبر التوافق على دستور الدولة، والنصّ فيه على شروط الخليفة، وشروط انتخابه، وطرق الرقابة والمحاسبة، وآلياتُ إنهاءِ عقْد الخلافة، وغير ذلك، مما يسهم في حل الخلافات بطرق شرعية سلمية، متعارفٍ عليها بين جميع مكونات الأمة[١٢١].

ومن ضمن الحلول الأخرى، التي يطرحها نفر من الباحثين المعاصرين، اللجوء إلى تحديد مدّة الرئاسة، بحيث يعاد انتخاب رئيس الدولة، أو رأس السلطة التنفيذية، كل مدة معينة (كأن تكون أربع سنوات، أو أكثر)، وبهذا تتاح الفرصة "لإعادة تقييم أداء الرئيس، ومساعديه، في نهاية كل فترة رئاسية"[١٢٢]، وآنذاك تكون الأمة قد وجدت المخرج والسبيل إلى عزل الحاكم، في حالة فسقه، أو ظلمه، بهدوء، ودون إثارة للفتن، أو إسالة للدماء !.

ويذهب فريق آخر من الباحثين، إلى اقتراح اللجوء إلى أسلوب (العصيان المدني)، والامتناع عن إطاعة أوامر السلطة التنفيذية، استناداً إلى الأصل الشرعي: (لا طاعة في معصية)[١٢٣]. ذلك أن "عدم الطاعة والنصرة للحاكم كلّية، في واقع أمرهما، إنما يمثلان الوجه السلبي للخروج بالسيف على الحاكم، وهما مقدمة ضرورية لإسقاط هذا الحاكم، الذي تتابعت مخالفاته وانحرافاته عن الشرع، فهو بمثابة خروج سلمي"[١٢٤]. وهؤلاء يرون أن هذه المقاطعة الشاملة للحاكم، ومؤسساته، هي أمر جدير بحمل الحاكم الظالم على الإرعواء – على المدى الطويل –، والعودة عن مخالفاته وظلمه، أو أنها ستكون المقدمة الضرورية لغضبة شعبية، وثورة منظمة، تقوم بها جماهير الأمة، لعزل هذا الحاكم الظالم!.

وإذا كان لنا أن ندلي برأي في هذا الموضوع، فإننا نرى أن تحديد مدّة الرئاسة،

هو مخرج واقعي وحاسم في مسألة (العزل)، على أن يثبّت ذلك في الدستور، مع تحديد آليات حلّ الخلاف بين السلطات الثلاث، وحدود سلطات كلّ منها، وشروط انتخاب الخليفة، وآليات إنهاء عقد الخلافة، وتحديد الجهة أو المؤسسة المخولّة بالنظر في أسباب وموجبات العزل، وغير ذلك. أما اللجوء إلى أسلوب العصيان المدني، فهو بمثابة آخر الدواء، إذ طالما كان في الإمكان اللجوء إلى الحل الدستوري المؤسساتي، فإن ذلك هو الأفضل والأسلم، فإن لم يكن من الأمر بدّ، واستبدّ رأس السلطة التنفيذية بالأمر، وامتنع عن الرضوخ لإرادة المؤسسة أو الهيئة المخولّة بالعزل، فإنّ ذلك يوجب اللجوء إلى أسلوب دعوة الشعب إلى العصيان المدني، والخروج عن طاعة ولي الأمر الظالم. على أن يكون هذا الحقّ، في الخروج وعدم الطاعة، مثبتاً في الدستور، بحدوده وآلياته، وتكون الأمة قد هيّأت لذلك مسبقاً، عن طريق إطلاق الحريات السياسية، وحريات التجمّع، وتكوين الجمعيات والنقابات، ومنظمات المجتمع المدني، وحريّة الصحافة والإعلام، لكي تكون الأمة قادرة على التحرك، بعيداً عن مؤسسات الحاكم، وبالضدّ منها – إنْ لزم الأمر–. وإلّا فإنّ الحديث عن (عصيان مدني) شامل، في ظلّ غياب وتكبيل الحريات السياسية، والعامة، وتغييب قوى الأمة الفاعلة، يعدّ ضرباً من الخيال[١٢٥]. وهيهات لأمة استمرأت الذل، وأشربته، أن تكون قادرة على الوقوف في وجه الحاكم الظالم، ومقاومة الطغيان!. أليس استخفاف الشعوب هو الطريق إلى الطغيان: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾(الزخرف: ٥٤) .

وبهذا العرض السريع لمبحث حق الأمة في الرقابة على الحاكم، نكون قد أتينا على الشقّ الثاني من حقوق الأمة السياسية، في النظام السياسي الإسلامي، ويبقى أن نبحث في الشقّ الثالث، والأخير، من هذه الحقوق، وهو (حقّ المعارضة).

الهوامش:

(١) انظر: الكيلاني، القيود الواردة على سلطة الدولة، ص١٨٣.

(٢) الجبوري، حقوق الإنسان السياسية، ص٣٥٤. وانظر أيضاً: الكيلاني، القيود الواردة على سلطة الدولة، ص١٨٤. وانظر:المبارك، محمد، نظام الإسلام:الحكم والدولة، ص٣٨-٣٩.

(٣) النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي (ت ٦٧٦هـ)، شرح النووي على مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢، ج٢ص٢٣.

(٤) أبو جيب، دراسة في منهاج الإسلام السياسي، ص٣٦٦. وانظر:مصطفى، د. نيفين عبدالخالق، المعارضة في الفكر السياسي الإسلامي، ص١٢٣.

(٥) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد(ت٥٠٥هـ)، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، ط، د.ت. م٢ ص٣١٥.

(٦) المصدر السابق، ص٣٠٦.

(٧) عمارة، د. محمد، الإسلام وحقوق الإنسان، ص٨٢. يقول الإمام (ابن حزم):"اتفقت الأمة كلها على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بلا خلاف من أحد منهم، ثم اختلفوا في كيفيته" ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري(٣٨٣-٤٥٦هـ)، المحلى، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ط، د.ت، ج٤ ص١٧٠.

(٨) الغزالي، إحياء علوم الدين، مصدر سابق، م٢ ص٣٠٧.

(٩) سنن الترمذي، باب: ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم الحديث(٢١٦٩)، ج٤ ص٤٦٨.

(١٠) رواه (مسلم) في صحيحه، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان، ج١ ص٦٩.

(١١) المصدر السابق، ج١ ص٧٤، باب الدين النصيحة.

(١٢) رواه أبو داود في السنن، كتاب الملاحم، ج٤ ص١٢٤. وابن ماجة، كتاب الفتن،ج٢ ص١٣٢٩. والترمذي، باب: أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، ج٤ ص٤٧١.

(١٣) رواه الحاكم في مستدركه، كتاب معرفة الصحابة، ج٣ ص٢١٥، رقم الحديث(٤٨٨٤). وقال: صحيح الإسناد.

(١٤) رواه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب: الأمر والنهي، ج٤ ص١٢١ . ورواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب: آداب القاضي، ج١٠ ص٩٣.

(١٥) رواه البخاري في صحيحه، باب: هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، ج٢ ص٨٨٢، رقم الحديث(٢٣٦١).

(١٦)غرايبة، الحقوق والحريات السياسية، ص٣٧-٣٨.

(١٧)الغزالي، إحياء علوم الدين، م٢ص٣٠٦.

(١٨) انظر: الجبوري، حقوق الإنسان السياسية، ص٣٥٣-٣٥٤. أيضا: حسنين، د. علي محمد، رقابة الأمة على الحكام، ص٢٦٥.

(١٩)النووي، شرح النووي على مسلم، ج٢ ص٢٢.

(٢٠)عودة، عبدالقادر، الإسلام وأوضاعنا السياسية، ص١٩٤.

(٢١)غرايبة، الحقوق والحريات السياسية، ص٣٨١.

(٢٢)المرجع السابق، ص٣٨٢.

(٢٣) الطبري ، تاريخ، ج٥ ص٢٦.

(٢٤) أبو يوسف، القاضي يعقوب بن إبراهيم(١١٣-١٨٢هـ)، الخراج، المطبعة السلفية، القاهرة، ط٥، ١٣٩٦، ص١٣.

(٢٥)حسنين، د. علي محمد، رقابة الأمة على الحكام، ص 334.

(٢٦) الباقلاني، القاضي أبو بكر(-٤٠٣هـ)، التمهيد. نقلاً عن:إيبش، د. يوسف، قراءات في الفكر السياسي الإسلامي، دار أمواج، بيروت، د.ط، ٢٠٠٠، ص٤٧.

(٢٧) البياتي، الدولة القانونية، ص٣٦٨. وانظر:الجبوري، حقوق الإنسان السياسية، ص٣٤٩.

(٢٨) صافي، د. لؤي، العقيدة والسياسة، ص١٠٨.

(٢٩) الجبوري، حقوق الإنسان السياسية، ص٣٥٠.

(٣٠) البياتي، الدولة القانونية، ص٣٦٩. وانظر كذلك: زيتون، د. منذر عرفات، الجريمة السياسية، ص٧٠.

(٣١) انظر: البياتي، الدولة القانونية، ص٣٦٩.

(٣٢) مدكور، د. محمد سلام، معالم الدولة الإسلامية، مكتبة الفلاح، الكويت، ط١، ١٩٨٣، ص٢٩٠.

(٣٣) انظر: الجبوري، حقوق الإنسان السياسية، ص٣٥٠.

(٣٤) انظر ص٢٩ من هذا الفصل.

(٣٥) الريس، النظريات السياسية الإسلامية، ص٣٣٩.

(٣٦) البياتي، الدولة القانونية، ص٣٦٩.

(٣٧) سنن ابن ماجة، كتاب الفتن، باب السواد الأعظم، رقم الحديث(٣٩٥٠)، ج٢ ص١٣٠٣. ورواه الترمذي، وأبو داود، بألفاظ قريبة من ذلك.

(٣٨) انظر: البياتي، الدولة القانونية، ص٣٦٤.

(٣٩) اختلف العلماء في صفة هذا الوجوب: هل هو فرض عين، كما قال بعض الفقهاء، أم هو فرض كفاية، كما ذهب جمهور الفقهاء. فالذين ذهبوا إلى أنه فرض عين، قالوا بوجوبه على كل مسلم، على قدر استطاعته، وشبهوه بفريضة الحج، فهي فرض عين، ولكن على المستطيع. أما جمهور الفقهاء، فقد ذهبوا إلى أنه فرض كفاية، بحيث يسقط الإثم عن الباقين، إذا قام به بعض الأمة .انظر: حسنين، د. علي محمد، رقابة الأمة على الحكام، ص٢٦٨-٢٦٩.

(٤٠) انظر في ذلك: غرايبة، الحقوق والحريات السياسية، ص٣٨٦. المبارك، محمد، نظام الإسلام: الحكم والدولة، ص٤٢-٤٣. حسنين، د. علي محمد، رقابة الأمة على الحكام، ص٢٧٢-٢٨٨-٣٣٧. عمارة، د. محمد، المعتزلة والثورة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٧، ص٣٢. أيضاً: الكيلاني، القيود الواردة على سلطة الدولة في الإسلام، ص١٨٧.

(٤١) انظر في نظرية الإنابة عن الأمة في تنفيذ الواجبات الشرعية: البياتي، الدولة القانونية، ص٢٤١ فما بعد. أيضا: زيدان، مجموعة بحوث فقهية، ص٩٢.

(٤٢) غرايبة، الحقوق والحريات السياسية، ص٣٨٦. وانظر: حبيب، د. رفيق، الأمة والدولة، دار الشروق، القاهرة، ط١، ٢٠٠١، ص٢١٢ فما بعد، حيث يرى أن عقد (الوكالة) وليس (النيابة) هو الذي يقوم بين الأمة وممثليها السياسيين، ذلك أن عقد الوكالة مشروط ومحدد المهام، والوكيل مفوض في أداء مهمة محددة . أما (النيابة) فهي نظرية غربية، وفيها صلاحيات أوسع، وفيها ينوب (النائب) عن الأمة، ويحل محلها، ويمارس حقوقها، وليس ذلك مطلوبا ولا وارداً في النظام الإسلامي.

(٤٣) انظر: الحلو، النظم السياسية والقانون الدستوري، ص٧٥٨ وص٧٦٤.

(٤٤) صحيح مسلم، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، ج١ ص٦٩. سنن الترمذي، باب ما جاء في تغيير المنكر، رقم الحديث(٢١٧٢)، ج٤ ص٤٦٩، وقال : حديث حسن صحيح .

(٤٥) غرايبة، الحقوق والحريات السياسية، ص٣٨٧.

(٤٦) انظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، م٢، ص٣١١. "وقد سمع ابن مسعود رجلا يقول: هلك من لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر. فقال ابن مسعود: هلك من لم يعرف بقلبه المعروف والمنكر .

يشير إلى أن معرفة المعروف والمنكر بالقلب فرض لا يسقط عن أحد، فمن لم يعرفه هلك، أما الإنكار باللسان واليد، فإنما يجب بحسب الطاقة" جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٠٨، ص٣٢١.

(٤٧) حسنين، د. علي محمد، رقابة الأمة على الحكام، ص٥٤١. وانظر: مصطفى، د. نيفين عبد الخالق، المعارضة في الفكر السياسي الإسلامي، ص١٢٩.

(٤٨) رواه الحاكم في مستدركه.

(٤٩) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب قول الله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، رقم الحديث(٦٧١٩)، ج٦ ص٢٦١١. ورواه مسلم، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، رقم الحديث(١٨٢٩)، ج٣ ص١٤٥٩.

(٥٠) انظر: حسنين، د. علي محمد، رقابة الأمة على الحكام، ص٣٣٤-٣٣٦.

(٥١) الغزالي، إحياء علوم الدين، م٢، ص٣٤٣.

(٥٢) المطيري، الحرية أو الطوفان، ص٧١.

(٥٣) الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك وصحح إسناده.

(٥٤) النووي، شرح النووي على مسلم، ج٢ ص٢٣.

(٥٥) الغزالي، إحياء علوم الدين، م٢ ص٣٣١-٣٣٢.

(٥٦) الصاوي، د. صلاح، منهجية التغيير بين النظرية والتطبيق، دار نهضة مصر، القاهرة، ط١، ١٩٩٨، ص١٢.

(٥٧) سبق تخريج الحديث ص . وانظر: المرجع السابق، ص١١.

(٥٨) أخرجه البزار في مسنده، ج١ ص٢٩٣. والطبراني في الأوسط، ج٢ ص٩٩.

(٥٩) تفسير المنار، ج٤ ص٣٢ . وانظر: الحامد، أبو بلال عبدالله، الكلمة أقوى من الرصاصة، ، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط١، ٢٠٠٤، ص٤٦. وانظر: غرايبة، الحقوق والحريات السياسية، ص٤٤٥ . حيث يطلق الدكتور (غرايبة) على الرقابة الجماعية اسم (رقابة الرأي العام). انظر في ذلك أيضاً: الزين ، حسن، الإسلام والفكر السياسي المعاصر، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٧، ص٧٤.

(٦٠) غرايبة، الحقوق والحريات السياسية، ص٢٧٤.

(٦١) انظر: قميحة، المعارضة في الإسلام، ص١٧٨.

(٦٢) انظر: حسنين، د. علي محمد، رقابة الأمة على الحكام، ص٣٣١-٣٣٢.

(٦٣) انظر: غرايبة، الحقوق والحريات السياسية، ص٢٦٠. وانظر: الغنوشي، الحريات العامة في الدولة الإسلامية، ص٢٥٠.

(٦٤) انظر: عاشور، ا.د سعيد عبدالفتاح وآخرين، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، منشورات ذات السلاسل، الكويت، ط٢، ١٩٨٦، ص٣٢٣-٣٢٤ . وانظر: خليل، د. عماد الدين، مدخل إلى التاريخ الإسلامي، الدار العربية للعلوم، بيروت، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٥، ص٢٢٩.

(٦٥) انظر: غرايبة، الحقوق والحريات السياسية، ص٢٧٠. الغنوشي، الحريات العامة، ص٢٩٠. معروف، د. نايف، الديمقراطية في ميزان العقل والشرع، ص٢٧٥. أيضاً: القرضاوي، يوسف، من

فقه الدولة في الإسلام، دار الشروق، د.م، د. ط، د.ت، ص١٤٩.

(٦٦) الغنوشي، الحريات العامة في الدولة الإسلامية، ص٢٩٧.

(٦٧) المرجع السابق، ص٢٩٨.

(٦٨) القرضاوي، من فقه الدولة في الإسلام، ص١٤٩.

(٦٩) المرجع السابق، ص٤٤٧.

(٧٠) البياتي، الدولة القانونية والنظام السياسي الإسلامي، ص٣٩٣.

(٧١) غرايبة، الحقوق والحريات السياسية، ص٤٤٧.

(٧٢) المرجع السابق، ص٣٩٣-٣٩٤.

(٧٣) المرجع السابق نفسه، ٣٩٦.

(٧٤) المرجع السابق نفسه، ص٤٤٥.

(٧٥) يملك القضاء الإسلامي – من حيث المبدأ – سلطة رفض أي قانون يخالف الكتاب والسنة، لأنه في ممارسته لوظيفة القضاء ملزم بالحكم بما أنزل الله، وبذلك يكون الإسلام قد سبق إلى تقرير نظرية شرعية القوانين، أو نظرية دستورية القوانين، التي هي نظرية حديثة النشأة. انظر: البياتي، الدولة القانونية، ص٤٠٩.

(٧٦) باعتبار أن القضاء ممارسة بشرية قد يطرأ عليها الخطأ ومجانبة الصواب . ومن هنا كان المبدأ الإسلامي الذي عبر عنه الخليفة الراشد الثاني "ولا يمنعنك قضاء قضيته بالأمس، فراجعت اليوم فيه عقلك، وهديت فيه لرشدك، أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل.." الماوردي، الأحكام السلطانية، ص١٢٠.

(٧٧) البياتي، الدولة القانونية، ص ٤١٥.

(٧٨) انظر: غرايبة، الحقوق والحريات السياسية، ص٤٦٤. وانظر: البياتي، الدولة القانونية، ص٤٢٠.

(٧٩) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٣٦٢.

(٨٠) انظر: القرشي، ابن الإخوة محمد بن محمد بن أحمد الشافعي، معالم القربة في أحكام الحسبة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١٩٧٦. ص٧٠-٧١، ص٣٠٤ فما بعد، ص٣١٦.

(٨١) غرايبة، الحقوق والحريات السياسية، ص٤٧٤ .

(٨٢) المرجع السابق، ص٤٧١.

(٨٣) البياتي، الدولة القانونية، ص٤٠٦.

(٨٤) المرجع السابق، ص٣٨٠. وانظر:د. نيفين عبدالخالق، المعارضة في الفكر السياسي الإسلامي، ص٣٧٦.

(٨٥) الريس، النظريات السياسية الإسلامية، ص٣٣٩.

(٨٦) انظر في ذلك: غرايبة، الحقوق والحريات السياسية، ص٣٩٢-٣٩٤. البياتي، الدولة القانونية، ص٣٨١.

(٨٧) غرايبة، الحقوق والحريات السياسية، ص٣٩٢.

(٨٨) انظر: المرجع السابق، ص٣٩٢.

(٨٩) الجويني، غياث الأمم في التياث الظلم، ص٦١-٦٢.

(٩٠) غرايبة، الحقوق والحريات السياسية، ص٣٩٥.

(٩١) صحيح مسلم، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية الله وتحريمها في المعصية، ج٣ ص١٤٦٩، رقم الحديث(١٨٤٠). ورواه ابن حبان في صحيحه، باب طاعة الأئمة، ج١٠ ص٤٢٩، رقم الحديث(٤٥٦٧).

(٩٢) صحيح البخاري، باب الطاعة للإمام ما لم تكن معصية، ج٦ ص٢٦١٢، رقم الحديث (٦٧٢٦) . ورواه (مسلم)، وقد سبق تخريجه آنفا. ورواه (أبو داود) في سننه، باب في الطاعة، ج٣ ص٤٠، رقم الحديث(٢٦٢٥). والنسائي في السنن الكبرى، ج٤ ص٤٣٤، رقم الحديث(٧٨٢٨).

(٩٣) النووي، شرح النووي على مسلم، ج١٢ ص٢٢٢ .

(٩٤) الغزالي، إحياء علوم الدين، م٢ ص٣٠٦.

(٩٥) الإمام عند أهل السنة –كما هو معلوم – غير معصوم، وبالتالي فإن طروء الخطأ والمعصية والكفر عليه هو أمر وارد، ومن هنا جاء الحديث عن حق الأمة في تولية الحاكم ونصحه ومراقبته وعزله، وهي مباحث لا نجدها عند الشيعة، الذين يعتقدون بعصمة الأئمة . وانظر في ذلك: مصطفى، د. نيفين عبدالخالق، المعارضة في الفكر السياسي الإسلامي، ص٤١٢–٤١٣.

(٩٦) الإيجي: المواقف وشرحها للجرجاني ج٨ ص٣٥٣ (نقلاً عن: البياتي، الدولة القانونية، ص٣٧٩)

(٩٧) الجويني، إمام الحرمين، الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، (نقلاً عن:إيبش، د.يوسف، قراءات في الفكر السياسي الإسلامي، مصدر سابق، ص٢٢٣).

(٩٨) غرايبة، الحقوق والحريات السياسية، ص٤٠٠.

(٩٩) الكيلاني، القيود الواردة على سلطة الدولة، ص٢٣٤.

(١٠٠) أبو جيب، دراسة في منهاج الإسلام السياسي، ص٣٨٤.

(١٠١) ابن سعد، أبو عبدالله محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري (١٦٨–٢٣٠هـ)، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ج٣ص٦٦ .

(١٠٢) الجويني، غياث الأمم في التياث الظلم، ص٥٣.

(١٠٣) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٣٢.

(١٠٤) تثبيت دلائل النبوة للقاضي عبدالجبار ج١ ص٢٨٢ (نقلاً عن:عمارة، المعتزلة والثورة، ص٣٤).

(١٠٥) الباقلاني، القاضي أبوبكر(ت ٤٠٣هـ)،التمهيد. (نقلاً عن:إيبش، د. يوسف، قراءات في الفكر السياسي الإسلامي، مصدر سابق، ص٤٧– ٤٨).

(١٠٦) شرح مقاصد الطالبين في علم أصول الدين (نقلاً عن: أبوجيب، دراسة في منهاج الإسلام السياسي، ص٣٨٥).

(١٠٧) أبو جيب، دراسة في منهاج الإسلام السياسي، ص٣٨٥.

(١٠٨) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٣٢.

(١٠٩) النووي، شرح النووي على مسلم، ج٢ ص٢٢٩ .

(١١٠)منهاج السنة النبوية ج٢ ص٨٧ (نقلاً عن: الجبوري، حقوق الإنسان السياسية، ص٣٧٣).

(١١١)القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١ ص٢٧١. انظر في عرض آراء الفقهاء المؤيدة لعزل الخليفة، والآراء التي تحرم عزله والخروج عليه: هيكل، الجهاد والقتال في السياسة الشرعية،،م١ص١١٩ فما بعد. سعيد، د. صبحي عبده، شرعية السلطة والنظام في حكم الإسلام، دار

النهضة العربية، مصر، (د.ط)، ١٩٩٩، ص٣٠٣-٣٠٩.

(١١٢) انظر ص٤٧ من هذا الفصل.

(١١٣)يرد هذا عند الإمام الجويني في (الغياثي) أكثر من مرة، فنجده يقول في موضع "كل ما يناقض صفة مرعية في الإمامة ويتضمن انتفاءها، فهو مؤثر في الخلع والانخلاع، وهذا لامحالة معتبر الباب" ص٥١. ويقول: "فإن مقصود الإمامة القيام بالمهمات والنهوض بحفظ الحوزة، وضم النشر، وحفظ البلاد الدانية والنائية بالعين الكالئة، فإذا تحقق عسر ذلك، لم يكن الاتسام بنبر الإمام معنى" ص٥١. ويقول: "اقتران الفسق إذا تحقق يمنع عقد الإمامة، فطريانه يوجب انقطاعها، إذ السبب المانع من العقد عدم الثقة به، وامتناع ائتمانه على المسلمين، وإفضاء تقليده إلى نقيض مايطلب من نصب الأئمة. وهذا المعنى يتحقق في الدوام تحققه في الابتداء" ص٥٣. وهكذا يتردد هذا المعنى عنده في مواضع كثيرة.

(١١٤)أبو جيب، دراسة في منهاج الإسلام السياسي، ص٣٩٠. يقول(ابن خويز منداد):" وكل من كان ظالما لم يكن نبيا، ولا خليفة، ولا حاكما، ولا مفتيا، ولا إمام صلاة، ولا يقبل عنه ما يرويه عن صاحب الشريعة، ولا تقبل شهادته". القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٢ ص١٠٩.

(١١٥)ابن عابدين، حاشية رد المحتار على الدر المختار، ج٤ ص٢٦٤.

(١١٦) يقول الدكتور محمد رحيل غرايبة في كتابه (الحقوق والحريات السياسية في الشريعة الإسلامية): "ويبدو أن دعوى الإجماع فيها نظر، لأن كثيرا من الفقهاء خالفوا هذا الرأي، مثل: القرطبي وغيره، بل هناك من علماء الشافعية أنفسهم من خالف هذا الرأي، مثل: البغدادي في أصول الدين، وقد خالفه أيضاً ابن حزم" ص٤٠٢ . وهو ما يذهب إليه باحث معاصر آخر، هو الأستاذ سعدي أبو جيب في كتابه (دراسة في منهاج الإسلام السياسي) إذ يقول: "وأما دعوى الإجماع، فدعوى عريضة، لأنهم يدعون تارة إجماع أهل السنة، وتارة أخرى يدعون أن هذا الإجماع حصل من قبل الطبقة المتأخرة من التابعين، وليس في كل ذلك حجة، ذلك لأن الصحابة (رضي الله عنهم) كانوا يرون الخروج على رئيس الدولة إذا حاد عن الصراط السوي، وقد رأينا الفاروق (ﷺ) يحمد الله تعالى، ويحمد من أبدى استعداده لتقويم حيدته عن الحق بالسيف، ولم يتذرع بحرمة الخروج عليه بالسيف، ولم يرشده إلى أن عليه أن يعظه بالكلمة الحسنة، وليس له وراء ذلك شيء" ص٤١٧ – ٤١٨ من الكتاب المذكور. وانظر أيضا: السنهوري، د. عبدالرزاق أحمد، فقه الخلافة وتطورها لتصبح عصبة أمم شرقية، ت: د. نادية عبدالرزاق السنهوري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣، ص٢٠١-٢٠٢.

(١١٧) أبو جيب، دراسة في منهاج الإسلام السياسي، ص٣٩٦. وانظر في ذلك: مدكور، معالم الدولة الإسلامية، ص٣٠١ . سعيد، د. صبحي عبده، شرعية السلطة والنظام في حكم الإسلام، ص٣٠٦. النداف، الأخلاق السياسية للدولة الإسلامية، ص٣٦٢. المطيري، الحرية أو الطوفان، ص١٦٣-١٦٤. هيكل، الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، م١ ص١٣٤-١٣٥. مصطفى، د. نيفين عبد الخالق، المعارضة في الفكر السياسي الإسلامي ، ص٣٧٢.

(١١٨)انظر:الغنوشي، الحريات العامة في الدولة الإسلامية، ص١٨٢ فما بعد . الكيلاني، القيود الواردة على سلطة الدولة، ص٢٨٣ فما بعد .

الجبوري، حقوق الإنسان السياسية، ص٣٧٥-٣٧٦. سعيد، د. صبحي عبده، شرعية السلطة والنظام في حكم الإسلام، ص٣٠٣-٣٠٩ . أبو جيب، دراسة في منهاج الإسلام السياسي، ص٤٠٦ فما بعد. أيضاً: الترابي، د. حسن، السياسة والحكم: النظم السلطانية بين الأصول وسنن الواقع، دار الساقي، بيروت، ط١، ٢٠٠٣، ص١١٨-١١٩ وص٣١٢ . أحمد، د. منظور الدين، النظريات السياسية الإسلامية في العصر الحديث، ص٢٠٦. أيضا: المطيري، الحرية أو الطوفان، ص ١٢٤-١٢٥ ، وص ١٨.

(١١٩) صافي، لؤي، العقيدة والسياسة، ص ٢٣٢-٢٣٣.

(١٢٠) يقول (د. عبدالرزاق السنهوري) في مؤلفه (فقه الخلافة) ص١٨٦: "إزاء عدم وجود إجابات واضحة على هذه الأسئلة في تاريخ الخلافة، لا بد لنا من الاستعانة بالمبادىء العامة في القانون العام المعاصر، التي لا تتعارض مع مبادئ الشريعة". ويدافع الدكتور (خالص جلبي) عن (الخيار السلمي) في مواجهة الحكام، ويرى أن رفع السلاح واستعمال العنف هو (جرثومة) مرض، إن انطلقت اصابت الجميع، ولم ترحم أحداً. انظر : جلبي، د. خالص، سيكولوجية العنف واستراتيجية الحل السلمي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٩٨، ص٣٥-٣٧ .

(١٢١) انظر:غرايبة، الحقوق والحريات السياسية، ص٤٠٤. البياتي، الدولة القانونية، ص٣٨٥. الغنوشي، الحريات العامة، ص١٨٩. الجبوري، حقوق الإنسان السياسية، ص٣٧٦. طعيمة، الدولة والسلطة في الإسلام، ص١١١. سعيد، د. صبحي عبده، شرعية السلطة والنظام في حكم الإسلام، ص٣١٢. الكيلاني، القيود الواردة على سلطة الدولة، ص٢٤٣ وص٢٤٧. السنهوري، فقه الخلافة، ص١٨٥-١٨٦. المبارك، محمد، نظام الإسلام: الحكم والدولة، ص٤٢-٤٣.

(١٢٢) صافي، لؤي، العقيدة والسياسة، ص٢٣٣. وانظر: البياتي، الدولة القانونية، ص٣٨٥. الجبوري، حقوق الإنسان السياسية، ص٣٧٧. السنهوري، فقه الخلافة، ص١٩٦. الترابي، السياسة والحكم، ص٣٠٦-٣٠٨.

(١٢٣) انظر: فروان، الخروج على الحاكم الجائر، ص٢٠٧-٢٠٩. حسنين، د. علي محمد، رقابة الأمة على الحكام، ص٥٥١-٥٥٣. سعيد، د. صبحي عبده، شرعية السلطة والنظام في حكم الإسلام، ص٢٩٨-٣٠١، حيث يعتبر (العصيان) مرحلة لا بدّ منها قبل مرحلة إسقاط الحاكم الجائر بالسيف. أبو سليمان، د. عبدالحميد، العنف وإدارة الصراع السياسي، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠٢، ص٥٢-٥٣ . بن حاج، الشيخ أبو عبد الفتاح علي، فصل الكلام في مواجهة ظلم الحكام، منشورات الجبهة الإسلامية للإنقاذ، (د.م)، (د.ط)، (د.ت)، ص٢٧٥-٢٧٦ . الحامد، أبوبلال عبدالله، للإصلاح هدف ومنهاج، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط١، ٢٠٠٤، ص٨٦/٤٥.

(١٢٤) حسنين، د. علي محمد، رقابة الأمة على الحكام، ص٥٥٣.

(١٢٥) انظر: الحامد، للإصلاح هدف ومنهاج، ص٥٢-٥٥.

عبق الكلمات

حكمة التمكين

عبد الباقي يوسف
abdalbakiuosf@gmail.com

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾ الأنعام/ ٦

التمكين هنا، مدى المقدرة على تمكّن ما تسعى إلى التمكّن منه ليُصبح تحت أمرتك وتُصبح متمكّناً منه بشكل جيّد، وكلّما تتسع إمكانات الإنسان، فإنه يغدو متمكّناً أكثر. وبذلك فإن الإنسان يمكن له أن يأخذ العِبرة من التمكّن، فقد يؤدّي التمكين بصاحبه، إلى التواضع وفعل الخير، ثم إلى النجاة، وقد يودي بصاحبه إلى البطر والبطش، ثم إلى الهلاك. وللتمكين مستويات، لكن النتائج هي هي: فهناك التمكين في الدولة، والتمكين في المؤسسة، في العائلة، في العلاقات الاجتماعية، في الصحة، في المال، في المهنة. فهذه مسؤولية التمكين الجسيمة.

يُذكّر الله الـ ﴿مُعْرِضِينَ﴾، الذين ﴿كَذَّبُواْ﴾ و ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾ بالتنزيل الحكيم بأنه قادر على إهلاكهم: ﴿أَلَمْ يَرَ﴾ هؤلاء ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ﴾، فلينظروا إلى المتمكّنين من قبلهم، ويتخذوا منهم عبرة.

إن التمكين ﴿فِي الأَرْضِ﴾، وما يتفرّع عنه من أسباب القوة، والنفوذ، والثروة، والصحة، لا يعني بأن الله غير قادر على أخذ كل شيء، بل الله الذي مكّنكم، قادر أن يأخذكم: ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ القمر/ ٤٢، كما أخذ الذين سبقوكم، فانظروا: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِ﴾، كم ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ بمعنى ﴿مِنْ﴾ جيل بشري خلال مائة عام بعد أن: ﴿مَّكَّنَّاهُمْ﴾ جعلنا لهم مكاناً ﴿فِي الأَرْضِ﴾ وجعلناهم متمكّنين فيه: ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾، فاعلموا يا أهل مكة بأن ما أنعمنا به عليكم هو أقل ممّا أنعمنا به على قوم عاد، وثمود، وشعيب، وفرعون، وغيرهم، حيث كانوا أكثر منكم لياقة وقوة في الأبدان، وأكثر جاهاً، ومالاً، ونفوذاً، وبنياناً:

﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً﴾ المطر الغزير الذي جعلهم في خصوبة، ونماء، وكثرة الثمار والأرزاق، ﴿وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾، بيد أنهم لم يُقدّروا النعمة، ولبثوا في الذنوب: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾.

إن ذلك يجعلنا نتأمل ما يمكن أن يفرزه التمكين من خير، وشرّ. فالمتمكّن الذي يسعى إلى الخير، يكون قادراً على ذلك بشكل أوسع وأشمل بحُكم إمكاناته المتاحة، والمتمكّن الذي يسعى إلى الشرّ، يكون قادراً على ذلك بشكل أوسع وأشمل بحكم إمكاناته المَتاحة، وكما أن الأول يتمدّد في بسطة الخير، فإن الثاني يتمدّد في بسطة الشر.

فالذنوب لا بدّ أن تنتهي بصاحبها إلى الهلاك مهما بدا له، أو للآخرين، بأنه قويّ، ومتمكّن في الأرض. ولدينا في العصر الحديث شواهد على جبابرة مكّنهم الله في الأرض، وتمتعوا بأسباب القوة، والنفوذ، والسلطان، لكنهم انتهوا نهايات مذلة، مهلكة. فأقرب سبيل إلى الهلاك هو سبيل الذنوب، وأقرب سبيل إلى النجاة هو سبيل التوبة. وكأنّ الله – جلّ شأنه – يقول: كفاكم ذنوباً حتى لا تلحقوا بالذين ﴿أَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾، بعد أن أغدقناهم بأسباب الرفاهية ورغد العيش.. فمهما كنتم أقوياء ومتمكّنين، فقد أهلكنا مَن هم أقوى، وأمكن منكم، عندما اتبعوا الشهوات، ولبثوا في الذنوب.

الذي يتعرَّض لقبسات الإشراق الإلهية، فإن كل شيء فيه يُضيء: مُحيّاه، مُقلتاه، هيأته، صوته، بسمته، بل حتى الثياب التي يرتديها، والبيت الذي يقطنه. فثمة ثياب تبدو باهتة، مهما كانت جودتها عالية، وباهظة الثمن عندما يرتديها أناس، وثمة ثياب تشعّ مهما كانت جودتها متواضعة، ومنخفضة الثمن، عندما يرتديها أناس.

وثمة منازل، وأنت تدلفها، تراها مُنطَفِئة، رغم ما هي عليه مِن فخامةِ البناء، والزينة، والأثاث، وكلّ ما فيها يبدو واجِماً منطفئاً أمامك.

وثمة منازل تدلفها، فتراها مُضيئة، رغم تواضع بنائها، وتواضع ما تحتويه من أثاث.

كذلك الموائد، فيمكن أن تجلس إلى مائدة عامرة بأشهى وألذّ أصناف الطعام والشراب في ذاك البيت، غير أنك تشعر بأنّ كلّ ما عليها يفتقد النكهة، والشهيّة. وتجلس إلى مائدة متواضعة، في بيت متواضع، فتأكل بشهيّة، وكلّ لقمة تكون أكثر طِيباً من الأخرى، وكلّ شربة تكون أكثر لذّة من الأخرى. وهكذا الإنسان، فترى شخصاً كُلُّ ما فيه مُظلم، مُطفأ، رغم أنّه بالغ الثروة، أو النفوذ، في حين تلفى شخصاً كلُّ ما فيه مشرق، ومُضيء، رغم ما هو عليه مِن تواضعٍ، وإمكاناتٍ محدودة.. ❐

مقالات

– إقليم كوردستان.. وفرص تحول سلطته لنظام سياسي	سرهد أحمد
– بلاي ستيشن أم داعش دوت كوم؟	رولا حسينات
– التصوف السياسي (الحلولي): من (الحلاّج) إلى (غولن)	د.سنان أحمد
– ملاحظات عن الاستشراق	عمر محمد
– ماذا حلّ بالمؤمنين والمجتمع البشري؟	قاسم جميل (نوفيسي)
– توريث المهنة وأثره في تدوين كتب الطب العربي	د.نبيل فتحي حسين
– التربية والتعليم والإصلاح	أ.د.علي عبد داود
– جدل الإيمان بين الصورة والحقيقة	سعد الزيباري
– أول العمل آخر الفكرة، وأول الفكرة آخر العمل	أمين حجي الدوسكي
– من وحي الطفولة	علاء الدين حسن

إقليم كوردستان ..

وفرص تحول سلطته لنظام سياسي

سرهد أحمد علي

يقترن بناء النظام السياسي بنشوء الدولة فقط، فالدولة المستقلة (بسيطة) أو (موحّدة)، (مركزية) أو (اتحادية) يتوقف نشوؤها على (نظامٍ سياسي) إلى جانب (الشعب) و(الإقليم)، وبهذه العناصر الثلاثة تتشكّل الشخصية القانونية للدولة في (النسق الدولي العام).

ولا تنطبق هذه النظرية السياسية على (إقليم كوردستان – العراق)، لأنه كيان قائم ضمن إطار (الدولة العراقية) دستورياً وقانونياً، لكن هناك حيّزاً من الاستثناء يتمتّع به وهو وجود (مُنتظم سياسي)، أي وجود سلطات إدارية وأبنية سياسية، سلطة رئاسة الإقليم، ورئاسة الوزراء، وسلطة البرلمان الرقابية والتشريعية، والسلطة القضائية، وتمارس جميعها مهمّة الإدارة والتوجيه، الآني والاستراتيجي، على المستويين الداخلي والخارجي، وتأخذ هذه الممارسة للسلطة أحياناً مديات بعيدة، وخاصّة في توجهات السياسة الخارجية، فهي بهذه الخصوصية تمارس دور (دولة غير معلنة)، وهذا الدور اكتسبته نتيجة تغيرات طرأت على بنية الدولة العراقية منذ عام ٢٠٠٣، واستثمرها القادة الكورد، رغم تحديات كبرى قائمة حتى الساعة.

لإقليم كوردستان إذاً (منتظم سياسي) – سلطات وأبنية سياسية – لكن ما نوع السلطة؟ الجواب (سلطة أوليغاريشية) – أسرة حاكمة – ليست (توتاليتارية) ولا (ديمقراطية) مطلقة، فهي شبيهة ببعض الأنظمة الملكية القائمة في المنطقة. فالفلسفة التي تقوم عليها السلطة الأوليغاريشية الكوردستانية هي امتداد لذات الفكرة والفلسفة السياسية التي تقوم عليها الأوليغاريشيات العربية، مع بعض الفارق.

وتنشأ السلطة الأوليغاريشية عادةً في المناطق التي تشهدُ صراعات مستمرة وثورات متتالية، وأحياناً تخرج منطقة ما من ثورة مسلحة امتدت لعقود تكون نتيجتها الانتصار، دافعة نخبة للسيطرة على مقاليد

الحكم، سرعان ما تتحوّر إلى أسرة أو عائلة تواصل التحكم بالأوضاع السياسية والإدارية والاقتصادية متذرّعة بالشرعية الثورية.

والسمة الغالبة لجميع الأوليغاريشيات هي وجود كيانين متوازيين، سلطة ودولة، فالسلطة لا محالة تستلب الدولة، وحين تسقط السلطة بثورة داخلية أو عمل عسكري خارجي يسقط معها بنيان الدولة وينهار.

فالحديث عن نظام سياسي كوردستاني قائم، على غرار الأنظمة السياسية الغربية، محض ادّعاء، لأن جميع الشواهد والممارسات تثبت صحة نظرتنا المتقدّم ذكرها.

وحالياً يعيش إقليم كوردستان صراعاً سياسياً يأخذ أحياناً طابعاً عنيفاً باتجاه التغيير والتحوّل من السلطة الأوليغاريشية إلى نظام سياسي يكون دعامة نهضة أساسية لإعلان الدول المؤسساتية الكوردية في هذا الجزء من كوردستان والملحق قسراً بالعراق العربي.

هذا التحوّل المرتقب لا يكون إلا عبر الوسائل القانونية والمدنية المتاحة مع التعويل على عامل الزمن – تآكل شوكة السلطة – ازدياد تأثيرات ثقافة التمدن الحضاري على العقلية والوعي الكوردي.

ولا يجب أن نغفل أن أي تغيير وتحول في السلطة يبدأ من (التنمية) و(التحديث) السياسي، فهما النواة الأساسية لتلك العمليتين، فالتغيرات التي جرت على النظم الغربية، والتي استغرقت عدة قرون – تحوّل الملكيات المطلقة إلى دستورية، وإسقاط الأنظمة الاقطاعية، وإنهاء السلطة الثيوقراطية – استمدّت قوتها من قاعدة التنمية والتنشئة التي عمل على ترسيخ مفاهيمها لفيفٌ من الفلاسفة السياسيين، على رأسهم الفرنسي (جان جاك روسو) والإنجليزي (جون لوك). في مرحلة ما كانت تعرف بعصر التنوير (النهضة الأوروبية الحديثة).

وتضيق فرص هذا التحوّل في المرحلة والظرف الراهن لأسباب عدّة، بعضها مرتبط بالسلطة ذاتها، منها متانة القاعدة التنظيمية إلى جانب القوة المسلحة الداعمة والتحكّم بالثروة، ومنها ما هو مرتبط بالمحيط الخارجي، فيما يتعلّق بالمخاطر المحدقة بإقليم كوردستان عموماً.

ويخطىء من يظنّ أن التغيير بعيداً عن تلكم الوسائل يُسرّع من عملية التحوّل إلى نظام سياسي، ربما العكس، يمكن أن يؤدي إلى الفوضى العارمة، وضياع المكاسب المتحققة، مع بعض الاستثناءات❐

بلاي ستيشن

أم داعش دوت كوم؟

رولا حسينات - الأردن

من الغريب أن تصيبنا الحيرة في البحث عن طرق مبسّطة لتوضيح مفهوم العنف والإرهاب لأطفالنا، وهم يومياً يشاهدونه بثاً حياً ومباشراً على شاشات التلفاز، أو في أيّ من مواقع التواصل الاجتماعي.. وحقيقة أمرنا أنّا لم نفطن إلى أن نواة العنف والإرهاب كامنة في بيوتنا..

ولم يكن الشذوذ السلوكي إلا ترجمة لبيئة التربية السلوكية الشاذة للفرد، الذي في واقعه لم تَعُدِ الأسرةُ قادرة على توجيهه أو التعامل معه، بل بدوره حفّز الانحراف والتمرد على مفهوم القانون والرقابة واحترام

التقاليد، وكان مرجعية لسلوكيات جماعية حملت مسمّى (الإسلام المبتور)، إسلاماً بالهوية لا بالمعتقد، وهو أشدّ وبالاً على المنظومة القيمية المجتمعية من غيره، إذ لم يحمل في مضامينه أيّاً من المحاور التي قامت عليها العقيدة من تسامح وعقلانية وحوار واحترام للآخر، وقد ساهم بفرزٍ نوعيّ لأجيال متباينة الأفكار: جيلٌ من القائمين على التفرّد النوعي المميز للفرد، ضمن المنظور الوسطي، وجيلٌ حمل المنظور التطرفي، وقد أشرب من نوازع ظالمة، لتسمّى فيما بعد بـ (الإرهاب الإسلامي)، وإن لم يكن الإرهاب مقتصراً على الحركات المتطرفة التي ادعت إسلامها، بل كان الإرهاب المسيحي قبل ٨٠٠ عام في الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش، ولن نبتعد بالتاريخ كثيراً، فبين أيدينا الكثير من المجموعات المسيحية المتطرفة، ومنها: جيش الرب، البرق الشرقي، جيش مقاومة الرب، التي تضاهي بوكو حرام في إفريقيا، الجبهة الوطنية لتحرير تريبورا.. وهناك اليهودية المتطرفة، وعلى رأسها اليمين المتطرف، وحركة جماعة (غوش ايمونيم)، حركة حي فاكيام (الحي القيوم)، حركة هتحيا (النهضة)، جماعة أمناء الهيكل، حركة كاخ (عصبة الدفاع اليهودية)، حركة كهانا حي، مجموعة حشمونائيم، منظمة بيتار (منظمة الشباب التصحيحيين)، حركة (تسوميت)، أيْ: مفترق الطرق، ومنظمة يشفيات اتريت كوهانين..وغيرها كثير..

ما يعنينا هنا هو خطورة السعي الصريح لترويج مفهوم (فوبيا الأديان)، فالتطرف في اللغة: هو الوقوف في الطرف، وهو عكس التوسط والاعتدال، ومن ثم فقد يقصد به التسيب أو المغالاة، وإن شاع استخدامه في المغالاة والإفراط فقط. والتطرف كذلك يعني: الغلو، وهو ارتفاع الشيء، ومجاوزة الحد فيه.. والتطرف في الاصطلاح: يرتبط بأفكار بعيدة عن ما هو متعارف عليه سياسياً واجتماعياً ودينياً، دون أن ترتبط تلك المعتقدات بسلوكيات مادية متطرفة، أو عنيفة، في مواجهة المجتمع أو الدولة.

ويرى البعض أنّ التطرف يحمل في جوهره حركة في اتجاه القاعدة الاجتماعية أو القانونية أو الأخلاقية، يتجاوز مداها الحدود التي وصلت إليها القاعدة، وارتضاها المجتمع.

إن التفريق بين الإرهاب والتطرف هو مسألة جد شائكة، وذلك لشيوع التطرف والإرهاب كوجهين لعملة واحدة، ومع ذلك فالتفرقة ضرورية. ويمكن رسم أوجه الاختلاف بينهما من خلال النقاط التالية:

التطرف يرتبط بالفكر، والإرهاب يرتبط بالفعل، كيف ذلك؟

قلنا إنّ التطرف يرتبط بمعتقدات

وأفكار بعيدة عما هو معتاد ومتعارف عليه سياسياً واجتماعياً ودينياً، دون أن ترتبط تلك المعتقدات والأفكار بسلوكيات مادية عنيفة في مواجهة المجتمع أو الدولة. أما إذا ارتبط التطرف بالعنف المادي، أو التهديد بالعنف، فإنه يتحول إلى إرهاب. فالتطرف دائماً في دائرة الفكر، أما عندما يتحول الفكر المتطرف إلى أنماط عنيفة من السلوك، من اعتداءات على الحريات أو الممتلكات أو الأرواح، أو تشكيل التنظيمات المسلحة، التي تستخدم في مواجهة المجتمع والدولة، فهو عندئذ يتحول إلى إرهاب. التطرف لا يعاقب عليه القانون، ولا يعتبر جريمة، بينما الإرهاب هو جريمة يعاقب عليها القانون. فالتطرف هو حركة تجاه القاعدة الاجتماعية والقانونية، ومن ثم يصعب تجريمه. فتطرف الفكر لا يعاقب عليه القانون، باعتبار هذا الأخير لا يعاقب على النوايا والأفكار، في حين أنّ السلوك الإرهابي المجرم، هو حركة عكس القاعدة القانونية، ومن ثم يتم تجريمه. يختلف التطرف عن الإرهاب أيضاً من خلال طرق معالجته، فالتطرف في الفكر، تكون وسيلة علاجه هي الفكر والحوار. أما إذا تحول التطرف إلى تصادم، فهو يخرج عن حدود الفكر إلى نطاق الجريمة، مما يستلزم تغيير مدخل المعاملة وأسلوبها. والإرهاب بذاته تهيئة منطقية لمفاضلة السلوك، التي تتبنى تصوراً منطقياً في أجندتها عديمة الرحمة، في إنهاء وجود الإنسان بذاته، وتقتيل المسلمين والأبرياء علانية في أرض الله، ثم ترويع الآمنين في عقر بلادهم، فلا تفرقة للغة الموت بين المساجد والصوامع والمعابد والمناطق السكنية ومسالك الحياة، ضمن أطر ضيقة من الحكم والقضاء في التطهير العرقي، وهي أبعد ما تكون عن الرسالة السماوية، التي منحت البشرية السعادة والخير والإنجاز والإبداع، فلا علاقة لها بإرهاب لا دين له ولا هوية ولا وطن.

وهذا بيت الداء.. فالألعاب الأكثر وحشية وإراقة للدماء، هي الأوسع انتشاراً عالمياً في النسخ المتطورة من البلاي ستيشن والإكس بوكس وغيرها، من أدوات تقدّمُ فناً غير مألوف، بارعاً في فن التحايل على البرمجية النفسية للطفل، والمحفزة لخلايا السلوك العدائية، بل والتلاعب في نواة الفكر، فغدت قادرة على مسح الشيفرات الوراثية، وحتى المكتسبة، لمعاني السمو الأخلاقي والفكر العقائدي الصحيح، واحترام التاريخ والحضارات، بل وقبول الآخر، فكراً ومعتقداً. فتلك الساعات الطويلة التي يقضيها الطفل أمام المعلم الأول والوحيد لمفهوم البطولة المطلقة وحق تقرير المصير، لم تكن في الواقع هدراً أو مضيعة للوقت، بل استثماراً رخيصاً بالاتجار بالفكر،

بعد أن غدا الاتجار بالبشر وأعضائهم إلى بوار.

فقد أصبح حق الحرية وتقرير المصير لذاته الفردية، ولقرينه، وقبيله، أمراً مفروضاً، لا حقّاً مشروطاً.. وإن كانت هذه البيئة التربوية للطفولة البريئة التي قد نزع منها صمام الأمان، وقد شبّ فيها الطفل وترعرع في حضن العنف والخطيئة، وبعد أن كان منهمكاً في القضاء على مجموع الأعداء، أو الأفراد، بمنظومة افتراضية، أصبح له العالم عدواً مفترضاً، بعد أن خرج من شرنقة الوصاية مبكراً، حاملاً جين الإرهاب، مهيئاً تماماً للتجنيد، وبيئة خصبة لتلقي الإملاءات الموجهة للسلوك الإجرامي، وترديد ما يؤمن به العقل الباطن من مفاهيم مبهمة، لكنها ذات دلالات إيمانية قد استُغلت بحذاقة، لتوليف السلوك نحو الهدف، واستئصال نزعة الخوف ورفض المجهول، كضرورة للخلاص والتطهير.

فلم يعد العدو محتملاً، بل واقعاً ملموساً، ولم تعد فكرة البطولة المطلقة حلماً، ولم يعد حمل السلاح جرماً بل تقليداً للرجولة، ومن ثم لم يعد للمشهد العام من المجازر والقتل والاغتصاب والتطهير العرقي أيَّ وقع في المنظومة العاطفية، بل لم تكن لتؤثر بهم أو تعنيهم، فمفهوم الضحية لم يعد مفهوماً يعنيهم، بقدر ما يعنيه مفهوم المخلص أو المنقذ..

فأين هي التربية التوعوية من كل هذا؟؟ وتسليط الضوء قد غضّ البصر عن الجرثوم أو الفيروس المتفشي داخل البيوت، بل وقد أغفله تماماً، ليفرض نهجاً جديداً فضفاضاً في تقليص مفهوم التربية الدينية فكراً وسلوكاً..

فالعقول الغضة صار فكرها داعشياً، وحزاماً ناسفاً قد تفنن في حفظ أنواع الأسلحة وجاهزيتها وقدرتها القتالية، وعدد قذائفها وعتادها، بدلاً من النحيب على الضحايا الذين سقطوا من نارها وبشاعة ويلاتها.

وغدت رخصة اختراق الحصون والاعتداء على المؤسسات العامة، والسرقة والنهب، بل الاعتداء على رجال الشرطة وقتلهم، والتخفي بملابسهم، نمطاً سلوكياً مجازاً ومقبولاً من مجموع الأفراد المتمردين.. فلم نعد بعد هذا كله بحاجة إلى حبوب هلوسة، بل أصبحت لعبة ثلاثية الأبعاد، لا حدود لها، ولا وقت لإيقاف تشغيلها، أو حتى GAME OVER..❐

التصوف السياسي (الحلولي):
من (الحلاّج) إلى (غولن)

د. سنان أحمد

ينتشر الإلحاد يوماً بعد يوم كانتشار النار في الهشيم، خصوصاً في المجتمعات غير الإسلامية، وذلك لضعف عقائدها وتصوراتها عن معنى الخالق والمخلوق، وللغرور الذي أصاب البشر باعتقادهم أنهم أسياد الكون. وأما في الإسلام، فإن الباب أمام الإلحاد يكاد يكون موصداً، نظراً لوضوح النص القرآني بشأن التوحيد الذي لا يقبل التأويلات الفاسدة، مما دفع الساعين إلى نشر الإلحاد بين المسلمين إلى سلوك طرق ملتوية، بدأوها بنشر أفكار الحلول والاتحاد ووحدة الوجود تحت غطاءِ أنّها من التصوف، وهو ادعاء باطل.

والحقيقة أن بذر عقيدة الإلحاد بين المسلمين كان هدفاً سياسياً من أهداف الحركة الباطنية – الإسماعيلية، التي حاولت تقويض الفكر الإسلامي الواضح بكافة السبل، وهي في الأصل حركة شعوبية خالصة، أصلها كراهية العرب والمسلمين وتقويض ملكهم. وهي الوليد اللاشرعي لحركات الغلو والزندقة، بعد أن فشلت مساعيها في مقارعة الفكر الإسلامي، فحاولت إرجاع أديان فارس القديمة، كالمانوية والمزدكية والمجوسية، والتي توجد قواسم مشتركة بينها، كتقديس النار، وثنوية النور والظلام، والإباحية، وصولاً إلى الإلحاد، والمشاعية.

وكان التأويل القسري الباطني للقرآن من أول الأبواب نحو غاية الإلحاد، التي اتخذت وسائل عديدة. والتأويل القسري يعتمد على

مبدأ أنّ لكلّ ظاهر باطناً، وأنّ العمل بالباطن هو للخاصة، والعمل بالظاهر للعامة! علماً أنّ مصطلحي (العامة والخاصة) من المصطلحات الدخيلة على الفكر الإسلامي، فالإيمان بالله، والتصديق، ليس من الأمور الخاصة، وهو يناسب البشر ككل، دون تمييز بينهم.

يقول (ابن الجوزي) عن (الإسماعيلية) إنهم لما عجزوا عن صرف الناس عن القرآن والسنة، صرفوهم عن المراد بهما إلى مخاريق زخرفوها: فمعنى (الغسل) تجديد العهد على من فعل ذلك، ومعنى (الزنا) إلقاء نطفة العلم الباطن في نفس لم يسبق معه عقد العهد، و(الصوم) الإمساك عن كشف السر... إلخ. وكانت هذه المفاهيم تتغيّر بتغيّر الزمان والمكان، وبالاعتماد على عقلية المخاطبين بهذا المنطق الأعوج، وكان للدعاة حق الاجتهاد بالتأويل، فإذا وجدوا قوماً يتبرّمون من (الزكاة)، قالوا بأنّ الزكاة تعني بثّ العلوم لمن يتزكّى لها، وأمّا (الحج) عندهم فهو لقاء الإمام الإسماعيلي، وتمام الحجّ مشاهدة الإمام... إلخ.

ثم ادعوا ألوهية أئمتهم، كما قال (ابن خلدون)، وقالوا: "إنّ كمال الإمام لا يكون لغيره، فإذا مات انتقلت روحه إلى إمام آخر، ليكون فيه ذلك الكمال".

وهذه التأويلات لم تكن اعتباطية، وكانت مرسومة بدقة وذكاء، وتصبّ في غاية عليا، هي تهيئة العقول لتقبّل الأفكار الثنوية، ومن ثم تقبّل الإلحاد بالله الواحد الأحد. وإنّ كان الإلحاد هنا لا يعني إنكار فكرة الخالق المتفرّد، ولكن تقديمها بشكل لا يختلف عن الإنكار المباشر، ونسف فكرة أنّ (الله خالق كل شيء)، وهو المتفرّد بكل شيء، وليس كمثله شيء من خلقه.

على هذا النسق تمّ زرع الأفكار التي مهدت لانتشار الإلحاد، وهي أفكار الحلول والاتحاد ووحدة الوجود. حيث يعني الحلول والاتحاد استغراق المخلوق بالخالق، أو حلول الروح، وتنقلّها بين أجساد مختلفة. وهي من الأفكار الواضحة في المجوسية والهندوسية والبوذية، والمبهمة في المسيحية، من خلال عقيدة التثليث. حيث الإله يظهر بشكل إنسان، والأخير هو ابن الإله، الذي ضحّى به من أجل البشر!

وأمّا وحدة الوجود، فهي ترسيخ لفكرة: لا وجود في الحقيقة إلا للإله، وكلّ شيء ما عداه يعدّ مظهراً من مظاهره، وليس مخلوقاً مِن قِبَلِهِ، وكلّ ما في الوجود من جماد وحيوان وإنسان ونبات يشكّل وجوداً مبهماً لشيء واحد.

وعليه، فالحلول والاتحاد ووحدة الوجود من أخطر ما أدخلته الباطنية والغلاة في سعيهم لتدمير فكرة الخالق والمخلوق، وإلغاء الفوارق بين الله – جلّ شأنه – كخالق، والإنسان كمخلوق، أو أنّ الله روحٌ والعالم جسم لهذه الروح، وخلط الخير بالشر، والكفر بالإيمان، كمفاهيم مختلفة لمظهر واحد، وبالتالي طمس قدرة الله المطلقة، ليصبح كائناً بصفات مبهمة.

وكان من أبرع من صاغ هذه الأفكار، تحت ستار التصوف الحلولي (السياسي) هو (الحلاّج) (ت ٣٠٩ هـ)، والذي أثبتت إسماعليته وانتماءه للقرامطة كل الدراسات الجادة التي تناولت سيرته بعيداً عن العواطف،

فقال بأنّ معنى (لا إله إلا الله) كلمة شغل بها العامة لئلا يختلطوا بأهل التوحيد. ثم زعم أنه من يوحّد الله فقد أشرك، وقد تناولنا الموضوع بالتفصيل في كتابنا المعنون (أسطورة الحلاّج – قراءة في التصوف السياسي)، وقد اخترنا هذا المصطلح لكي لا يعتقد القارئ بأننا نهاجم التصوف ككلّ، وعن تعصب، وإنما لاقترانه هذه الممارسات بغايات سياسية تحت غطاء عقائدي، كما ذكرنا آنفاً.

لقد كان (الحلاّج) بارعاً في خلط المفاهيم، حيث قال: "من فرّق بين الكفر والإيمان فقد كفر، ومن لم يفرّق بين الكافر والمؤمن فقد كفر. وإنّ الكفر والإيمان ليفترقان من حيث الاسم، وفي الحقيقة لا فرق بينهما".

ففي مسألة العقيدة يتهم بالكفر من يفرّق بين الكفر والإيمان، وهي مسألة في غاية الإبهام والغموض. وفي مسألة التطبيق، يبدو الأمر معكوساً تماماً، وكل ذلك يصبّ في بلبلة الأفكار، والاقتراب بها نحو المبهمات، فتنمو أفكار الشك والريبة، ويكون المرء أقرب للإلحاد منه للإيمان.

إنّ خلاصة العقيدة في الإسلام تعني التسليم لله، والإيمان به إيماناً مطلقاً، وعدم تجاوز فكر المخلوق – أياً كان – على قدرة الخالق، الذي ﴿ليس كمثله شيء﴾. وإن أيّ ارتباط بالخالق بوشائج خارج العبادة والتفكير والتأمل والذكر، أمر يرفضه التوحيد الخالص. فالله تعالى قريب من كلّ عباده بشكل لا ندركه، وهذا من عظمته ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾، وهذه المسألة تنفي الاتحاد والحلول التي ادّعاها أقطاب التصوف الحلولي، فالله قريب من كل عباده بطريقة لا ندركها. وهنا تبرز أفكار الحلول والاتحاد كأفكار سوداوية تحطّ من قدرة الخالق المطلقة، وتلغي انفرادية المخلوق وخصوصيته، ولذلك فشلت حركة (الحلاج)، وما شابهها من حركات، داخل الوسط الإسلامي، رغم كل المحاولات التي جرت – ولا تزال– لإحيائها.

لقد دخلت هذه الأفكار إلى المسيحية، فجعلت من ما يسمّى بـ(علم اللاهوت) مجرّد تخبطات وأوهام تستند إليها المسيحية في معتقداتها. ولذلك يجب أن يتوقف مفكرونا عن استخدام هذا المصطلح المبهم، واستبداله بـ(علم الإلهيات)، وعدم ربطه بما يسمّى بـ(الناسوت)، فهذه كلها مصطلحات دخيلة لا وجود لها في الفكر الإسلامي الأصيل.

وعلى هذا النسق حاول (الحلاّج)، و(الشلمغاني)، و(ذو النون المصري)، و(يحيى بن حبش السهرودي)، ومن سار على نهجهم، جعل (التصوف الحلولي) ديناً منشقاً

عن الإسلام، هدفه البعيد الإلحاد، ونسف الدين، ومرّت على الكثير من المفكرين والمتصوفة على أنها شطحات ليس إلا، وهي تفسيرات متهافتة وساذجة، تركت جراحاً بليغة في الفكر الإسلامي، ولا يزال يردّدها كثير من المسلمين إلى أيامنا هذه، عن جهل بفكرة التوحيد الأصلية.

فها هو (جلال الدين الرومي) (ت ١٢٦٧ م) يسير في هذا الطريق، ويبرّر أفعال (الحلاج)، وأقواله، بقوله: "إن قلب الصوفي هو موضع إرادة الله"، وهو افتراض لا معنى له، يقترب من الشرك بالله أكثر من اقترابه من الإيمان والتسليم له، وفيه من العاطفة اللاواقعية الشيء الكثير، وربما نتج عن الطريقة التي أعدم فيها (الحلاج)، فكثيراً ما يكتسب الذين يُصْلبون تعاطفاً وسمعة لا يستحقّونها، لمجرد العاطفة، وهناك من يقف خلف أفكارهم، ويستغل الحدث لترسيخ مظلومية كاذبة.

يقول (الحلاج):

لي حبيب حبُّه وسْطَ الحشا
لو يشأْ يمشي على خدي مشا
روحه روحي وروحي روحه
إنْ يشأْ شئتُ، وإنْ شئتُ يشا

والكفر واضح في هذه الأفكار وضوح شمس الظهيرة، وليست مجرد شطحات، حيث هذه الكلمات مطاطية. وجعل (الرومي) من (الحلاج)، ومن أقطاب الصوفية الحلولية، أشخاصاً معصومين، وهو تأثير واضح من تأثيرات الباطنية، حيث لم يدرك كثير من المتصوفة المرامي الإسماعيلية الباطنية من وراء نشر تلك الأفكار، التي غطّتها بغطاء التشيع لآل البيت، فتأثر (ابن عربي) (ت ٦٣٨ هـ) بـ(الحلاج) واضح جداً، ولذلك ظهر علينا بفكره الفاطمي، وذهب (جلال الدين الرومي) لأبعد من ذلك، عندما اعتبر نفسه مهدياً، واعتبر أنّ الله يظهر في سيف (علي) مخلوطاً بأفكار الاتحاد والحلول، فيقول عن الله "في كل نفس يظهر ذلك الصديق في ثوب جديد، فشيخاً تراه، وشاباً تراه أخرى، ذلك الجميل فتّان القلوب، قد ظهر بصورة سيف في كفّ (علي)، وأصبح البتّار في زمانه، لا بل هو الذي ظهر في صورة إنسان، وصاح: أنا الحق"!

وحتى الإمام الغزالي (ت ٥٠٥ هـ)، ورغم تأليفه لكتاب (فضائح الباطنية)، الذي فنّد فيه كل مزاعم الإسماعيلية، إلا أنه لم يتنبه للدافع السياسي للحلاّج، ومن سار على نهجه، واعتبر أفكاره شطحات. وكذلك الإمام عبدالقادر الكيلاني (ت ٥٦١ هـ) الذي قال: "لو عاصرت الحلاّج لأخذت بيده"، وكان على اعتقاد خاطئ كبير في هذا المجال.

وكما أشرنا فإنّ هذه الأفكار كانت مدسوسة على الفكر الإسلامي عن تعمد وقصد، وليست شطحات عن حسن نية، بل غايتها القصوى نسف التوحيد، وبذر أفكار الإلحاد، من خلال تنظيمات تدعي أنها إسلامية، أو تمثل تيارات إسلامية معينة، والقضاء على الكيان الإسلامي ككل.

* * *

بين (الحلاّج) و(غولن)

هذه الدراسة ما هي إلا محاولة للربط بين شخصيتين تماثلت تصرفاتهما، من خلال امتلاكهما لمواهب الظهور بوجه ديني – صوفي بادٍ للعيان، والآخر سياسي باطني: الأول لا غبار عليه في الظاهر عند معظم المسلمين، والثاني ليس من السهل تلّمسه إلا بالقراءة المتأنية والعميقة لسيرتهما، رغم الفارق الزمني الهائل بينهما. وكذلك فهي من بنات الأفكار التي أخذت مكانها في واقعنا الإسلامي بعد أحداث انقلاب ١٥ تموز في (تركيا)، وما تركه، وما سيتركه، على مجمل التاريخ، في ثناياه العالمية والإسلامية والتركية.

فالغطاء الديني للحركات السياسية أمر موجود على مدار تاريخنا الإسلامي، وبأشكال مختلفة. وقد كان أحدها إدخال أفكار غريبة عن الدين، مثل أفكار التصوف الحلولي، أيْ الإيمان بالحلول والاتحاد بالله، ووحدة الوجود (أيْ: لا وجود حقيقي إلا لله)، وما تنبعث من تأويلات غريبة عن جوهر الدين الإسلامي، وهي من أهمّ الأبواب لتحقيق مآرب سياسية باطنية من قبل حركات منظّمة بدقّة وبسّرية بالغة، ولعلّ أشهرها الحركة الإسماعيلية الباطنية، وجناحها العسكري (القرامطة)، الذين نجحوا في تأسيس دولتهم في شمال أفريقيا، ثم في (مصر) عام ٢٩٧ هـ، وقاموا بغزو (مكة المكرمة) عام ٣١٧ هـ، وقتل الحجيج، وتدنيس الحرم، ثم سرقة (الحجر الأسود)، بعد كسره، وبقائه لمدة ٢٢ عاماً، قبل أن يعيدوه لمكانه! ولذلك نؤثر أن يسمى هذا الاتجاه من التصوف بالتصوف الحلولي – الباطني (السياسي)، وهو غير تصوف الزهد القائم على القرآن والسنة.

لقد أثبتت الدراسات المعمقة أنّ (الحلاّج) (ت ٣٠٩ هـ)، والذي يعتبره الكثيرون من متصوفتنا وأرباب الفكر شهيد التصوف الأول، ما هو إلا واحد من أكبر دعاة التصوف السياسي، ومنظّريه، والذي انطلت باطنيته على جوهر مراميه السياسية، وذلك بهدم الدين من داخله، وباسمه، ويتغاضون عن

مقولته الشهيرة: (أنا الحق)، وقوله للشيخ جنيد البغدادي، عند سماعه للقرآن: "أستطيع القول مثله". إنّ عدم النظرة بشمولية لأي شخصية متعددة الجوانب، يقود لتكريس النظرة العاطفية عنها، خصوصاً إذا كانت نهايتها كنهاية (الحلاّج)، حيث جلد، ثم صلب، وقطّعت أطرافه، ثم تختلط العاطفة بالغموض، فتخرج هذه الشخصيات التي تقف وراءها تنظيمات سرية دعائية منظمة إلى أقصى حد. فـ(الحلاّج) الذي لبس خرقة التصوف، كان يمشي في الأسواق، ويصيح بأصوات عالية بجمل مبهمة تدلّ على أنه مجذوب لله، ثمّ يسقط على الأرض، فيلتفّ حوله العامة حائرين مندهشين، فتغلب هذه الصورة المثيرة على كلّ ما خلفها من مآرب أخرى.

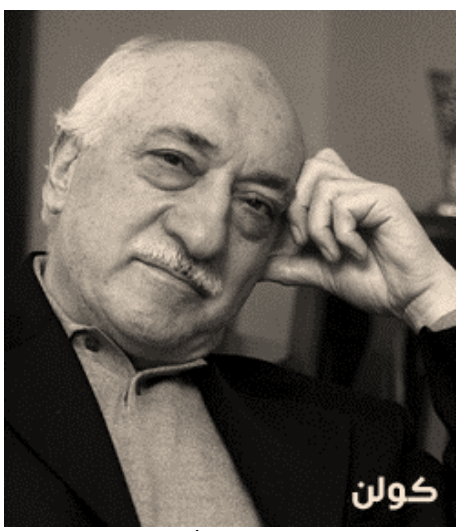

وكان (الحلاّج) يحرص على عمل الخوارق والمعجزات أمام العامة، وهي في حقيقتها حيل وألاعيب مدبرة، فلا يستطيع أيّ بشر إتيان الخوارق والمعجزات إلا الأنبياء، وبإذن ربهم، ولكن العامة يصدّقون، والمفكرون يبرّرون كل شيء، بالاستناد للعواطف ولا غير.

و(الحلاّج) أقام كعبة صغيرة في بيته، وأشاع بين أتباعه بأنه يمكن الاستغناء عن الذهاب لمكة، وتجنب عناء السفر، مع أنه ذهب أربع مرات لمكة، مع المئات من أتباعه، في رحلات دعوية لمذهبه الباطني، ناهيك عن تطوافه في إيران وخراسان والهند، واتصاله بمانوية الهند، ومن بقي على المجوسية من الهنود. وبعد أنّ ركّز وجوده العقائدي، أخذ يبث الأفكار الغريبة، من خلال أشعار غزلية رقيقة، وهي أفكار الحلول والاتحاد ووحدة الوجود، كما ذكرنا آنفاً. ثمّ تدّرج نحو مرتبة أعلى، بجعل إبليس سيّد الموّحدين، وفرعون في أعلى مراتب الفتّوة. فيقول في (كتاب الطواسين) بأنه ما كان في السماء موحّد مثل إبليس، وهو أمر مخالف لكلّ الآيات القرآنية في هذا المجال مخالفة صريحة.

فسيّد الموحّدين هو (محمّد) (صلى الله عليه وسلم)، وأما إبليس – وكما هو معلوم – فقد توعّده رب العالمين بجهنّم، هو وأتباعه، لأنه لم يسجد استكباراً بادعائه بأنه خلق من النار، والنار أسمى من الطين، فكيف يعذّبُ اللهُ سيّد الموحّدين، وقد جعله رمزاً للشر والآثام.

فدعوة (الحلاّج) باطنيّة، أصلها الرجوع للمجوسية، وهي الهدف الأسمى للحركة الشعوبية، التي لبست ثوب الإسماعيلية، بنصرة تيار معيّن من آل البيت.

وفي دراسة معمّقة لتحركات (الحلاّج) ثبت أنه كان على صلة بزعماء القرامطة الكبار في سعيهم لضرب الخلافة العباسية،

وقد قال عنه (ابن النديم) (ت ٣٨٥ هـ) في (الفهرست): "كان الحلاج محتالاً مشعبذاً يتعاطى مذاهب الصوفية، ويظهر مذاهب الشيعة للملوك، ومذاهب الصوفية للعامة، وأنه يروم قلب الدول".

والحقيقة أنّ هذه الشخصية غامضة، تظهر التصوف، ومراميها سياسية.

وفي الوقت نفسه كان عبقرياً، لاستطاعته الربط بين متغيرات وغايات متباينة تحت غطاء ديني، وبشكل غاية في الإثارة.

والملاحظ المدقق لحركة السيد (فتح الله غولن)، وشخصيته، يرى فيها سمات دعوية سرية قريبة من سمات (الحلاج)، وحركته، كما أثبتت ذلك الدراسات الشاملة، وليست الدراسة العاطفية السطحية.

فالشيخ يدّعي أنه يمثل حركة (النورسي)، وأفكاره، علماً أنّ المدقّق لحركة النورسي لا يرى فيها ذلك مطلقاً، سوى بعض الاستعارات الفكرية الإسلامية العامة، التي تنطبق على مجمل الفكر الإسلامي. فهو قد استخدم حركة الشيخ (النورسي)، وأفكاره، وشهرته، لاستدراج العامة، كما استدرج (الحلاّج) العامة بلبسه خرقة التصوف، وادعائه أنه يمثّل خط الشيخ (جنيد البغدادي).

ففي محاضراته الصوفية، التي يصاحبها العويل والبكاء والانفعال، عند ذكر بعض المعجزات والخوارق، أو حبّ الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وصحابته، يشابه ما ذكرناه عن (الحلاج)، حيث يثير جمهوره بشكل عجيب، ثم يدّعي في أحد دروسه، وخلال انفعاله، بأنه يشعر بأن ركبتيه تلامسان ركبتيّ رسول الله، ثم يقول للحاضرين والدموع تنهمر من عينيه، وبانفعال من الوجد: "أغمضوا عيونكم، وقدّموا ركبكم، فستحسّون أنها تلامس ركبة الرسول (صلى الله عليه وسلم). بالله أنا دخيلكم، تجاوزوا المسافات، فالنجاة فيه"، وهنا يعلو الصياح والانفعال في المسجد، ولا تسمع إلا أصوات النحيب والبكاء!

وفي وعظ ديني آخر يبلغ ذروة الانفعال مع مريديه، عندما يروي لهم قصة صحابي لا يشعر بفقدان ساقه في المعركة إلا مساءاً قبل أن ينام، فيزداد الهرج والمرج، وتعلو أصوات النحيب.

إنّ هذا الوجه الانفعالي يغوص داخل النفوس البسيطة، ويفعل فعله السحري لديهم، فالعامة ينجذبون لكل عجيب وغريب، حتى لو كان من الخيال، وهي أسس الأساطير وانتشار الخرافات.

أما في مجال التأويلات الفاسدة، فهنالك الكثير: فيقول، مثلاً، بشأن الآية ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئا﴾ ٦٤ آل عمران، بأنّ (أهل الكتاب)، في الآية، ليسوا اليهود والنصارى، بل هم المثقفون، والذين يعرفون القراءة والكتابة، لأنه ليس من الضروري أن يؤمن اليهود والنصارى بمحمد (صلى الله عليه وسلم)، ورسالته. ويقول: "فالقرآن لا يقول لهم أنا أدعوكم للإسلام، ولا يقول اتركوا ما تؤمنون به". وهو انحراف مفتعل عن حقيقة التوحيد والاقتراب نحو فكرة وحدة الأديان، والتي عزّزها عند لقاء البابا السابق، وقال له بنص العبارة: "نحن في خدمتكم"، وفي هذا الكلام خلط متعمد بين رسالة الإسلام، من حيث هو دعوة عامة للناس كافة، وبين ترك حرية الاختيار: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾.. ولكن محبيّه يفسّرون الأمر بمسألة (حوار الأديان)، والذي لم يكن يوماً إلا حوار طرشان!

وعليه، فمهما حرص الإنسان على كتمان بواطنه، فلا بد أن تظهر في ساعات اللاوعي والانفعال بواطن ما يخفي، فموقفه مائع جداً من مشاكل المسلمين، وملفت للنظر، كوصفه لرحلة (سفينة مرمرة) بأنه تمرّد، وبكائه في درس الوعظ على أطفال إسرائيل، عندما ضرب العراق عام ١٩٩١ م إسرائيل ببضعة صواريخ، لم تكسر إلا بعض الشبابيك والأبواب، بينما لم يحرّك ساكناً، ولا ذرف دمعة واحدة، على أطفال (غزة)، عندما قتلوا بالمئات، وبالقنابل الفسفورية، عام ٢٠٠٨م.

وفي مشهد آخر يوصي أتباعه بعدم وصف المحتجّين، الذين قلبوا السيارات وأحرقوها عام ٢٠١٣ في (ميدان تقسيم)، في (إسطنبول)، بالمخرّبين، فهؤلاء سيكونون أبطالاً مثل (خالد بن الوليد) في يوم من الأيام! ولا ندري ما هو وجه المقاربة؟! إنّ كون الشيخ واجهة لمؤسسة سرية ضخمة أمر له ما يبرّره، فهو قد صعد بعد انقلاب ١٩٨٠ صعوداً غير طبيعي، ليصبح صاحب أكبر مؤسسة تعليمية، من مدارس وجامعات وصحف وقنوات تلفزيونية، وقبلها كان يعرف نفسه بين الشباب كداعية إسلامي على خطى (النورسي)!

علماً أنّ القوى الإسلامية قد عانت الأمرّين من هذا الانقلاب العسكري، وقبل ذهابه إلى منتجعه الرائع عام ١٩٩٧ في الولايات المتحدة، قال بأنه مستعد للتنازل عن كل ما يملكه للمؤسسة العسكرية!

وفي مشهد آخر معروض على (اليوتيوب)، يعبّر عن سريّة منظمته بالقول "إنني أتكلم بسريّة، وهو يصرّ عليها"، ثمّ يطلب من أتباعه الحرص عليها، والعمل على السيطرة على الأماكن الحساسة في الدولة، وفي العمق، ومصادرة مصادر القوة. ثم يقول: "ولذلك فنحن نعرف المخاطر والتهديدات التي تواجهنا، ويجب العودة للوراء عند الشعور بذلك، دون ترك أيّ أثر". وهذا الكلام ليس عرضياً، ولا يصدر إلا من منّظر لمسألة عميقة، وتنظيم عال في الدقة، كالتنظيم الباطني الإسماعيلي، والذي قال عنه المؤرخ (برنارد لويس)، ذي الميول الصهيونية، بأنّ (الماسونية) أخذت تعاليمها

منها. وفي مكان آخر يقول بأننا نعيش في عصر الفراعنة، ولذلك يجب السيطرة على النظام في تركيا، وتغيير الدستور، وأن ما يحدث ما هو إلا تصفية الحساب مع العالم بأجمعه، مما يدل على عالمية تنظيمه، ومن يقف وراءه.

وموقفه من الحل السلمي المعارض للمسألة الكوردية معروف، ودعوته لما يسمى بالإسلام التركي، والإسلام الاجتماعي، تارة أخرى، دعوات لا تتوافق مع نزعته الصوفية المملوءة بكاءاً ونحيباً وانفعالاً.

وفي معرض إبعاد الشبهات السياسية عنه وعن حركته، يقول ما معناه: لو أنّ جبريل (عليه السلام) أسّس حزباً سياسياً، ودعاه إليه، لرفض ذلك. وهو تطاول على جبريل (عليه السلام)، والثوابت الإسلامية، لا معنى له.

بينما يوصي أتباعه، في مكان آخر، بالعمل الدؤوب حتى يجدوا الأرضية المناسبة للقضاء على الفراعنة. وأغرب ما لاحظناه في هذا المجال، ما تمّ عرضه في قناة (الجزيرة) يوم ١٤ /٨/ ٢٠١٦ من مكالمة هاتفية لأحد المقرّبين منه، يخبره فيه أنه رأى الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الحلم، ويطلب منه زيادة التواصل الاجتماعي مع الناس عبر الانترنت، وزيادة تغريدات أتباعه التي تصب في مجال دعوته، فيؤيّده الشيخ، ويقول له "فليكن"، وهذا النوع من الكذب معروف لدى من يدّعون الصوفية، وكل من يريد تبرير أعماله وأقواله بنسبتها للرسول (صلى الله عليه وسلم).

وعلى كلّ حال، فإن ما نرمي إليه ليس إلقاء التهم بسبب العاطفة، ولكنها دعوة لمثقفينا ودعاتنا، الذين ينخدعون بظواهر الأمور، وعدم الغوص في الخفايا وبواطن الأمور، فكما انخدع الكثيرون وإلى الآن بصوفيّة الحلاّج، فاليوم نرى على صفحات الانترنت كيف ينخدع من يصفون أنفسهم بالدعاة ببكاء ونحيب (غولن)، ويفرحون جداً بأن الإسلام بخير، والغريب أن قسماً منهم سلفيون للعظم، ويكرهون كلّ ما يمّت للتصوف بصلة، ولكنها السطحية الثقافية، والعواطف، التي تسوقنا إلى الأحكام الساذجة، التي تسهّل لهذه الشخصيات تمرير مخططاتها، وخلط الأوراق على الناس.

وهكذا فالعامل المشترك لهذه الشخصيات هي امتلاكها لأكثر من وجه، وبسيناريوهات محكمة، تتبدّل بتبدّل الزمان والمكان، وتلك عبقرية يجب الاعتراف بها❐

ملاحظات عن الاستشراق

عمر محمد
باحث في: Centre d'ÉtudesTurques, Ottomanes, Balkaniques et Centrasiatiques
باريس، فرنسا

إن كتاب (الاستشراق) لـ(إدوارد سعيد) حوّل "الإستشراق" إلى "كلمة قذرة".
(البرت حوراني)

حين يُدرَس الاستشراق كظاهرة معرفية أدّت إلى إعادة قراءة التاريخ الإسلامي، ومعرفة أجيال المستشرقين، والتثاقف الذي حدث داخل هذه المنظومة المعرفية، لا يمكن بأيّ حال موافقة (سعيد) في طروحاته، أو طروحات من استقبلوا (سعيد) – الذي حوّل الاستشراق إلى مؤامرة تهدف لنزع الإسلام من المسلمين – الذين عجزوا حتى عن مشاركة المستشرقين في أهمّ عمل للاستشراق، وهو (دائرة المعارف الإسلامية)، التي لم يشترك بها من المسلمين سوى الترك. وعن ذلك يقول Gustave E. von Grunebaum: "فقط الترك من بين المسلمين نجحوا في التكيّف مع التدوين التاريخي الغربي"، في حين كان تلّقي المسلمين للاستشراق مرتبطاً فقط بالاستعمار، وإنّ الاستشراق ما هو إلا أداة بيد المستعمر لتدمير الإسلام والمسلمين. إن المواجهة الحقيقية مع الاستشراق ليست في اتهامه، بل

في مراجعة ما كتبه الاستشراق علمياً، واستناداً إلى أدوات معرفية رصينة.

والذي لا يعرفه المسلمون أنّ المستشرقين أنفسهم كانوا يوجهون النقد لنتاجاتهم، وإنّ هناك قاعدة لدى المستشرقين، وهي "إنّ الاستشراق يتقدّم ويتطّور فقط من خلال النقد والتشكيك بما ينتجه المستشرقون، وليس من خلال الموافقة والتأييد".

يبدو الاستشراق، بوصفه مفهوماً لتطور الدراسات الغربية للشرق، ملتزماً بأن يكون (استشراقاً) يدرس الإسلام كهدف أولي له، كنمطٍ معرفيّ، وإهمال كلّ جوانب العالم الممتدّ من شرق أوربا الغربية حتى الصين – المجال الحقيقي للدراسات الاستشراقية القديمة –، ومع تطّور الأكاديميات ووصولها إلى أمريكا، وإلى الشرق ذاته، أصبح مصطلح (الاستشراق) بحاجة إلى إعادة نظر جادة، بعد خلّو المصطلح من قيمته التي وضعها به (إدوارد سعيد)، حين حدّد الإسلام كمقابل للغرب.

ويمكن النظر إلى مفهوم الاستشراق من جوانب عدة:

أولاً: البعد الجغرافي:

في متابعتي للدراسات الاستشراقية، والأكاديميات الغربية، التي تعتبر رائدة في (الاستشراق)، لا يظهر (الشرق) الذي طرحه (إدوارد سعيد)، هو المجال الوحيد للدراسات، بل يتعدّى الأمر إلى أبعد من ذلك بكثير، حتى ليبدو هذا (الشرق) مجرّد حقل ضمن عشرات الحقول، ولم يعد الشرق هو (الشرق الإسلامي) فقط، بل هناك شرق أوروبي لأوروبا نفسها، وشرق أمريكي لأمريكا، وشرق بريطانيّ لبريطانيا، وشرق روسيّ لروسيا، فما هو الشرق بالتحديد المقصود في الاستشراق "طلب الشرق"؟

ثانياً: البعد المعرفي: رغم تواجدي الجديد في (فرنسا)، إلا أنني استطعت، وبعد القراءات النظرية السابقة عن المؤسسات الاستشراقية، أن أتداخل مع مستشرقين فرنسيين، وأكاديميات (استشراقية)، يصعب كثيراً إطلاق هذا المصطلح عليها، يظهر "شرق إدوارد سعيد" بنسبة ضئيلة جداً في كتبها السنوية للدراسات والحقول المطروحة، ففي مؤسستي التي أعمل بها (EHESS)، وفي كتابها السنويّ، لا يظهر إلا عدد محدود جداً من الدراسات حول الإسلام، وشرق (إدوارد سعيد)، وأكاد أكون الوحيد الذي أدخل دراسة تاريخية إلى الكتاب السنوي القادم، باعتبار دراستي ستكون عن دولة عربية. وفي محادثات لي مع مؤرخين وباحثين أمريكيين وأوربيين حول مصطلح الاستشراق والشرق Orient, East, Middle East، وحول مصطلح Orientalist, Historian، لا يميل أكثرهم لاستخدام

هـذه المفـاهيم للتعـبير عـن الدراسـات الـتي تدرس العالم الشرقي (شرقيّ افتراضاً للمفهوم القديم)، بـل يميلـون إلى اعتبارهـا دراسـات تاريخيـة وعلومـاً إنسـانية نابعـة مـن المعرفـة التاريخيـة لـيس إلا. فالبروفيسـور المـؤرخ (Arthur Goldschmidt) يـرفض أن يطلـق عليـه اسـم (مستشـرق)، ويفضّـل أن يكون (مؤرخ)اً، كذلك يرفض (Andreas Ismail Mohr)– المستعرب (أو المختصّ بالدراسات العربية الإسلامية) – أن يوصـف بالمستشرق، رغـم أنـه قـد أكمـل الضـوابط والشروط والأدوات الـتي تجعلـه مستشـرقاً، وفقاً للشـروط القديمـة، كـأن يـتقن العربيـة واللغـات الشـرقية، ويـزور بلـداناً شـرقية. وقبلهم يقـول (الـبرت حـوراني) إنّ (إدوارد سعيد) قد حوّل كلمة "الاستشراق" إلى كلمة "قذرة"، فمن هو المستشرق في هـذه الحالـة؟ ومـا هـو تخصـص المستشـرق؟ وهـل لديـه تخصص فعلاً؟ وهل كل مـن يـدرس المشـرق يعتبر مستشرقاً؟ ماذا عن الدراسات والعلـوم الاجتماعية والنفسية التي تتنـاول دول العـالم الممتد من شرق أوربا إلى الصين؟ أو بالأحرى من هـم (الشـرقيون)؟ في تحديـد المسـتهدف يمكننـا أن نجـد طريقـة مثلـى للتعامـل مـع الاستشراق، أو تحديده اصطلاحياً، وإلا فـإنّ التعامـل مـع الاستشـراق، وفقـاً لـ(إدوارد سعيد)، سـيكون دائمـاً يـؤدّي دور الشـرّير مقابل الخيِّـر المضـطَهد، فالاستشـراق لم يعـد كما رآه (سعيد)، بل هو حقل معرفي، ورؤية تاريخية أخرى عن تاريخ العالم.

سـألني أحـد البـاحثين الفرنسـيين هـذا السؤال، وهو سؤال لـيس بجديـد، وأضـيف عليـه: لمـاذا لم يهـاجم (سـعيد) الاستشـراق الروسيّ؟ وصبّ كل غضبه على الاستشـراق البريطاني، والفرنسي، والأمريكي!

يـرتبط في مخيلـة المشـرق أنّ (ألمانيـا) و(روسيا) هي قوى غير استعمارية، لـذلك لا يمكن مهاجمتهـا، بينمـا دول أوروبـا الأخـرى دول اسـتعمرت الشـرق! هـذا التلّقـي لـ(إدوارد سعيد)، في الأوساط العربية، كـان أزمة كبيرة للعقـل العربـي، فـالمتلّقي العربـي – مثل (سعيد) تماماً – يعتقد أنّ الشـرق هـو العرب فقط، وأنّ العرب هم المسلمون فقط.

(سعيد) الذي ربط الاستشـراق بالقضـية الفلسـطينية، وهـو المصـري الـذي ولـد في (القدس) عـام ١٩٣٥، لأنّ عائلتـه فضّـلت (القـدس) علـى (القـاهرة). عائلتـه مسـيحية بروتسـتانتية مـن (لبنـان)، تلّقـى تعليمـه في (مصر)، ثم في (الولايات المتحـدة)، ولم تكـن لـه هويّـة فلسـطينية، بـل كـان مصـريّاً ثـم أمريكياً، وعائلته اعتادت علـى التصـييف في (لبنان)، كمـا يبـيّن هـو ذلـك في مذكراتـه: (Out of Place) (خارج المكان) – وقـد عـاش في كنـف أب متسـلّط وأمّ متسـاهلة. قضى بضعة أشهر في (فلسطين)، لذا فـالقول بأنه فلسطيني أمر مثير للتساؤل! لكنـه رغـم ذلـك اعتقـد أنـه فلسـطيني، ووضـع نفسـه موضع المدافع عن القضيّة. وقد تربّى في بيئـة ثريّـة، في منـزل اعتـاد أن ينـادي فيـه علـى الخـدم، ودراسـته في (القـاهرة) كانـت في (VictoryCollege)، وهـي سلسـلة مدارس ثانوية بريطانية، كانت تعتبر النسـخة الشـرقية لـ(كليـة ايتـون) (Eton College)، التي تأسست عام ١٤٤٠م.

المدرسـة كانـت تعطـي أسمـاء أشـهر المستشـكفين و(الإمبريـاليين) البريطـانيين لأقسـامها، مثـل: (كيتشـنر)، (كريمـر)، (فوربشر)، وكـان ممنوعـاً التحـدث بالعربيـة داخل المدرسة، لكنّ (سعيد) كـان "متمـرّداً" و"غريبـاً" في هـذه المدرسـة. كـان (عمـر الشـريف)، واسمـه الحقيقـي (ميخائيـل شلهوب)، أحد الذين اعتـادوا علـى ضـرب (سعيد) في المدرسة.

على أيّة حال، بمراجعة كل الـذين اعتـاد (سـعيد) علـى مهـاجمتهم في كتابـه (الاستشـراق)، نـرى أنّ جهـودهم العلميـة فاقت التصورات، وأنّ نقدهم لأعمالهم كـان أقوى حتـى مـن نقـد (سـعيد) لهـم.. كانـت أعمـالهم بمثابـة الحجـر المؤسّـس للدراسـات العربيـة والإسـلامية في الغـرب، ومعظمهـم أسّسوا للمعرفة الشرقية، الـتي انتقلـت فيمـا بعـد إلى الشـرق. ومنـذ صـعود المدرسـتين الأمريكية والبريطانية للاستشـراق، وضـمور المدرسـة الألمانيـة، كـان معظـم المستشـرقين البريطـانيين والأمـريكيين، ومـنهم (هـاملتون جب)، الرائد في دراسات الإسلام والحـروب الصليبية، كان الكثير من هـؤلاء المستشـرقين ضـدّ فكـرة الاسـتعمار، وكانـت آراؤهـم السياسية معارضة لحكوماتهم، لكـنهم كـانوا

هاملتون جب

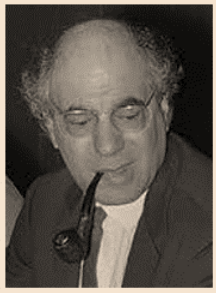
مكسيم رودنسون

ماسينيون

كلود كوهين

يعيشون ضمن البيئة الطبيعية لدولهم، بيئة الديمقراطية، والكثير من المستشرقين الفرنسيين كانوا ماركسيين ويساريين، لكنهم حافظوا على نسق المعرفة الشرقية.

الاستشراق الذي لم يتحدث عنه (إدوارد سعيد) في (الاستشراق)

محاولة عرض الاستشراق على أنه خطاب متجانس يعبّر عن الاستعمار، كما أورده (إدوارد سعيد)، أدّى بالضرورة إلى إهمال الاسهامات الماركسية للاستشراق، فالاستشراق الروسي سبق وتمّت دراسته، لكن الاستشراق الفرنسي أهمل بطريقة ما.

وهنا أمثلة أهملها (إدوارد سعيد) في استشراقه:

في لقاء لي مع المستشرق الفرنسي (نيكولا فاتا)، المختصّ بالتاريخ العثماني، سألته – في معرض حديثنا عن الاستشراق وكتاب (إدوارد سعيد)، وكيفيّة تلقي المستشرقين الماركسيين في المشرق، وأنّ تلقّي المستشرق الماركسي كان أكثر حضوراً في المشرق من المستشرقين الآخرين – فسألته ما معنى أن يكون المستشرق ماركسيّاً؟ وهل كونه ماركسيّاً يعني أنه شيوعيّ؟ كانت إجابته تتعلق بالأجواء الديمقراطية في (فرنسا)، فقال: القضية كلها متعلّقة بالديمقراطية، وحرية الرأي، وهذا ما يجعل من (فرنسا) بلداً حرّاً، لأنّ المستشرق وغيره فيها يمارسون الديمقراطية بصورتها الطبيعية.

كلود كوهين ١٩٠٩ – ١٩٩١

وصفه المؤرخ الأمريكي (ايرا لابيدوس) على أنه أعظم مؤرخ للشرق الأوسط في القرن العشرين.

حين كان (كوهين) بسنّ السادسة جعلته أمه يبكي، حين ربطت بينه وبين مصائب (لويس التاسع) في (مصر)، لكنه، استطاع مبكراً أنْ يتجاوز هذا الربط، وأنتج أحد أهمّ أعماله:

(La Syrie du Nord à l'époque des croisades et la principautéfranqued'Antioche) عام ١٩٤٠.

كان (كوهين) صارماً وقوياً وحيادياً في تعامله مع التراث الإسلامي والمسيحي في الشرق الأدنى، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. كان ماركسيّاً، وصارع لإظهار المنطقة التي درسها باعتبارها منطقة مستقلة ثابتة، بدلاً من عرضها على أنها كانت منطقة خضعت لأوربا سابقاً، وأعطى اهتماماً كبيراً للطوبوغرافيا والاقتصاد لشمال (سوريا)، وابتعد عن عرض التاريخ باعتباره قصة سردية. وحين حضر مؤتمر المستشرقين عام ١٩٥٤، وبعد خطابه الذي أثار دهشة المستشرقين والحاضرين، قام (هاملتون جب) وصافحه بحرارة.

لقد سعى (كوهين) إلى ترجمة النصوص العربية القديمة، بدلاً من الاهتمام بالشعر، واعتبره مصدراً غير ذي أهمية في دراسة تاريخ الشرق. وكان هو الوحيد من بين عدد من المستشرقين، من الذين اهتموا بدراسة نصوص القرنين الثاني والثالث عشر.

نشر (مدخل إلى الحروب الصليبية الأولى) في مجلة أكسفورد: (الماضي والحاضر). ومن آثاره إعادة كتابة (المدخل إلى تاريخ الشرق الإسلامي) لـ(سوفاجيه)، كما أسهم بمواد في دائرة المعارف الإسلامية. ومن أشهر مؤلفاته، الكتاب المرجعي والفهرسي: مقدمة لتاريخ العالم الإسلامي في القرون الوسطى بين القرنين السابع والخامس عشر الميلاديين (بالفرنسية:

Introduction à l'histoire du monde musulmanmédiévalVIIe–XV siècle)

حيث يتتبّع جميع المراجع التي كتبها المستشرقون عن العرب والمسلمين في اللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية وغيرها، ويورد لوائح شاملة بكل الوثائق الأثرية والنقوش والمصكوكات المتعلّقة بتاريخ العرب والمسلمين، ويشرح كيفيّة العمل في هذا الميدان وأدواته.

المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون
١٩١٥ – ٢٠٠٤

مثل (كاهين)، جاء من عائلة يهودية. عائلته كانت شيوعيّة من الطبقة العاملة في (باريس)، وشارك في صباه بمظاهرات مؤيّدة لانتفاضة الريف المغربية عام ١٩٢٥، ضدّ الإدارة الفرنسية. عمل كساعي بريد، وكان يقضي وقت فراغه في المكتبة، حيث تعرّف على مؤلفات (رينان)، وأصبح مهتماً بالفيلولوجيا واللغات السامية. وفي النهاية أصبح دارساً للغات السامية، والأمهرية في: (ÉcoleSpéciale des

LanguesOrientalesVivante، وقضى معظم وقت الحرب في (بيروت)، حيث اتصل بالكثير من الشيوعيين العرب. وفي عام ١٩٥٥ أصبح أستاذاً للغة الأثيوبية القديمة في (ÉcolePratique des HautesÉtudes).

انتمى إلى (الحزب الشيوعي) عام ١٩٣٧ حتى ١٩٥٨. وكموال للشيوعية، كان ملزماً بالجدال ضدّ كلّ الأدلّة التي تقول إنّ اليهود الروس لا يريدون الالتحاق بـ(إسرائيل)، "عبر الصهيونية تمّ اختراق العالم الاشتراكي"، هكذا كان يعتقد. وبينما كان اليهود يسقطون ضحايا تحت حكم (ستالين)، كان (رودنسون) يدافع عن حكم (ستالين)، ويقول إنّ هذه مجرد إشاعات ضدّ الشيوعية، وإنّ معاداة السامية شيء غير موجود. كان يتمنى أن يتمّ تحديث العالم العربي عبر الماركسية.

(رودنسون)، الذي درس مع (ماسنيون)، لا يشاركه الرأي بخصوص الروحانية الإسلامية، فقرّر التركيز على جانب من جوانب الثقافة المادية، فنشر سلسلة من المقالات حول الطبخ العربي في العصر الوسيط، ووصل إلى استنتاج أن ليس كلّ المسلمين كانوا روحانيين، وسواء كانوا روحانيين أم لا، كان يجب عليهم الأكل، ولهذا اهتم بدراسة تاريخ الطبخ العربي.

استشعر (رودنسون) وجود صلة بين الإسلام والشيوعية، فكتب سيرة ذاتية للنبي (محمد)، في ١٩٦١، وقال عنها: "ربّما، بحالة لا شعورية، قارنت (محمد) بـ(ستالين)"❐

◁ الاستشراق، بوصفه مفهوماً لتطور الدراسات الغربية للشرق، ملتزماً بأن يكون (استشراقاً) يدرس الإسلام كهدف أولي له، كنمطٍ معرفيّ، وإهمال كلّ جوانب العالم الممتدّ من شرق أوربا الغربية حتى الصين – المجال الحقيقي للدراسات الاستشراقية القديمة ، ومع تطّور الأكاديميات ووصولها إلى أمريكا، وإلى الشرق ذاته، أصبح مصطلح (الاستشراق) بحاجة إلى إعادة نظر جادة، بعد خلّو المصطلح من قيمته التي وضعها به (إدوارد سعيد)، حين حدّد الإسلام كمقابل للغرب ▷

ماذا حل بالمؤمنين والمجتمع البشري بسبب تركهم أركان مسؤولياتهم الأساسية

قاسم جميل (نوفيسي)

أكبر مصيبة أصيب بها المؤمنون على الإطلاق، هي انشغالهم بما لا يعنيهم، وتركهم أركان مسؤولياتهم الأساسية، وهي: إقامة العدل، والإصلاح، وعمارة الأرض. لأنه إذا أراد المؤمنون أن يقيموا العدل، فلا بدّ عليهم أن يهيئوا بيئة تمكّنهم أن يقيموا فيها العدل، فبالتالي هم يحتاجون إلى الإصلاح وعمارة الأرض.. إذاً فهما جزءان لا يتجزءان من إقامة العدل. ولا شك أن الإصلاح يحتاج إلى جهد كبير، وأن عمارة الأرض تحتاج إلى تقنيات وتكنولوجيا.. فكيف يمكن للمؤمنين أن يعمّروا الأرض بدون تكنولوجيا؟! فمجموعة هذه المسؤوليات الثلاثة سمّاها الله تعالى (العبادة)، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)، وتبيّن هذا المعنى الآيات التالية:

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد: ٢٥). فالحديد رمز للقوة، فكلّ من يمنع إقامة العدل، يُعامل بالقوة. أما الإصلاح، فكما ورد في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا

حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود: ٨٨). وأمّا عمارة الأرض، فكما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأرض وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (هود: ٦١).. هذه هي المسؤوليات الاساسية للمؤمنين (بمفهومه الواسع، يعني من جميع الأديان) في هذه الأرض، ولكنهم تركوا مسؤولياتهم، وانصرفوا إلى ما لا يعنيهم.

ونذكر هنا بعض الأمثلة، منها:

ذكر الله تعالى في كتابه مراراً أن الله بصير بالعباد، فلنتدبّر معنى قوله تعالى : ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران: ٢٠). واجب المؤمن أن يقوم بما كلّف به، وهذا ليس بخارج عن سنّة الحياة. فيجب على المؤمن أن يتقن عمله، ويؤمن بأن الله يراه. ولكن كيف يراه، فهذه ليست مسؤوليته، إنْ كان مؤمناً حقّاً، فلا بدّ عليه أن يهتم بإتقان عمله، ويكون على يقين أن الله سيجازيه إن أتقن عمله، ولن يضيع عمله. لا أن يترك ما كلّف به، وينصرف إلى ما لا يعنيه، وهوكيفية الرؤية، وكيف يراه الله، وهو يعلم أن الله لم يكلفه بالبحث عن كيفية الرؤية، بل كلّفه أن يقوم بمسؤولياته، فإذا ترك مسؤوليته، وانصرف إلى ما لا يعنيه، فلن يحصل على نتيجة أفضل من نتيجة من سبقه في هذا العمل، وبهذا الشكل يخسر كل شيء: لا هو قام بمسؤولياته، ولا هو حصل على نتيجة خارج مسؤولياته.

ومنهم من نصبوا أنفسهم نواباً أو بواباً لله، فمن أراد أن يطلب من الله شيئاً، وحتى الهداية، فلا بد أن يذهب إليهم، ليكون باستطاعتهم أن يطلبوا له من الله ما يريد، فبدون إذن منهم ليس لأحد حقّ أن يطلب من الله شيئاً!! وحتى إذا طلب، فلن يجيبه الله. ولو قرأوا كتاب الله، وفكروا فيه، لعلموا أن الله لم يكلفهم بهذا العمل، ولعلموا علم اليقين أن الله لم يأمر أحداً أن يقوم بهذا العمل، بل لرأوا في كتاب الله هذه الآيات:

١. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا، وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء: ٥٨).

٢. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠).

فكيف أباحوا لأنفسهم أن يقوموا بهذا العمل، ويجعلوا أنفسهم بواباً أو نواباً لله الذي فطر السموات والأرض، ويسبّح له من في السموات والأرض، وهو مالك يوم الدين، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً، والأمر يومئذ لله، أم أنهم يعلمون جيّداً أنهم يخدعون الناس بأعمالهم، لكي يأكلوا أموال الناس بالباطل، ويطلبوا من الناس أن يقدّسوهم، وهم يعلمون أنهم يرتكبون بأعمالهم هذه ذنباً عظيماً.

ومنهم من كلّفوا أنفسهم بإدخال الناس في الدين، وإخراجهم منه، وكأنّ الدين بيتٌ لهم، ولهم الحق أن يدخلوا فيه من يشاءون، ويخرجوا منه من يشاءون!! ولو فكّر هؤلاء في كتاب الله قليلاً، لعلموا أن الله لم يكلّفهم بهذا التكليف، ولقد حدّد الله في كتابه أعمال الكفار، فالكفّار معروفون بأعمالهم، كما حدّد الله أعمال المؤمنين، فالمؤمنون أيضاً معروفون بأعمالهم، في كتاب الله، فليس لأحد حقّ أن يتدخل في أمر الله، وهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء. فليس للعباد أن يتدخلوا في أمر الله، وإذا سمحوا لأنفسهم بالتدخل في أمره، فسيدخلون في الظلمات، ولا يهتدون، إلا أن يرجعوا ويتبوا.

ومنهم من كلّفوا أنفسهم بإدخال الناس في الجنة والنار، وكأنّ الجنّة والنار ملك لهم، ولهم الحق أن يدخلوا فيهما من يشاءون، ويخرجوا منهما من يشاءون.. فيدخلون الجنّة أناساً، بعمل قليل، ويرسلون أناساً إلى قعر جهنم، بسبب ذنب قد يرتكبه هذا المرسل في يوم واحد مراراً وتكراراً.. ولو قرأ هؤلاء كتاب الله، لوجدوا فيه أن الله تعالى لم يفوّض أحداً بإدخال الناس الجنّة والنّار، بأيّ شكل من الأشكال، وأنّ الجنّة والنّار ملك لله رب العالمين، وهو وحده له الحق أن يدخل فيهما من يشاء، ويخرج منهما من يشاء.

ومنهم من يحمل سلاحه على كتفه، ويبحث عمّن يراه كافراً، لكي يقتله، فيدخل الجنّة بقتله، وهو لا يفهم شيئاً من أركان مسؤولياته الأساسية، يعني: إقامة العدل، والإصلاح، وعمارة الأرض. فهو يرى نفسه بأنه مكلّف بقتل الكفار، ويتصور أنه يطبّق العدالة والشريعة بقتله الكافرين، ولو قرأ كتاب الله بشكل جيد، لرأى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد: ٢٥)، لقد بيّن الله، الذي يُقْتَلُ الكفار باسمه، في هذه الآية، أن الهدف الاساسي من إرسال الرسل وإنزال الكتب هو إقامة العدل، وأن استعمال القوة يكون

فقط لمن يمنع إقامة العدل، ولَعَرَفَ أنه على خطأ كبير، ويرتكب ذنباً كبيراً.

ومنهم من كلّفوا أنفسهم بتزكية الآخرين، وتزكية أنفسهم، وكأنّ الله ليس له علم بهم، ولا بالآخرين. هؤلاء يريدون أن يبيّنوا للناس كيف فضّلهم الله على الآخرين، فما دام أن الله فضّلهم عليهم، فيجب عليهم أن يقدّسوهم، ويطيعوهم إطاعة مطلقة، في كل صغير وكبير، بلا جدال ولا نقاش. ولو أنصف هؤلاء، وقرأوا كتاب الله، لوجدوا فيه قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأرض وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ (النجم: ٣٢).

ومن الناس من يتاجر بدماء إخوته في الإنسانية، ويشعل الحروب في جميع أنحاء الأرض، مادام ذلك في مصلحته المادية، ويفسد في الأرض، وإذا قيل له لا تفسد في الأرض، قال إنما أنا من المصلحين، ولا يوجد عنده شيء في الأرض فوق مصلحته المادية، فهو يضّحي بكل القيم في سبيل مصلحته. وهؤلاء لا يريدون أن يسمعوا من أحد قول الحق، ولا الحديث عن حقوق البشر، وإقامة العدل، والإصلاح، وعمارة الأرض، همّهم الوحيد في الحياة أن يبرروا أفعالهم، وبأيّ شكل من الأشكال.

ومنهم من أعلنوا أنفسهم فوق البشر، وحتى فوق الله، وأعطوا لأنفسهم حقّ التسلط على رقاب الناس، وأموالهم، ومعاملتهم كما يشاءون، ولا يحق لأحد أن يعترض عليهم، فإذا اعترض على تصرفاتهم أحد أفراد رعيتهم، فالويل كل الويل له، يحرم من أبسط الحقوق، ويرمى في قعر السجون، حتى يكون عبرة للآخرين.. في الحقيقة هؤلاء نوع من البشر يرون أنفسهم فوق البشر، وفوق الله، ولأجل هذا يجوّزون لرعيتهم الاعتراض على الله، ولكن لا يجوزون لهم الاعتراض عليهم أنفسهم.. قد ماتت إنسانيتهم، ولم يبق عندهم شيء باسم الضمير الإنساني.

ومنهم أنكروا وجود الله، وزعموا أن فكرة وجود الإله، والأديان، عائق كبير أمام تطبيق العدالة، وحصول الناس على حقوقهم، ووعدوا الناس بالمساواة، وبناء جنّة لهم على هذه الأرض، بدل الجنّة التي وعد بها الله، وبشّر بها الرسل. في ظاهر الأمر يمكن أن يقال لهؤلاء الملحدين المنصفين، الذين لم يفهموا فكرة وجود الإله، وحكموا عليها من خلال مشاهدتهم للذين يجعلون أنفسهم ظلّ الله في الأرض، وبابَ الطلب منه، ويأكلون أموال الناس باسم الدين. ولكن عند التطبيق

تبيّنت الحقيقة. ولقد رأى العالم كيف بدأ هؤلاء ببناء الجنّة الموعودة، وأجروا أنهاراً من دماء البشر فيها، وعندما جفّت الدماء يبست جنتهم وماتت، فأعلنوا أنفسهم أرباباً على رقاب الناس وأرواحهم وأموالهم، وصادروا حرياتهم ومنعوهم من أيّ حديث غير تعظيمهم وتعظيم آرائهم.

ومنهم من أباحوا لأنفسهم تدمير البلاد، وقتل العباد، بحجة الدفاع عن السلم العالمي، والسلم العالمي بريء منهم، وهم بريئون منه.. يعلنون للناس ما لا يؤمنون به، يخدعون الناس بكل ما يستطيعون، يدافعون عن مصالح فئة معينة، أو بلد معين، ولا يهمهم موت أخوتهم في الإنسانية، من الجوع والتعذيب، وقصف الصواريخ، وضرب الطائرات، مادامت هذه الأعمال تكون في مصلحتهم المادية.. همهم الوحيد في هذه الدنيا أن يوسعوا على أنفسهم، فيعيشوا في الرفاهية والبذخ، على حساب أخوتهم في الإنسانية.. لسان حالهم يقول: فليمت جميع الناس، لنعيش نحن في الرفاهية والبذخ .

هناك فئات كثيرة، وتحت أسماء مختلفة، ولكنها في المعنى لا تخرج عن هذه الفئات المذكورة، فأعمالهم متقاربة ومتشابهة، وإن اختلفت الأسماء.

ملاحظة: فلنعلم إذا بحثنا في كتاب الله تعالى عن بيان عبادة الله، سنجد المعنى الحقيقي لعبادة الله في كتابه، أمّا إذا بحثنا عن معنى كلمة العبادة في بطون كتب اللغات، سنجد معنى عبادة العباد، وليس عبادة رب العباد، وهما متشابهان في المعنى، ومختلفان في المفهوم، يعني أن مفهوم عبادة الله يختلف عن مفهوم عبادة العباد بشكل كامل، ولأجل هذا لا يمكن أن يجد المفهوم الحقيقي لعبادة الله من يبحث عنه في كتب اللغات.

هذه بعض الآيات التي تبيّن معنى العبادة في كتاب الله تعالى:

١. ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ (الفاتحة:٥).

فلنتدبّر هذا الآيات، حتى يتبيّن لنا جزء من معنى إيّاك نعبد:

* ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا **تَعْبُدُوا** إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (الإسراء:٢٣).

* ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا **تَعْبُدُوا** إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ (فصلت: ١٤).

* ﴿مَا **تَعْبُدُونَ** مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا **تَعْبُدُوا** إِلَّا إِيَّاهُ، ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٤٠).

* ﴿أَن لَّا **تَعْبُدُوا** إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ (هود: ٢٦).

* ﴿أَلَّا **تَعْبُدُوا** إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ (هود: ٢).

* ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا **تَعْبُدُوا** إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأحقاف: ٢١).

* ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا **نَعْبُدُهُمْ** إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (الزمر: ٣).

* ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا **لِيَعْبُدُونِ**﴾ (الذاريات: ٥٦).

* ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا **تَعْبُدُونَ** مِن بَعْدِي قَالُوا **نَعْبُدُ** إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٣).

* ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا **نَعْبُدَ** إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

* ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا **لِنَعْبُدَ** اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (الأعراف: ٧٠).

* ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن **نَّعْبُدَ** مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (هود: ٦٢).

٢. ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٦).

هذه الآيات تبيّن لنا معنى الصراط المستقيم، فلنتدبّر جيداً:

١. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا **صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ**﴾ (مريم: ٣٦)

٢. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ **صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا**﴾ (النساء: ١٧٥)

٣. ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى **صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ (المائدة: ١٦)

٤. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى **صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ (الأنعام: ٣٩)

٦. ﴿وَأَنَّ هَذَا **صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا** فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٣)

٧. ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ١٦١)

٨. ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (النحل: ٧٦)

هذه الآيات تبيّن أن الصراط المستقيم هو عبادة الله..

وهكذا يتبيّن لنا معنى {إياك نعبد وإياك نستعين}، أيْ بعبادة الله وحده نريد إقامة العدل والإصلاح وعمارة الأرض، فنطلب منه وحده العون. والله تعالى أعلم.

فلنفق من غفلتنا قبل أن يفسد المغفلون أكثر فأكثر في الأرض، ولنقم بمسؤولياتنا بقدر استطاعتنا، كما أمرنا رب العالمين عن طريق المرسلين والمنذرين، وأوامره موجودة في كتابه، وغير محرّفة، لأنه هو القائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

إذا لم تقنعك هذه الكلمات، فحدّد ما تريد من أمور الدين، ثم ابحث عنها في كتاب الله، وحدّد ما تريد من أمور الدنيا، ثم ابحث عنها في الدنيا التي سخرّها الله تعالى لعباده.

أفيقوا أيها الناس من غفلتكم، قبل أن يهدم المغفلّون هذا الكون على رؤوس الجميع❐

ومن الناس من يتاجر بدماء إخوته في الإنسانية، ويشعل الحروب في جميع أنحاء الأرض، ما دام ذلك في مصلحته المادية، ويفسد في الأرض، وإذا قيل له لا تفسد في الأرض، قال إنما أنا من المصلحين، ولا يوجد عنده شيء في الأرض فوق مصلحته المادية، فهو يضّحي بكل القيم في سبيل مصلحته..

توريث المهنة وأثره في تدوين كتب الطب العربي

د. نبيل فتحي حسين

تُعد الكتب التي ألّفها الأطباء لأبنائهم من أقدم ما يطالعنا من مؤلفات طبية أنجزت في النصف الثاني من القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، وهي تدلّ على أنّ أحد دوافع التأليف الطبي المبكّر كان السعي لتوريث مهنة الطب للأبناء. وربما كان ذلك تقليداً لعرف قديم درج عليه الأطباء اليونانيون، الذين لم يكونوا يعلّمون الطب للغرباء، وإنما يعلّمونه أبناءهم([1])، وإن كان الطبيب الشهير (بُقراط) (Hippocratus) خرق هذا العرف عندما "علم الغرباء الطب، وجعلهم شبيهاً بالأولاد. لما خاف عن الطب أن يفنى من العالم. كما ذكر ذلك في كتاب عهده إلى الأطباء الغرباء، الذين علمهم الصَّنْعة"([2]).

وربما تكون المبادرة الأولى في سياق تأليف الأطباء كتباً لأبنائهم قد أنجزت في (واسط)، عندما قام (تياذوق) (ت نحو سنة ٩٠هـ/٧٠٨م)، وهو طبيب والي العراق (الحجاج بن يوسف الثقفي) (ت ٩٥هـ/٧١٣م)([3])، توفي بـ(واسط)([4])، بتأليف كنَّاش كبير لابنه([5])، وإن كنّا لا نعرف شيئاً عن ابنٍ لـ(تياذوق) برع في الطب لاحقاً. أما (الكنَّاش) و(كنَّاشة) فكلمة آرامية تطلق على "بحث أو مقالة في الطب والعلاجات، حيث يرد ذكر أعضاء الجسم الإنساني باستمرار، وطرائق العناية به، وشفائه حين يمرض"([6]).

وبقي السعي إلى توريث مهنة الطب للأبناء أحد دوافع التأليف الطبي في القرن

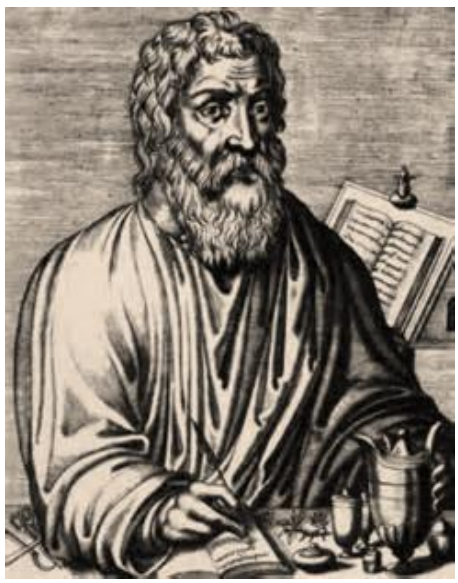

الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، حيث ألف الطبيب الشهير (أبو جِبْريل بُخْتِيشُوع بن جُورْجِس بن بُخْتِيشُوع) (كان حيّاً قبل سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م)، كتاب (التَّذكِرة) لابنه (جبرائيل)([٧])، وإنْ كنّا لا نعرف أين ألّف كتابه هذا، فهو مارس نشاطه بادئ الأمر في (جنديسابور)([٨])، قبل أن يُستدعى إلى (بغداد)، حيث مارس نشاطه فيها، وفي (سامراء) أيضاً، يدل على ذلك إشارة (النديم) (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م) إلى أنه "خدم الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل"([٩]).

ويظهر أنّ تقليد توريث مهنة الطب للأبناء ظلّت له تأثيراته على الكتابة في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي أيضاً – على الرغم من قلّة شواهدنا – كما يظهر أنه سرعان ما انتشر في الأوساط الطبية التي اشتغل فيها مسلمون ونصارى وصابئة، فقد ألّف (أبو زيد حُنين بن إسحاق العبادي) (ت ٢٦٠هـ/٨٧٣م)، المترجم والطبيب الشهير، الذي مارس نشاطه في (بغداد)([١٠])، كتاب (العين على طريق المسألة والجواب)([١١]). ووفقاً لمؤرخ الطبّ العربي الشهير (ابن أبي أصيبعة) (ت ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م)، فقد ألّفه لولديه (داوود) و(إسحاق)([١٢])، وهو كتاب يقع في ثلاث مقالات([١٣])، ويتضمن مائتين وتسع مسائل([١٤]). ويظهر من الإشارات التي قُدمت حول منهج تأليف الكتاب، وطبيعة موضوعه، وعدد المسائل التي تناولها، أنه يمثّل مرحلة متقدمة على الكتابين السابقين، اللذين ألّفهما في القرنين السابقين كلٌ من: تياذوق وبُخْتِيشُوع بن جُورْجِس، فهو كتاب متخصص في العين تحديداً، يقوم منهجه على السؤال والجواب، يتضمن مسائل كثيرة، خاصة بالعين طبعاً، ولم يقدّمه مؤلّفه لأحد أبنائه لكي يرثه في الصنعة، وإنما لابنيه معاً، وكأن (حُنين) يريد أن يجعل من العمل في ميدان الطب نشاطاً أسرياً خاصاً بعائلته.

أما كتاب (الذخيرة)([١٥])، الذي يصفه (القفطي) (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م) بأنه "كنّاش عربي جيد"([١٦])، كما يوصف بأنه

"كتاب نادر في الطب"([١٧])، والذي يقول (ابن أبي أصيبعة) إنّ (أبا الحسن ثابت بن قُرَّة الحَرَّانِيّ الصابئ) (ت ٢٨٨هـ/٩٠٠م)، الرياضي المعروف الذي عاش في بغداد([١٨])، ألّفه لولده (سنان)([١٩])، فهناك من يشكك في نسبته لـ(ثابت)، إذ يقول (أبو علي المحسن بن إبراهيم الصابئ) (ت ٤٠١هـ/١٠١٠م): "وسألت أبا الحسن ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة عن هذه الرسالة [يقصد رسالة عربية منسوبة لثابت في شرح مذهب الصابئة] والكنّاش، فقال ليس ذلك لثابت، ولا وجدتُه في كتبه، ولا دساتيره"([٢٠]). ويذكر (القفطي) و(ابن أبي أصيبعة) كتاباً لـ(ثابت) إلى ابنه (سنان) في الحثّ على تعلّم الطب والحكمة([٢١]).

ولم يقتصر هذا العرف في التأليف على العراق، مركز الثقافة والعلم آنذاك، وإنما انتقل إلى أماكن أخرى، فقد كتب (محمد بن أحمد بن سعيد التميمي المقدسي) (كان حيّاً سنة ٣٧٠هـ/٩٨٠م)، الطبيب المقدسي الذي مارس نشاطه في (مصر)([٢٢])، رسالة "إلى ابنه علي بن محمد في صنعة الترياق الفاروق، والتنبيه على ما يغلظ فيه من أدويته، ونعت أشجاره الصحيحة، وأوقات جمعها، وكيفية عجنه، وذكر منافعه وتجربته"([٢٣]). وهي رسالة يدلّ عنوانها على أنّ الغرض منها كان توريث المعرفة بالأدوية، لا بالأمراض وكيفية علاجها❐

الهوامش:

(١) إسحاق بن حنين، تاريخ الأطباء والفلاسفة، ملحق بكتاب، أبو داوود سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق، فؤاد سيد (ط٢، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥)، ص١٥٣؛ أبو الوفاء المبشر بن فاتك، مختار الحكم ومحاسن الكلم، حققه وقدّم له وعلق عليه، الدكتور عبدالرحمن بدوي (ط٢، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠)، ص٤٤-٤٥.

(٢) إسحاق بن حنين، المصدر السابق، ص١٥٤.

(٣) أبو الفرج محمد بن إسحاق النديم، كتاب الفهرست، قابله على أصوله وعلق عليه وقدم له،

الدكتور أيمن فؤاد سيد (لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠٠٩)، م٢، ج١، ص٣١٧؛ موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم المعروف بابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق، الدكتور نزار رضا (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، د.ت)، ص١٧٩.

(٤) ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص١٨١.

(٥) المصدر والمكان نفسهما.

(٦) رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، ترجمة، الدكتور محمد سليم النعيمي، مراجعة، جمال الخياط (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٧٨-٢٠٠٠)، ج٩، ص١٥٣.

(٧) النديم، المصدر السابق، م٢، ج١، ص٢٩٨؛ جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، تاريخ الحكماء، تحقيق، يوليوس ليبرت (لايبزك، ١٩٠٣)، ص١٠١؛ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص١٨٧.

(٨) القفطي، المصدر السابق، ص١٠١.

(٩) المصدر السابق، م٢، ج١، ص٢٩٨.

(١٠) أبو الفرج غريغوريوس بن أهرون المعروف بابن العبري، تاريخ مختصر الدول، وقف على طبعه ووضع حواشيه، الأب أنطون صلحاني اليسوعي (ط٤، بيروت: دار المشرق، ٢٠٠٧)، ص١٤٤. يقول البيهقي عن حنين: "وكان بغدادي المولد، وقد نشأ بالشام وتعلم بها". ظهير الدين أبي الحسن علي بن زيد، تتمة صوان الحكمة أو تاريخ حكماء الإسلام، حققه ونشره، محمد كرد علي (باريس: دار بيبليون، ٢٠٠٧)، ص١٦؛ وكذلك: شمس الدين محمد بن محمود الشهرزوري، نزهة الأرواح وروضة الأفراح، تحقيق، الدكتور عبدالكريم أبو شويرب (ط١، ليبيا: جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ١٩٨٨)، ص٢٩١.

(١١) النديم، المصدر السابق، م٢، ج١، ص٢٩١؛ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٢٧٢.

(١٢) المصدر السابق، ص٢٧٢.

(١٣) النديم، المصدر السابق، م٢، ج١، ص٢٩١؛ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٢٧٢.

(١٤) ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٢٧٢.

(١٥) البيهقي، المصدر السابق، ص٢١؛ القفطي، المصدر السابق، ص١٢٠؛ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٢٩٩؛ الشهرزوري، المصدر السابق، ص٢٩٣.

(١٦) المصدر السابق، ص١٢٠.

(١٧) البيهقي، المصدر السابق، ص٢١؛ الشهرزوري، المصدر السابق، ص٢٩٣.

(١٨) القفطي، المصدر السابق، ص١١٥.

(١٩) المصدر السابق، ص٢٩٩.

(٢٠) القفطي، المصدر السابق، ص١٢٠.

(٢١) القفطي، المصدر السابق، ص١١٧؛ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٢٩٩.

(٢٢) ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٥٤٦، ص٥٤٧.

(٢٣) المصدر نفسه، ص٥٤٨.

التعليم العالي العراقي:

التربية والتعليم والإصلاح؛ وعقبة الأعراف الاجتماعية السلبية

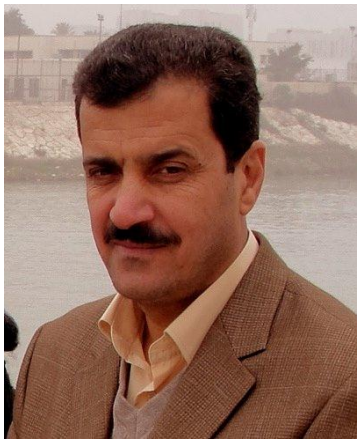

أ. د. علي عبد داود الزكي

هناك اهتمام كبير بمؤسسات التعليم العالي والبحث العلمي من قبل العديد من دول العالم المتقدمة، أو المتطلعة للحصول على التكنلوجيا المتقدمة، لغرض تطوير الإمكانات الصناعية والتكنلوجية، والعمل باستراتيجية تنموية وفقاً لإمكاناتها، ولتنويع اقتصادها، وتطوير الصناعة فيها، ورفع مستوى المجتمع الثقافي. ومما لا شك فيه أن الإدارة لمؤسسات التعليم لها دور عظيم في نجاح المؤسسة وتطويرها والقيام بدورها التكاملي مع باقي مؤسسات البلد. لذا يجب أن تهتم الدولة بمستوى التعليم العالي، وتخصص نسبة كبيرة من ميزانية الدولة له، وتحسّن إدارته. كما يجب أن تكون هناك عناية كبيرة في اختيار إدارات شجاعة وكفوءة ومخلصة ونزيهة، بعيداً عن التحاصص الحزبي والطائفي والعرقي. فإن سوء اختيار الإدارة سيؤدي حتماً إلى مشاكل كبيرة، منها التبديد غير الرشيد للأموال والطاقات، والتراجع الكبير في مستوى التعليم.

إن عملية الإصلاح لمؤسسات التعليم العالي ترتكز إلى عدة ركائز، أهمها: إعادة النظر بالقوانين والتعليمات الخاصة بالتعليم العالي، وتعديلها بما ينسجم مع معطيات العصر واحتياجات وإمكانات البلد المادية والبشرية، وإصلاح الهيكل التنظيمي والإداري للمؤسسات التعليمية، وتطوير ومتابعة الهيئة التدريسية، وحثّها باستمرار لرفع إمكانياتها العلمية والثقافية والتعليمية، وتفهم الطلبة وظروفهم وواقعهم الاجتماعي، والتعامل الإيجابي المرن مع ما تفرضه البيئة الاجتماعية والمؤسسات الدينية والثقافة المجتمعية والقبائلية والمناطقية والأعراف، وما ترسمه من ملامح التعامل والتعاطي الثقافي والعلمي والتربوي في البلاد، لتكوين قيم ثقافية ومجتمعية متماسكة وصالحة. إن عدم الاهتمام باختيار الإدارات لمؤسسات الدولة العراقية، ومنها التعليم العالي، بشكل صحيح، أدى إلى وصول من لا يتمتع بالأمانة والمصداقية والقدرة والكفاءة إلى أعلى المناصب في الدولة، حيث يلاحظ تمسكهم الكبير بمواقعهم دون الاهتمام لمصلحة المجتمع وتطوير الخدمات والمخرجات بشكل جدي. كما عملوا على تسخير إمكانات المؤسسة التعليمية لمصلحتهم الشخصية، والعمل على حصولهم على أعلى المكاسب، دون الاهتمام لضعف ما يقدمونه للتعليم العالي والمجتمع.

ويمكن تلخيص أهم مشاكل سوء الإدارة في مؤسسات التعليم العالي العراقي، لما بعد سقوط الصنم، في النقاط التالية:

١. عجز أغلب الإدارات عن إجراء تغييرات إيجابية، فيها رؤى إصلاحية وتطويرية، لأنها تنظر إلى دورها على أنه محدد فقط بتسيير الأمور الإدارية، ونيل المكاسب، وعدم الاهتمام بالشأن العلمي والتربوي.

٢. عدم وجود مواصفات واضحة ومحددة لاختيار القيادات بأمانة وشفافية.

٣. اعتماد المحسوبية والعلاقات والمصالح الشخصية في اختيار إدارات التعليم، والذي نتج عنه وصول شخصيات غير كفوءة، موالية لمن رشحها ودعم وصولها للمنصب، دون الاهتمام بالصالح العام.

٤. عملت الإدارات دوماً على اعتماد دكتاتورية فرض القرار، لوجود ضعف مؤسساتي كبير في لجان القرار والمجالس (الأقسام والكليات والجامعات) تجاه المسؤول. حيث إن هذه اللجان أو المجالس تعمل باتخاذ القرارات بما يرضي المسؤول غالباً، وتخضع لقرار المسؤول، ولا تمتلك الشجاعة الجماعية لتتحمل مسؤولية اتخاذ قرار سليم مخالف لرؤية المسؤول. لذا يجب أن تكون هناك تشريعات مناسبة بهذا الخصوص، وأن يحسن اختيار هذه المجالس واللجان، لكي تأخذ دورها القيادي الجماعي

المتضامن بعيداً عن المجاملة واللامبالاة، ولكي تكون داعمة للإصلاح والعمل الجاد الإيجابي، وليست مسيرة بلا إرادة لقرارات المسؤول.

٥. عدم قدرة أغلب الإدارات على تشخيص الكثير من المعوقات والمشاكل الفعلية.

٦. عدم احترام أغلب الإدارات لمكاسب ومنجزات الإدارات السابقة، لعدم وجود رؤية منهجية واستراتيجية مثبتة كخطة عمل. لذا، فإن أيّ إدارة جديدة لا تعمل على استكمال ما أنجزته الإدارات السابقة، بل هي غالباً ما تعمل على محو وإلغاء كل الإنجازات السابقة، والبدء برؤية جديدة واستراتيجية جديدة، مما يعني أن كل الرؤى محكومة بقرارات آنية، وتتغير مع تغير الإدارة، أو تتغير مع تغير الإدارات العليا، مما يتسبب بخسائر كبيرة.

٧. النظرة للمنصب كمكسب مادي ومعنوي فقط، وعدم الاهتمام بالبناء والتطوير لترك أثر إيجابي في خدمة المؤسسة التعليمية والنهوض بها.

٨. تتجنب الإدارات المبادرات العملية التي تحتاج إلى جهود كبيرة ومثابرة ومتابعة، وممكن أن تعمل على تطوير وتسهيل العمل. لأن هكذا مبادرات غالباً ما يرافقها مشاكل متعبة، لذا فإن أغلب الإداريين يعتمدون الأسلوب السلبي باحترام كسل وكلاسيكية الموظفين العاملين معهم، وعدم القيام بهكذا أعمال تطويرية وتنظيمية شجاعة. حيث إن الموظفين يعتبرون أي شيء جديد خارج إطار ما تعودوا على عمله، وكأنه تجاوز على حقوقهم، وخصوصاً ونحن في عصر ديمقراطي انتقالي غير واضح المعالم، حيث صعوبة التمييز بين الحق الديمقراطي والفوضى.

٩. عدم وجود فهم لدور الإداري، وعدم وضوح الصلاحيات والمسؤوليات، حيث هناك جهل كبير في الحقوق والواجبات وحدود المسؤوليات، وأغلب العاملين جاهلون بحقوقهم وواجباتهم، وما تفرضه عليهم القوانين والتعليمات، حيث يتم التعاطي بالكثير من الأمور بشكل اجتهادي لا يستند إلى أيّ تعليمات وضوابط قانونية صحيحة، وهذا ما يؤسّس لشيوع ثقافة الفوضى واللانظام وعدم احترام القيم المؤسساتية.

إذاً، يتوجب العمل لتطوير الهيكل التنظيمي للمؤسسات الأكاديمية وإكسابها ما يكفي من المرونة لتتجاوز الأزمات والإشكاليات، ولتتوافق في عملها مع الأهداف المرجوة.

إن نمو الحراك الشعبي الكبير للإصلاح، خلال العامين السابقين، أدى إلى ظهور رفض مجتمعي كبير لما موجود، وتطلع لإصلاح كل

مؤسسات البلد، بالضغط على الحكومة لغرض الإسراع بالإصلاح. بالتأكيد فإنّ أي إصلاح يجب أن يستند إلى النزاهة والتكنوقراط، وهذا مؤشر إلى وجوب الرجوع إلى مؤسسة التعليم العالي لغرض المساهمة في وضع سياسة واستراتيجية تنموية للنهوض بالبلد، وعلى مختلف الأصعدة. وهناك طموح كبير في أن يكون الغد أفضل بالتعاضد والتآزر ووقف السوء ودحر الإرهاب والوقوف على أرضية قوية لبناء صحيح يستند إلى الأمانة والعلمية والقيم الأخلاقية والتربوية الصالحة التي لا تخرج عن قيم ومعتقدات المجتمع، ولكن تصوّبها بالاتجاه الصحيح الموحد، لغرض إنجاح عملية التنمية وتطوير البلد وتوفير فرص العمل وتحسين الخدمات والارتقاء بالمستوى الثقافي الاقتصادي والاجتماعي للإنسان العراقي.

* * *

غالباً ما تتعرّض الهيئة التدريسية، وإدارات المؤسسات التربوية، والتعليمية، لضغوط شديدة، لغرض فرض تقييم غير صحيح للطلبة، أو لبعضهم. إن هذه الضغوط سائدة في العراق منذ عدة عقود، ونتج عنها تقبّل كبير لمفهوم المحسوبية والواسطة، في مختلف الأوساط الوظيفية. إن عدم احترام عتبة النجاح (درجة النجاح)، بسبب التأثيرات والضغوط المختلفة، كان له الأثر السلبي العظيم في تدهور المؤسسات التربوية والتعليمية في البلد. كما أصبح من لا يتقبل هذا الأمر وكأنه منبوذ ضمن وسط عمله، يغرّد خارج السرب بقيم سامية لا يتقبلها المجتمع إلا كقيم وشعارات كتب فقط. إن هذه الظاهرة السلبية بحاجة إلى علاج فعال وناجع ضمن مؤسسات التربية والتعليم. إن التدريسيين في أحيان كثيرة، وبسبب ضعف تطبيق القانون، وضعف الأجهزة الأمنية، أصبحوا عرضة للتهديد، ويتم إرهابهم لغرض الرضوخ لهذا الأمر، والسبل كثيرة ومتنوعة في هذا الشأن. أحياناً تكون الضغوطات عشائرية، أو اجتماعية، وأحياناً حزبية، وأحياناً من مسؤولين في المؤسسة التعليمية نفسها، وكأنهم لا يعرفون ماذا يعني قيم تربوية، وماذا تعني أمانة، ونزاهة؟!

إن السياسي والبرلماني، وحتى الإداري، الذي جاء وفقاً للمحاصصة السياسية، يعمل على كسب الأصوات، وكسب رأي الجمهور، حتى ولو كان ذلك على حساب المصلحة العامة للمجتمع، وهنا يحصل توافق ما بين ثقافة المجتمع السلبية بهذا الخصوص، مع قصور الرؤية للسياسي، والإداري، الانتهازي، الذي يسعى للبقاء في منصبه، حتى لو كان ذلك على حساب الوطن وانهيار قيمه وبنائه الصحيح. أذكر هنا عبارة لـ(تشرشل) أثناء (الحرب العالمية الثانية)،

عندما كان (الألمان) يقصفون (لندن) بشدة: ((قابله مجموعة من المواطنين البريطانيين بالقول: لقد تهدّمت البلد، فسألهم: ما وضع القضاء والتعليم..؟ فقالوا: ما زال القضاء والتعليم بخير، فقال لهم: إذن البلد بخير، فلا تخافوا)). فالتعليم، إذاً، يعتبر ركيزة أساسية في خير البلد ونهوضه وصموده، لذا يجب الاهتمام بالتعليم ومنع انهياره.

إن الضغوطات كبيرة ومستمرة، ولا يمكن أن تنقطع ما لم يتم علاجها جذريا. فهل نرسل أبناءنا للتعلّم، أم للحصول على الشهادة فقط؟! فكيف سيتم البناء بمن تخرّج وهو لا يستحق النجاح؟

إذاً يجب أن يكون هناك علاج حقيقي لجميع الظواهر السلبية التي تعمل على تدمير التعليم في البلد، ويجب رفع شعار (غشَّكَ مَنْ أرضاكَ بالباطل)، كشعار إصلاحٍ وطني في مؤسسات التربية والتعليم. إن الغاية الأساسية للدراسة هي التعلم وليس النجاح، فما فائدة نجاح مزّيف، ورقي، بلا علم وبلا معرفة، ودون الحصول على ما يكفي من الخبرة العملية. يجب تقديس قيم النزاهة والأمانة، وجعلها قيماً أخلاقية واجتماعية عليا، لغرض معالجة هذا الداء المستشري بشكل كبير في المجتمع.

بالتأكيد أيّ مجتمع يعمل على أن يحقّق أبناؤه نجاحاً مزّيفاً، ويمهّد لعبورهم بالغشّ والزيف والكذب للحصول على وثيقة وشهادة، سيكون على حافة الانهيار. وإن من يحصل على نجاح دون استحقاق، فإن عمله بهذه الشهادة، وحصوله على الأموال من خلالها، سوف يكون محرماً شرعاً.. فمن يهتم لهذا الأمر؟! للأسف، المؤسسات الدينية لم تعط هذا الأمر ما يستحق من العناية والتوجيه، لبيان خطره على المجتمع وبنائه ومستقبله. نتعجب أشد العجب عندما نرى قيادات دينية وعشائرية واجتماعية وحزبية وحكومية تعمل باستخدام نفوذها لغرض الضغط بهذه النقطة، لأجل تحقيق مصالح شخصية خاطئة (فليس من مصلحة من لا يستحق النجاح أن ينجح) ونرى أن هذه القيادات لا ترى أيّ خلل في طلبها، بل بالعكس تماماً، لأنه ينسجم بشكل كبير مع ثقافة المجتمع السلبية. هنا يجب التركيز على إصلاح هذه النقطة، على مستوى التعليم، في كل من وزارتي التربية والتعليم العالي، وأن يتمّ ترويج ونشر ثقافة تقديس النزاهة والأمانة، وتحريم النجاح دون استحقاق، والقضاء على ما هو متعارف عليه بـ(الواسطة)، واعتبارها عاراً اجتماعياً لكل من يتعامل بها. كما يجب أن يكون ضمن مناهج ومفردات وزارة التربية مفردات تعريفية عن حقوق وواجبات الطالب، وأخلاقيات التعامل مع منتسبي المؤسسة

التعليمية، وأن يكون الطالب متنبهاً لما قد يسبّبه أيّ خرْق لهذه الأخلاقيات.

خلل تربوي: مجتمع يقدّس الكذب

إن من أسوء عيوب التعامل الاجتماعي والمؤسساتي في البلد، هو شيوع الكذب الموثق، والكذب في التعامل، في جميع مؤسسات الدولة.. حيث نرى الكثير من أبناء المجتمع، عندما يكون لديهم تقصير في العمل الرسمي، أو تغيب عنه، عادة ما يقدمون طلباً رسمياً لا يدونون فيه الحقيقة وأسباب التقصير أو التغيب، وإنما يدونون ما يخالف الحقيقة" من أعذار كاذبة، لكي يمرّروا طلبهم، ويحصلوا على ما يريدون. وكثيراً ما نلاحظ أن بعض المسؤولين والإداريين يقومون بإعادة الطلبات أو المعاملات التي لا تنسجم مع التعليمات والقوانين النافذة، ويذكرون أحياناً كثيرة ما يجب أن يكتب فيها، حتى لو كان كذباً، لكي يتمّ تمريرها. وهذا يعني، بشكل أو بآخر، كتابة طلبات فيها كذب وتزييف للحقائق، لكي تكون موافقة للقانون والتعليمات، لكي يتمّ تمريرها. لذا يجب الانتباه إلى أنه يجب أن يكون التشريع والقانون سمحاً ومرناً، بحيث يسهّل أمور المواطن، دون أن يضطرّه للكذب، وتوثيق كذبه بالأوراق والمعاملات الرسمية. طبعاً هكذا أمور غير موجودة في العالم المتحضّر حيث يعتبر (الكذب عاراً اجتماعياً)، وأساس التربية لديهم الصدق، وتعليم أطفالهم اعتماد الصدق، مهما كانت الظروف.. بينما في مدارسنا القول غير الفعل، والطالب يتأثر بالفعل أكثر من القول. المواطن الذي لا يوثّق أعذاراً وادعاءات كاذبة في الكثير من طلباته ومعاملاته الرسمية، سوف لا يستطيع إنجازها واستكمالها. فمثلاً طلبة الدراسات العليا في جامعاتنا، عندما يحتاجون إلى تمديد دراسي، يضطرون أن يقدموا طلبات بهذا الخصوص، ويدونوا فيها أسباب طلب التمديد، والكثير من هذه الأسباب غير صحيح، وكاذب، وبعلم المشرف وإدارة القسم. كما أن بعض الطلبة يقدم على استخدام علاقاته ومعارفه في الحصول على إجازات مرضية موثقة ومصدقة من مؤسسات حكومية تابعة لوزارة الصحة، لغرض الحصول على إجازة أو تأجيل امتحان. كما يلاحظ شيوع ظاهرة التأجيل للامتحانات من قبل الطلبة، بحجة المرض، حيث يقدم الطالب طلباً للذهاب للطبيب، لغرض الحصول على إجازة مرضية، لكي يتمكن من تأجيل الامتحان، ونعرف أن أغلب الطلبة لا يعانون من أزمة صحية، وإنما غاياتهم تأجيل الامتحان فقط، بأسلوب تحايلي، وهم يقرّون بذلك. طبعاً هناك أمثلة كبيرة وهائلة جداً، في مختلف مؤسسات البلد، الحكومية وغير الحكومية، التي يظهر فيها تقديس الكذب اجتماعياً، ولتصبح

المقولة (في الصدق النجاة) مقولة غير مقبولة إلا كشعار يعلّق في الغرف للزينة والتباهي، ويكتب في الواجهات، وفي صفحات وبوستات الفيسبوك ومواقع التواصل الاجتماعي.

يجب أن توضع هذه النقاط أمام المشرّع الذي يضع التعليمات والقوانين، لغرض معالجة هذه النقطة، لكي لا ينشأ مجتمع يتعلم الكذب في المؤسسات التربوية، وبعد ذلك نطلب منه أن يكون أميناً وصادقاً في تعامله وعمله.

التربية والتعليم العالي العراقي: ظواهر سلبية بحاجة لعلاج

تربّت أجيال عديدة من الطلبة، في مؤسسات وزارتي التربية والتعليم العالي، على الحصول على مكاسب معنوية، ومكاسب لا يستحقونها في التقييم والدرجة، مقابل تقديم الهدايا، أو إقامة الولائم، وفي بعض الأحيان: تقديم الرشى والمبالغ المالية، متجاوزين القوانين والتعليمات، وغير محترمين للقيم التربوية والأخلاقية الصحيحة السليمة. حيث إن تقديم الطلبة للهدايا والرشى، وإقامة الولائم، يجعلهم في حالة من الغرور والتفاخر والتباهي أمام باقي زملائهم الطلبة، الذين لا يستطيعون أن يقدموا أو يفعلوا مثلهم، وهذه مسألة – للأسف – البعض يأخذها على أنها سهلة وبسيطة، أو أنها مقبولة وكأنها عرف اجتماعي سارٍ ومقبول ولا اعتراض عليه في مؤسسات التربية والتعليم العالي. يلاحظ في الدراسة الجامعية شيوع هكذا ثقافة أيضاً، رغم وجود تعليمات وزارية تمنعها. تتفشى هذه الظاهرة السلبية عند طلبة الدراسات العليا بشكل كبير جداً" حيث يحرج الطلبة، أو يفرض عليهم، بشكل مباشر أو غير مباشر، إقامة الولائم، وتقديم الهدايا، قبل أو بعد إجراء مناقشة رسائلهم أو أطاريحهم. وأحياناً – وبشكل مخجل جداً– يتم وضع المأكولات، والعصائر، والمكسّرات، أمام لجنة المناقشة علناً، أثناء إجراء المناقشة. رغم وجود التعليمات الوزارية الصريحة، التي – للأسف – أغلب الجامعات والكليات لا تلتزم بها. لا بل أحياناً كثيرة الأساتذة المناقشين لرسائل وأطاريح طلبة الدراسات العليا، وبعضهم من الإداريين في مؤسسة التعليم العالي، وللأسف الشديد، يتقبلون الهدايا، ولا يجدون ضيراً في تقبل دعوات الطلبة لحضور الولائم، التي قد تكون داخل أو خارج الجامعة. كما يلاحظ في كثير من الجامعات، خصوصاً في جامعات المحافظات، إضافة لما تمّ ذكره من تقديم هدايا وولائم، يقوم طالب الدراسات العليا بالتكفّل – على حسابه الخاص، بشكل كامل –، بالحجز في الفنادق القريبة من الجامعة للأساتذة المناقشين لرسالته أو أطروحته،

والقادمين من محافظات أخرى، للإقامة يوماً أو يومين، كما يتكّفل بنقلهم من محافظاتهم إلى الجامعة، ذهاباً وإياباً. هذه الظواهر السلبية، وغيرها، غالباً ما تثقل كاهل طلبة الدراسات العليا، وخصوصاً غير الموظفين منهم.

لذا يجب أن يتمّ تفعيل قوانين وتعليمات وزارة التعليم العالي، ومتابعة تنفيذها بشكل جدي، فإن تراكم هكذا صغائر فيها سوء وفساد ممكن أن يؤدي إلى فساد أكبر وأعظم. هناك تطلع كبير للإصلاح المؤسساتي والاجتماعي في بلدنا العزيز، وهذا بالتأكيد لا يمكن إنجازه بسهولة، ولكن يجب تحديد نقاط الخلل والاعتماد على القوة الإدارية النزيهة والشجاعة، والترويج لثقافة وطنية صالحة، تدعم من قبل المؤسسات الدينية والمجتمعية، وأن يكون هذا الدعم مبرمجاً وفق رؤية إصلاحية تربوية فكرية شاملة، لغرض النهوض بثقافة المجتمع ليكون في مصاف المجتمعات الراقية في العالم، وتحقيق التطور والنهوض الاقتصادي والتنموي في البلد.

والآن، فإن هدف ما ذكرناه سابقاً هو الإصلاح.. وننتظر تشابك الرؤى في فضاء الحوار الهادف، لأجل خير أمة العراق..❐

إن عملية الإصلاح لمؤسسات التعليم العالي ترتكز إلى عدة ركائز، أهمها: إعادة النظر بالقوانين والتعليمات الخاصة بالتعليم العالي، وتعديلها بما ينسجم مع معطيات العصر واحتياجات وإمكانات البلد المادية والبشرية، وإصلاح الهيكل التنظيمي والإداري للمؤسسات التعليمية، وتطوير ومتابعة الهيئة التدريسية، وحثّها باستمرار لرفع إمكانياتها العلمية والثقافية والتعليمية، وتفهم الطلبة وظروفهم وواقعهم الاجتماعي

جدل الإيمان بين الصورة والحقيقة

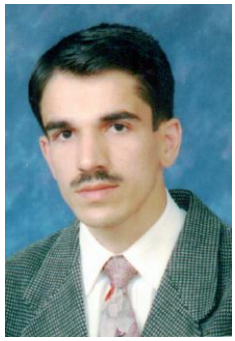

سعد الزيباري
Saadz76@yahoo.com

✍ هناك بون شاسِع بين الصُورةِ والحقيقة، بين التخيّلِ والواقِع، بين الفكرِ والعمل، فما نراهُ في الصّور الجامدة لا يمثّل ماهيةَ الشيء وحقيقتَهُ الكامِلة، وما نتخيّله في تصوّراتِنا قد لا يُطابق الواقِع جُملةً وتفصيلاً، وشتّان بين الفكرِ والممارسة، وبينَ القولِ والعمل، فهناك – إذاً – مسافاتٌ شاسِعة واسِعة بين ما هو مُوجودٌ بالقوّة وما هو مُوجود بالفعل، ما هو ماديّ وما هو معنويّ، بين صورةِ الشيء وحقيقته! فما نراهُ من لدن مجتمعاتِنا اليوم، هو مجرّد ادعاءٍ أكثر مِمّا هو حقيقة شاخِصة في فعلٍ وعمل، وهذا الحكمُ على الشيء – وإن كان فرعاً من تصوّرِهِ – ليسَ عامّاً ولا شامِلاً، ولكنّه مع ذلِكَ ينطبقُ على الكثيرِ من مُسلمي اليوم مِمّنْ توارثوا إسلامَهم عن آبائِهم وأجدادِهم، دون أنْ يعرِفُوا جوهرَ هذا الدِّين العظيم الذي يحمِلُونه في قلوبهم أو يدّعونه بألسنتهم، ودون أنْ يفهمُوا حقيقته كاملةً. فالدينُ لا يقتصرُ على أداءِ عباداتٍ جامدةٍ جافّة لا روحَ فيها ولا حركةَ في تضاعِيفها، كما يتصورّهُ الكثير من مُسلمي اليوم، ممّن دشّنوا قطيعةً شبه كاملة بين أقوالهم وأفعالهم، بين أفكارِهم وممارساتِهم! فالعباداتُ في الإسلام لها مظهرٌ مادّي برّاني، ولها جَوْهرٌ روحانيّ جوّاني، والجوهرُ هو هَدفُ هذهِ العبادات، ولكننا نسينا الجوهر وركّزنا على المظهر، فحياتُنا أصبحتْ غارقةً حقّاً بالمظاهِر الخادِعة التي لا تسمن ولا تغني من جوع، تلك المظاهر

الزائفة التي بدأتْ تغطّي حياتَنا كلّها من البابِ إلى المحراب، كما يُقال!

وهذا الاهتمامُ المبالغ فيهِ بالمظاهر جعلنا جميعاً مُمثّلين دون أن ندّخر جهداً يُذكر في تعلّم التمثيل، ودون أنْ نعرفَ الغايةَ التي وُضِعَ من أجلها، فكلُّ واحدٍ مِنّا أصبح يمثّلُ تمثيلاً في بيته، وفي مدرسته وكلّيته، وفي مكان عمله، فنحنُ نؤدّي أدواراً مسرحيَّة في واقعنا. فكلامُنا هو عبارةٌ عَنْ نصُوصٍ تمثيليَّة لا غير، وحركاتُنا هِيَ حركاتٌ لا غائيّة من أجلِ إرضاءِ ميولِ الآخرين، في حين أنَّ غيرَنا مِمّنْ يعتنقُ إسلامَنا لا يعتنقه إلاّ عن رغبةٍ واقتناعٍ واعتقادٍ كامِل. هذا هو الفرقُ الجوهري بيننا وبين غيرِنا كتصنيف – لأنّ الإسلامَ لا يُفَرِّقَ بينَ مُعتنقيهِ مهما اختلفتْ لُغاتهم وتباينتْ ألوانُهم –، فهو يعرفُ قيمةَ الإسلامِ الذي اعتنقَهُ، لذلك تراهُ يبذلُ أغلى ما عنده من أجلِ دينه الذي اعتنقه بصدقٍ وإيمان، ويرى راحته في نُصرةِ عقيدتهِ التي لامَسَتْ شِغافَ قلبهِ وحرّكتْهُ لسلُوكِ كُلِّ الطُرق لنشرِ ما عندَهُ من قيمٍ ربَّانيَّة، بشَّر بها دينَه الإسلاميِّ الحنيف. فليسَ الإسلام عنده مجرّد سلُوكياتٍ جامدة لا معنى لها ولا مغزى من ورائِها، وإنّما هو عقيدة وحركة وتفاعُل وتميّز وحضارة، ووظيفة اجتماعيّة ومعرفية، فهو لا يختزلُ رسالةَ الإسلامِ إذاً في صُورةٍ مؤطّرة، كما هي عند الكثير من مُسلمي اليوم، وإنما يراها – كما رآها حسنُ البنّا رحمةُ اللهِ عليهِ – رسالةً امتدّتْ طولاً حتى شملت آباد الزمان، وامتدت عُرضاً حتى انتظمت آفاق الأُمم، وامتدّتْ عُمقاً حتى استوعبتْ شؤون الدّنيا والآخِرة(١). ولكي نميِّز بين مَنْ عرفَ إسلامَهُ بوصفهِ صُورةً وظاهِرةً شكليّة، وبين من عرَفه بوصفه حقيقةً وجوهرةً معنويّة، نستشهدُ بأحدِ المواقِف المؤثّرة التي حصلتْ لمُسلمةٍ مُنقّبة، كانتْ تتسوّقُ في أحدِ أسواق (فرنسا)، وبعد اختيارِ سلعها وحاجاتها، التجأتْ إلى صندوقِ الحساب، وكانتْ تقفُ خلفه امرأةٌ مُتبرِّجةٌ مِنْ أُصولٍ عربيّة، فنظرتْ إلى المنقّبةِ نظرةَ استهزاء، ثمَّ بدأتْ تُحْصِي السِّلع، وتقومُ برميها بصُورةٍ غير لائِقة، لكنَّ المنقّبةَ لم تحرِّكْ ساكِناً، بل ظلّتْ هادئةً مِلْؤُها الوقار، الأمرُ الذي فجّرَ غضبَ تلكَ المحاسِبة العربيَّة، فلم تصبِرْ على ذلك، وقالت لها مُستفزّةً: لدينا في (فرنسا) مُشكلاتٌ كثيرة وأزماتٌ عديدة، ونِقابُكِ إحدى هذهِ المشكلات التي نعانيها، فنحنُ هنا للتِّجارة، وليسَ لعرضِ الدّينِ أو التاريخ، فإذا كُنْتِ تريدينَ مُمارسةَ الدّين، أو وضعَ النقابِ، فاذهبيْ إلى وطنكِ، ومارِسِي الدّينَ كما تشائين. توقّفتِ المنقّبةُ عن وضعِ السِّلع في الحقيبة، ونظرتْ إليها نظرةَ إشفاق، ثُمَّ قامت بكشفِ النقابِ عن وجهها، وإذا هي شقراءُ زرقاءُ العينين، وقالتْ: "أنا فرنسيَّةٌ أباً عن جَد، هذا إسلامي وهذا وطني، أنتُم بِعْتُم دينَكُم ونحنُ اشتريناهُ"! فتلكَ المرأةُ العربيّةُ قيَّمتِ المنقّبةَ مِنْ خلالِ مظاهرِها الخارجيّة، فالمظاهِرُ أصبحتْ هِيَ المعيارُ الأمثلُ والمقياسُ الأفضلُ لدى الكثيرِ مِنْ مُسلمي اليوم.

ومِنَ الرسُومِ السَّاخِرة التي أثارتْ فضُولي، كان منظرُ راهبةٍ مسيحيّة مُلفّعة بوشاحٍ أشبهُ بالحِجابِ مع راهِبٍ مسيحيّ، وفي الصُورة منظرٌ شخص يمرُّ خَلْفَهُما ويتصوَّر أنهما مُحجَّبتان، الأمرُ الذي دفعهُ

للتعيير بهما، فلمّا التفتتا إلى الخلف، اعتذر إليهما، وقال: عفواً حَسِبْتُكما مُسلمتين. فالمظهرُ الخارجيّ إذاً كان هو المعيارُ النمطيّ الجاهز لتقييم صُورةِ الآخَر، وهذهِ الصُورةُ النمطيَّةُ هي التي لا زالتْ تهيمنُ علينا في تقييمِنا لغيرِنا، وتجعلُنا نحكمُ على غيرنا سلباً أو إيجاباً. فما أحرى بنا أن نعيدَ الميزان الحقيقيّ والمعيارَ الصّادِق في أحكامنا التي نُطلقها جُزافاً على غيرِنا ليلَ نهار!

فنحنُ نرى لدى الكثيرين من مُسلمي الشرق شغفاً بالمظاهِر إلى حدِّ الاستغراق، فحياتهم غارقةٌ بالمظاهِر حتّى الشمالة، فصلاتُهم صارتْ جافّة جامِدة لا روح فيها، وزكاتهم أصبحتْ باباً واسِعاً للشُّهرة، وزيارتهم إلى الحجِّ والعُمرة تحوّلتْ إلى سياحةٍ لا ترى فيها آثار العِبادة، وصومُهم صار ميداناً للأكل الشَّره، أمَّا الجوهر فصار معدُوماً أو في حكم المعدُوم. أمّا القرآن، فقد هجرهُ المسلمون – كما يقول الشيخ سيِّد سابق – هجراً غير جميل، فأخذت تعاليمه تتقلّصُ مِنَ المجتمع شيئاً فشيئاً، حتّى لم يبق منه إلاّ آيات تردّد للتبرُّك والتغنِّي، واستنزال الرحمات. أمّا أنه عقيدة تهدي، وعبادةٌ تزكّي، وخلُقٌ سامٍ، وحكمٌ عادِل، ودستورٌ شامِل، فإنه لا يخطرُ لهم على بال، فجزاهم الله جزاءَ مَنْ أهمل كتابَه، وأعرضَ عن تعاليمه"(٢)، – وإذا ما قرأُوه كانتْ قراءتُهم عابرةً وسريعةً دون تدبّر وتأمّل وتفكّر، على الرغم من أنّهُم يقرأون قولَهُ تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(٣). ورُبّما يستمِعُون إلى قَوْلِ ابن مسعود (رضي الله عنه): "اقرؤوا القرآنَ وحرِّكُوا به القلُوبَ، ولا يَكُنْ همُّ أحدِكُم آخرَ السُورة"، ولكنّهُم على العكسِ مِنْ ذلِكَ قرأوا القُرآن قراءةً عابرة، لذا لَمْ تتحرّكْ قلُوبهم، ولم تهتزّ مشاعِرُهم؛ وكيف تتحرّك وتهتزّ إذا كان همُّهُمْ آخِرَ السُّورةِ، وإذا كان دأبُهم الإكثار من ختمِ القرآن، دون فهمٍ وتدبّر واستبصار. وكان الأَوْلى بهم أنْ يقرأوا القرآنَ بتعقّلٍ وتعمُّقٍ وتدبُّر للوصُول إلى التفسير الصحيح ومن ثَمّ إلى التأويل السّليم، ذلِكَ التأويلُ الّذي يُسمَّى عند بعضِهم بـ"فهمِ الفهم"، أو "فنِّ تجنُّبِ سُوءِ الفهم"، أو "فَهْمِ الكلماتِ فَهْمَاً ثانياً"(٤). يقول (ابن عربي) في هذا المقام ما نصُّه: "ألا ترى أنّ العالِمَ الفَهِمَ المراقِبَ يتلُو المحفوظَ عندَهُ مِنَ القرآن؛ فَيَجِدُ في كُلِّ تلاوة معنىً لم يجدْهُ في التلاوةِ الأُولى، والحروفُ المتلوّة هِيَ بعينِها، ما زاد فيها شيءٌ ولا نقص، وإنّما الموطِنُ والحالُ تجدَّدَ، ولا بُدَّ مِنْ تجدُّده؛ فإنّ زمانَ التلاوةِ الأُولى ما هو زمانُ التلاوة الثانية"(٥). فالتأمُّل إذاً هو قرينُ الفهم، والفهمُ قرينُ التجربة، والتجربة هِيَ التي تقودُك إلى الحكمِ الصحيح. ولكي نحقّق هذا الغرضَ علينا أنْ لا نتلُوَ القرآن بالصُورةِ التقليديّة التي تكتفي بالقراءة السطحيّة العابرة، وإنما أن ندخلَ إلى الأعماق والمقاصِد والغايات. وتفيدُنا في هذا المقام تجربة الفيلسوف (محمّد إقبال)؛ عندما قال: "أشدُّ ما أثّر في حياتي نصيحةٌ سَمِعْتُها من أبي: يا بُنيَّ، اقرأ القُرْآن كأنّه أُنزل عليك"(٦). فعلينا أنْ نقرأ القرآن كما لو أُنزِل علينا، حينها نرى أشراقاتٍ روحيّةً وفتوحاتٍ ربّانيّةً ونظراتٍ معرفيّة، ونرى الروح في طُهرها وجمالِها وجلالِها، فنطلب المزيد والمزيد. وفي هذا المعنى قال أميرُ المؤمنين

عثمان بن عفّان (رضي الله عنه): "لَوْ طَهُرَتْ قُلوبُكم ما شَبِعْتُم مِنْ كلامِ اللهِ عزَّ وجلّ"([٧])، ولوجدنا في القرآن في هذا الزّمان أمُوراً لم يجدها غيرُنا في زمانِهم؛ وذلِكَ لأنّ في القُرآن عِلْمُ الأَوّلينَ وَالآخِرينَ وَمَا مِنْ شيءٍ إلاَّ وَيُمكنُ استخرَاجهُ منهُ، لِمَنْ فَهّمَهُ اللهُ تعالى، ولكننا لا ندخر جهداً في مُدارسةِ القرآن والتأمّل في آياته، وإذا ما اكتشفَ العلماءُ الغربيُّون أشياءَ في هذا الكون الفسيح الذي يحيطُ بنا، بناءً على الأبحاثِ العلميّة الجادّة والدراسات المعمّقة التي أنجزوها في سبيل اكتشافاتِهم، قُلْنا: إنّ هذهِ المكتشفاتِ موجودةٌ في القرآن الكريم، وهي حقّاً موجودة ومبثوثة في الوحي الإلهي، ولكن السؤال لماذا نحنُ لم نقدرْ على اكتشافِ ما هو موجودٌ في الكتاب الّذي بين أيدينا؟ لماذا نبخس النّاس أشياءَهم، لماذا لا نجتهد مثلما اجتهد غيرنا؛ فوطأوا سطح القمر، ولامستْ مَركباتهم ترابَ المريخ، ولا زالتْ أعينُهم مفتوحةً ترنو نحو الفضاء؛ لاكتشاف المزيد من أسرار هذا الكون الفريد! أمّا نحن فلا نجيد حتّى الآن السّيرَ على الأرض، نتمرّد على النظام، ونتحايلُ على القوانين، وهمّنا مراقبة النّاس في حلّهم وترحالِهم، وأكل أجسادِهم بالغيبة، وتعييرهم بما يكرُهون، وتثبيطِ عزائِمهم، وتعزيز تقاعسهم، وتبرير ما نحنُ عليهِ من تخلّف وتراجُع حضاريّ بحجُج واهية، ومن ثم تأويلهِ تأويلاً فاسِداً لا يستندُ إلى علمٍ أو دليل، ونحن مع ذلك ندّعي الإسلام، وقد اختزلناهُ في بعض العبادات التي نمارِسها بعيداً عن روحها وجوهرِها الحقيقيّ.

فنحنُ عالةٌ على غيرِنا، نأكلُ مِمّا يزرعونه، ونلبسُ مِمّا ينسجونه، وهذا ما أكّدَهُ (جبران خليل جبران) واصِفاً حالَ أُمّتِنا التي أخلدتْ إلى الأرض واتّبعت أهواءها؛ فقال: "وَيْلٌ لأُمَّةٍ تكثرُ فيها المذاهِبُ والطّوائِفُ وتخلُو مِنَ الدّين، ويلٌ لأُمَّةٍ تلبسُ مِمَّا لا تنسُج، وتأكلُ مِمّا لا تزرعُ، وتشربُ مِمّا لا تعصر، ويلٌ لأُمّةٍ تحسبُ المستبدّ بطلاً، وترى الفاتِحَ المذِلّ رحيماً، ويلٌ لأُمّةٍ لا ترفعُ صوتها إلاّ إذا مشتْ بجنازة، ولا تفخرُ إلاّ بالخرائبِ، ولا تثور إلاّ وعنقها بين السّيفِ والنطع. ويَلٌ لأُمّةٍ سائِسُها ثعلب، وفيلسُوفها مُشعوذ، وفنّها فنّ الترقيع والتقليد، ويلٌ لأُمّةٍ تستقبلُ حاكمَها بالتطبيل وتودّعهُ بالصّفير، لتستقبلَ آخَر بالتطبيل والتزمير"([٨]). هذا هو ثمارُ ما أسماهُ (فهمي هويدي) بـ"التديّن المنقُوص" الّذي يعني به الفهم المنقوص للدّين: ذلِكَ الّذي يحصرُه أو يُحاصِره، إمّا في شكلٍ أو هيئةٍ بالمعنى التقليديّ المتعارف عليه، أي ذلِكَ الفهم الشكليّ الأُخروي للدّين – إنْ صحّ التعبير – الذي يعزلهُ عن دورةِ الحياة وهمُوم النّاس، ويعتبر الدّينَ علاقةً قلبيّة بينَ الإنسانِ وربّهِ، بوصفهِ أمراً يخصُّ الخالِق، ولا شأن لهُ بالخلق([٩]). نعم، هذا هو التديّن الذي نراهُ ونعيشهُ يوميّاً في حياتنا، التديّن الفارغ من مضامين اجتماعيّة وفكريّة وحضاريّة، التديّن الذي يكتفي بالقشور دون الأعماق، التديّن الذي يفصلُ العبادة عن الحياة، والإيمان عنِ السلوكِ والعمل الصّالِح، ويتمعّنُ في الاهتمامِ بالمظاهر الشكليّة التي فقدت فعاليتها في عالم اليوم. لذا، فمشكلتُنا – بعبارةِ مالك بن نبي – ليستَ أن نعلّم

المسلمَ عقيدةً هو يملكُها، وإنما المهم أن نردَّ إلى هذهِ العقيدة فاعليتها وقوّتها الإيجابيّة وتأثيرها الاجتماعيّ". فالفهمُ المنقُوص للدّين هو حصادُ تربيةٍ إسلاميّة قاصِرة. لقد زرعْنا في ضمائِرِ النّاسِ وعقولِهم بذور الفهم الأُخروي أو الانسحابيّ عنِ الدنيا(١٠). والأنكى من ذلِكَ أن جيلَ اليوم بدأ يبتعدُ رويداً رويداً عن الآخرةِ أيضاً، بعد أن ترك الدنيا لأصحابها وأصبح عالةً على غيره، يعيشُ منزوياً في زاويةٍ قصية عن همومِ المجتمع وحراكِهِ الحضاريّ!

فالعُزلةُ الفكريّة – بتعبيرِ الشيخ محمد الغزاليّ – عنِ الكونِ هي انحرافٌ عنِ الخطِّ الإسلاميّ، وفرارٌ مِنْ تكاليفِ اليقظةِ الذهنيّة، التي فرضها علينا القرآن، بَلْ قد تكونُ طريق العجزِ عن مُقاومةِ الباطِلِ ومُؤازرةِ الحقّ(١١). هذا، وقد أثارَ الشيخُ الغزاليّ أيضاً سِجالاتٍ معرفيّة عن حاجتنا الحضاريّة إلى العلوم الطبيعيّة؛ فقالَ مُتسائِلاً: ترى أينَ العِلم الّذي يُحكم علاقتَنا بكتابنا وينقلنا إلى جوِّهِ الممدُود بينَ الأرضِ والسّماء؟ أينَ العِلم الّذي يقدرنا على أنْ نثيرَ الأرضَ ونُعَمِّرَها كما أثارِها وعمَّرَها غيرنا(١٢). ومن هُنا وجب "كسرُ جدارِ العُزلة بينَ علُومِ الشريعةِ والحياة، وإعادةِ الدّم إلى شرايينها المتصلّبة، ومنحها الحيويّة والمرونة التي تمكّنها مِنَ التموضُع في قلبِ العصر، لا بعيداً عنه"(١٣). إن مُعضلات العصر الحديث، ومُستجداته، تمثّلُ تحدّياً مُلحّاً للعقلِ المسلم، وهي بمثابةِ اختبار لقُدرتهِ على الفاعليّة في صميمِ العصر، من خلالِ اعتمادِ الأصُول الإسلاميّة وتحكيمها: القُرآن، والسُنّة، والسّوابق الفقهيّة(١٤). ويمكنُ القول: إنه كُلّما خمدت حركة الفقه في دينِ الله، زحفتِ العاداتُ والتقاليد والبدع لتحلَّ مكانه في حياة النّاس، ذلك لأنَّ من شأنِ البشر أن يجعلُوا الدّين – الذي هو منهجٌ ربانيّ مُطلق فوق الزّمان والمكان – واحداً من عناصر ثقافتهم، بدل أن يكون الموجّه لتلك الثقافة والحاكِم عليها، وذلك ميسُور عليهم، ولا سيَّما حين تكون هناك بعضُ الملابسات بين العاداتِ وحقائِق الدين(١٥).

ومن هنا فنحنُ أحوجُ ما نكون، كما يقول العلامة (أبو الحسن الندوي) – رحمه الله – إلى "حقيقةِ الإسلامِ والإيمان، للظفرِ بالحقائِق المبثوثةِ في العالَم. أمَّا صورةُ الإسلامِ وحدَها فهي عاجِزةٌ عَنْ قَهْرِ هذهِ الحقائِق والانتصارِ عليها، حتّى وإن كانت حقائِق مَمزُوجة بالباطِل، لأنَّ الصورةَ المجرَّدةَ لا تنتصِرُ على أيِّ حقيقةٍ"(١٦)، وقال أيضاً في موضعٍ آخر: "إنّ الصُورةَ لا تستطيعُ أن تسدّ مكانَ الحقيقة وتنوبَ عنها، ولا يُمكنها أن تمثل دور الحقيقةِ في الحياة وتأتي بهِ من عملٍ ونشاط.. ولا يُمكن أن تقاومَ الحقيقةً وتكافِحها، فإذا وقعَ صِراعٌ بينهما انهارتِ الصُورةُ، ولا يُمكنها أن تحتمِلَ عِبء الحقيقة"(١٧).

فشتّان إذاً بين صورةٍ جافّةٍ جامدةٍ لا روح فيها، وبين حقيقةٍ يمكن ترجمتها في حياتنا العامّة إلى صورةٍ مواقِف نابضةٍ بالحياةِ والحركة، وعامِرة بسلُوكٍ حيّ وشاخِص. فما نراهُ اليومَ بأعيُنِنا هو عبارةٌ عن حركاتٍ شكليَّة جاسِئة جامِدة، لا تلمسُ فيها حرارة الإيمان وطهارة التقوى، فالإيمان ليسَ لوحةً فنيةً تُعلّق على الجُدران، والإسلامُ ليسَ صُورةً

أو يافطةً يُزيَّن بها الميدان، وإنما الإيمان عقيدةٌ وموقف وسلُوك، والإسلامُ هُوية وثورةٌ وتميُّز، والإيمان – كما يقول العلامة القرضاوي – ليس قولاً يُقال ولا دعوى تُدّعى، إنَّما هُوَ حقيقةٌ يمتدُّ شعاعُها إلى العقلِ فيقتنعُ، وإلى العاطفةِ فتجيش، وإلى الإرادةِ فتتحرّك وتحرِّك([١٨]). وكما جاء في الأثر: "ليس الإيمانُ بالتمنِّي ولا بالتحلِّي، ولكن ما وقّر في القلبِ وصدّقهُ العمل"([١٩]). ومن هُنا ردّ القرآن الكريم على الأعْرابِ على دعوى إيمانِهم، لأنّهُ لَمْ يتجسّد في أفعالِهم، وأنهم لا يعدّون مؤمنين، بقولهِ تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾([٢٠])، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾([٢١]). ومن هنا يظهرُ لنا أنّ "إيمان الكثيرِ مِنّا – أفراداً وجماعاتٍ – بالقيم التي ندّعيها، لم يدخُلْ بعدُ شِغافَ قلُوبنا، والدّليلُ على ذلِكَ هو التناقض بين أقوالِنا وأفعالِنا، وعدم الاستعدادِ لدفعِ فاتورة الإيمان"([٢٢]).

فما أحرى بنا إذاً أن نجعلَ صُورةَ إسلامِنا حقيقةً عمليَّةً تتحرّكُ شاخِصةً في أرضِ الواقِع، ونعيدَ صلتنا بجوهر ديننا الّذي يدعو إلى التعارُف والتكافُل والتواصُل، ويسهمُ في إعمالِ الفكر وإثارةِ الخيال، والسّيرِ في الأرضِ، والعروج إلى السّماء، ويمهِّد للخروج من أبراجنا العاجية والنزول إلى الحياة بهمُومها ومشكلاتها، والتحرُّر من أسرِ نزواتنا وأغلالِ أهوائنا، التي لا زالت تعيق مسيرنا وتُبطّئ حراكنا الحضاريّ الفاعِل، وتمنعُ إشراقاتِنا الروحيّة والفتوحاتِ الربانيّة التي تثوّر عقولنا وتعيدُ إليها فاعليتها وتحرِّرها من عزلتها التاريخيّة الخانقة! فهل بالإمكان – يا تُرى – لصُورِ التديُّن النمطيّ الموروث، وأشكالِ التعبّد العرفيّ المألُوف، أنْ تتغلّبَ اليوم على عاداتِنا وأعرافِنا وسلُوكياتِنا التي قد تناقِضُ جوهرَ الدّين القويم؟! وهل يمكننا أنْ نتحرّرَ مِنْ سُلطةِ الأهواءِ التي تأخذ بخناقِنا، وننعتقَ مِنْ قبضةِ الأيديولوجيّات السّاحِرة التي تتحكّم بوعينا، ونتخلّصَ من ربقة العاداتِ والتقاليد التي تطوِّقُنا، ونتجاوزَ الأفكارَ السلبيّة التي توجِّهُ عقولَنا؟ فنحنُ إذا رُمْنا جواباً لا يمكننا البتة أنْ نتخلّص من تراكماتِ تاريخنا السلبيّ، ونتحرّر من ربقة الآبائية التي تطوِّق أعناقنا، ما لَم نرجع إلى جوهر إسلامِنا الحقيقيّ، ونجعلَ الإيمان في قلوبنا شُعلةً مُتّقدة توجِّهُ سلُوكنا نحو طريقِ الخيرِ والهداية، ونعيدَ إلى العباداتِ – التي نمارسها ليل نهار – وظيفتَها الاجتماعيّة الغائيّة الغائبة. فـ"العباداتِ في الإسلامِ ليستْ هي الفرائِضُ وحدَها، إنّما كلُّ سلُوكِ المسلم وكلُّ فعلٍ نافِع يقومُ بهِ عبادةٌ، إذا خلصت فيه النية"([٢٣]). ومن هُنا وجبَ على كُلِّ مسلم أنْ يكون مِعْطاءً بقَدْرِ ما يستطيع، فَخَيْرُ النَّاسِ إلى الله أنفَعُهم للنَّاس، وأصبرُهم على أذى النّاس، وأحبُّ الأعمال إلى الله سرورٌ تُدْخِلُه على مُسْلِم، أو تَكْشِفَ عنه كُرْبة، أو تَقْضِي عنه دَيْناً، و(كلُّ معروفٍ صدقة)([٢٤]).

وقمينٌ بنا أيضاً أن نتحرَّر مِنْ أُسارِ التبعيّة التي توَجِّهُنا إلى الخراب أو الأرض اليباب، وأن نمارس عباداتنا بصُورةٍ نقية صافية لا كَدَر فيها ولا غَبَش، بعيداً عن التقليد

والتبعية التي ما أنزل الله بها مِنْ سُلطان، "فالعقيدةُ لا تُبْنى لا على تقليدٍ ولا على تبعيَّة، فالتقليدُ في أصلهِ مَرْفُوضٌ في العقيدة، ولو رجعْنا إلى كُتب التَّوحيد، لَوَجدْنا الحقيقةَ الأُولى هي أنّ العقيدةَ الصحيحةَ لا يُمكن أنْ تقلِّدها، ولا يمكن أن تأخذها اتّباعاً، ولا يمكن أن تقتبسها اقتباساً أعمى"([٢٥]). والدليلُ على ذلك أن الخطابَ القرآني قد شدَّد الوصية بأولئكَ الذين يُقلِّدون آباءهم تقليداً أعمى، ويحذون حَذْوَهُمْ وإن كانوا على ضلالة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾([٢٦]). فالباري عزّ وجلّ في مُحْكَم تنزيلهِ نَعَى على الكُفّار تقليدَهم لآبائهم، رافِضاً منهم مقولتهم التي لا ترتكِزُ على سندٍ علميٍّ أو دليلٍ عقلي، وهي: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾، ومِنْ حُجج المكذبين أيضاً ما حكى الله عنهم: ﴿وكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ * قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾([٢٧]). وتؤكِّد هذهِ الآية – كما يقول الدكتور عبدالكريم بكّار – أن المترفين في الغالب هم الذين يُواجهون دعواتِ الرُّسل؛ وذلك لأنّ الرسالةَ السماويّةَ ستُحدث تغييراً في القيم السائدة، ومن ثم تمثلُ تهديداً مباشراً لمصالحهم ومكاسبهم، لذا كان جوابهم دائماً: أنّ ما تقوم عليه حياتهم الاجتماعيّة هو ما وَرِثوهُ عن آبائِهم وأجدادهم من الأعرافِ والعاداتِ والتقاليد، وما حياتُهم إلاّ استمرارٌ لحياةِ سلفِهم الذين يُفاخرون بهم. والخلفُ لا يكتفي عادة بالتلقّي الأصمِّ عَنِ السلفِ، لكنه يُنشئ من الفلسفات والمقولات والخرافات ما يمنح ما ورثه – مِنْ تقاليدَ – صفة القداسة والاحترام، مِمَّا يجعلها مِحْوراً للمنظومات العقديّة والفكريّة والرمزيّة والتاريخيّة! وهذا كلّه طبيعي، لأنه في حالة اندراس معالم المنهج تُصبح السّوابق التاريخية هي المنهج، ومِنْ ثَمَّ كان من مهمّاتِ المصلحين وضع السّوابق التاريخية في إطارها الصحيح. وإذا كان المنهج الحق يسعى إلى تجديد ذوات مُعتنقيه، ونقدها، واستيعاب العظات والعِبَر من حياةِ الأولين، فإنّ الآبائية تعني تعطيل تراكُم الخبرة البشريّة وتقويمها، لأن ذلك يُخِلُّ بالمكانة التي أنزلوا آباءَهُم فيها([٢٨])!

ومن هنا فالإنسانُ – حسب تعبيرِ النابلسي – مأمورٌ أن يتعلّم العِلْمَ الحق، والعِلْمُ "مقولةٌ مُطابقةٌ للواقِع، عليها دليل"، فإذا خالَفْتَ الواقِعَ فهذا هو الجهلُ، وإذا افتقرتَ إلى الدّليل، فأنتَ مُقَلِّد([٢٩])، وإذا افتقرتَ إلى اليقين، فهذا هو الظنُّ، أو الشكّ، أو الوَهْم. فأنتَ بين شكٍّ، ووَهْمٍ، وظنٍّ، وتقليدٍ، وجهلٍ، ولَمْ يبقَ إلاّ العلم، وهو مقولةٌ مُطابقةٌ للواقِع عليها دليل. إنْ لم يكن لكَ الدليل، فأنت في دائرة التقليد، وإنْ لم يكنِ الواقِعُ، فأنتَ في دائرةِ الجهل، وإن لم يكنِ اليقينُ، فأنتَ في دائرةِ الشَكِّ والوَهْم والظنّ([٣٠]).

وقمينٌ ذكرهُ هنا أنه "لَيْسَ كُلّ ما يرثه المرءُ عن آبائهِ وأجدادِه رديئاً – لأنه لا يوجدُ جيلٌ مختصٌّ بالرذائِل – لكن الرديءَ هو أن نفقُدَ القدرةَ على الحُكم على تلك الموروثات،

ونُحلّها محلَّ القبُول والاقتداء! وإذا تأمّلْنا قضيّة التقاليد الموروثة وقبولها دون تبصُّر ولا تمييز، وجدناها واضِحةً في جوابِ المترفين للرسل، حين قالُوا لهم: ﴿أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾؟([٣١])، فكان جوابُهم: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾([٣٢]). وفي هذا الجوابِ القاطعِ الخالي مِنْ أيِّ تدليل أو بُرهان، توصيفٌ آخر للآبائية، وهو أنَّ التقليدَ، وإن بُني حولَهُ بعضُ الفلسفات التسويغيّة، إلاّ أنه يظلُّ مع الدليل والبُرهان على طَرفَيْ نقيض، فهو ظاهرة لا دليلَ لها سِوَى وجودها فحسب([٣٣])!

ومن المظاهِر الموروثةِ أيضاً الحكمُ على الآخرين من غير دليل، أو الحكمُ بدليلٍ فاسِد. ومِنَ المواقِف الطّريفة التي يمكنُ أنْ نستشهدَ بها على مسألةِ الحُكْمِ على الآخرين بدليلٍ فاسِد، ما حكاهُ الشيخ (محمَّد حسَّان) بنفسهِ – عندما كان يحاضِرُ يوماً في السعوديَّة – وفي محاضرتهِ تلك كان يستشهدُ كثيراً بسيِّد قطب – رحمه الله – فقالَ لهُ أحدُ الحاضرين: "لِمَ تستشهدُ كثيراً بأقوالِ سيِّد قطب. إنّهُ فاسِق!"، فقالَ له: لماذا؟، فقال: إنه كان حليقَ اللحية، فأجابَهُ: "إن إسلامَنا بحاجةٍ إلى شعُورٍ حي لا إلى شَعْرٍ من دون شعُور". فالحكمُ على الآخرين بهذهِ الصُورةِ النمطيّة الجاهِزة التي عرضناها، يمثِّلُ ضَرْباً من ضرُوبِ التقليدِ الأعمى التي وقعَ في مطبّاتِها الكثير من مُسلمي اليوم، ممّنْ يأخذون الأحكامَ دون إعمالِ العقلِ واعتمادِ المنطق. وهذا النمطُ من الأحكام نجدُه لدى أشخاصٍ يفكّرُون بعقُولِ غيرهم، ويتحرّكُون بقيادةِ غيرِهم، وليسَ لهم إلاّ الحُكْم على الآخرين في ظلِّ محاكمهم الجائِرة ،التي توزِّعُ على النّاسِ صكُوكَ الغفران أو عهودَ الحِرْمان، فأثاروا بذلك صراعاتٍ عدوانيّة عنيفة بين طبقاتِ المجتمع الواحِد، فاحترقَ الجميع في محرقةِ حرُوبٍ أشعلُوها دون جدوى، وقدّم الجميع فاتورةَ ثاراتٍ جنونيّة مُفتعلة، انتهت بالخسران المبين للخاسِر والمنتصِر. لذا، فعلى قادةِ الأمّةِ وعقلائِها أن يُعيدوا التوازن إلى ميزانِنا المختلّ، وأن لا يتركُوا النصُوص مُلكاً مُشاعاً لكُلِّ مَنْ هبّ ودبّ، يفسِّرُها تفسيراً بعيداً عن مقاصِدها، ويؤوِّلها تأويلاً فاسِداً بعيداً عن معانيها، وأن يعيدوا الصِلّة بين النصُوص والواقِع الّذي نعيشهُ؛ وذلِكَ لأنّ "النصُوصَ وحدها لا تصنعُ شيئاً، وأن المصحفَ وحدهُ لا يعملُ حتّى يكونَ رَجُلاً، وأنَّ المبادئَ وحدَها لا تعيشُ إلاّ أن تكون سلُوكاً.. ومن ثمَّ جعلَ محمّد (عليه السلام) هدفَه الأوّل أنْ يصنعَ رجالاً لا أنْ يُلْقِيَ مواعِظَ، وأنْ يصوغ ضمائرَ لا أن يُدبِّج خُطباً، وأنْ يبنيَ أُمّة لا أنْ يُقيمَ فلسفةً"([٣٤]).

فلا جدوى للأفكارِ مهما كانتْ قوّتها ومضاؤُها إنْ لم تتحرّكْ في أرضِ الواقِع، ولم تَكُنْ سلُوكاً ينفعُ العباد ويرتقي بالبلاد. وإلى هذا المعنى ذهبَ (سيّد قطب) بقولِه: "وما كانتِ الأفكارُ المجرّدةُ وحدَها لتعيشَ، وإنْ عاشتْ، فما كان لها أنْ تدفعَ بالبشريّةِ خطوةً إلى الأمام. كُلُّ فكرةٍ عاشتْ، قد تمثّلتْ بشراً سويّاً. وكُلُّ فكرةٍ عملتْ، قد تحوّلَتْ حركةً إنسانيّة. ولقدِ انتصرَ (محمّدُ بن عبدالله)، يومَ صاغ من فكرةِ الإسلام شخُوصاً، وحوَّلَ إيمانَهُمْ بالإسلامِ عملاً"([٣٥]). فقوّةُ الكلمةِ من قوّةِ الفِكرة المكنونة فيها، وقوّتها من تطبيقها

وتحقيقِها، فلا جدوى لفكرةٍ ليسَ من ورائِها عمل يُجدي النّاسَ في دنياهم وأُخراهم، وفي معاشِهم ومعادِهم، فالعملُ هو الميدانُ التطبيقيّ للفكر، والسلُوك هو الترجمانُ الموازي للتصوّر. ومن هُنا فـ"إنَّ أفكارَنا وكلماتِنا تظلُّ جُثثاً هامِدةً، حتَّى إذا مِتْنا في سبيلِها أو غـذّيناها بالدِّماء، انتفضَتْ حيّةً، وعاشَتْ بين الأحياء. فإلى الّذين يجلسُون إلى مكاتبهم – يكدّون قرائِحَهُم، لينتقُوا اللّفْظَ الأنيق، ويُنَمِّقُوا العبارةَ الرنّانة، ويُلفِّقوا الأخيلةَ البرّاقة – أتوَجّهُ بالنصيحةِ: وفِّرُوا عليكُم كُلّ هذا العناء؛ فإنّ ومضةَ الرّوح، وإشراقَ القلب، بالنّارِ المقدّسة، نارَ الإيمان بالفِكرة.. هو وحدَهُ سببُ الحياة.. حياة الكلمات وحياة العبارات"([٣٦]). فالكلماتُ الناريّة والعِبارات المجنّحة والأساليب المنمّقة، شأنُها شأن المظاهِر الشكليّة الجامِدة الفارغة من مضامينها الغائيّة، إنْ لم تحملْ في أطوائِها مدلولاتٍ معرفيّةً تحرِّكُ طاقاتِنا الخامِدة، ولم تشتملْ في تضاعيفِها على قيمٍ جماليّة تُبهج الروح وتهذّبُ الضميرَ والوجدان. ومن هُنا فـ"إنّ السِرَّ العجيبَ ليسَ في بريقِ الكلماتِ ومُوسيقى العِبارات؛ إنّما هو كامِنٌ في قُوّةِ الإيمان بمدلُولِ الكلمات وما وراء المدلولات! إنّهُ في ذلِكَ التصميمِ الحاسِم على تحويلِ الكلمةِ المكتوبة إلى حركةٍ حيّة، والمعنى المفهُوم إلى واقِعٍ ملمُوس"([٣٧]).

فالسلُوك هو الترجمان الحقيقيّ لإيماننا الذي ندّعيه دائِماً، فالسلُوك هو الذي يحبطُ الادعاءاتِ الكاذبةَ التي نتشدّقُ بها، والانتفاخاتِ الزائفةَ التي نتباهى دونها، فأخلاقُنا العمليّة في واقعِنا الحيّ هي المعيار الحقيقي للقيم التي ندّعيها أو نتحدّثُ عنها. فما أسهل أن نتحدّث عن القيم والأخلاق والمثل، ولكن ما أصعب ترجمة هذهِ القيم وتلك الفضائل في أرضِ الواقع الذي نعيشُ على ضِفافه، فما ينقصنا ليس الميراث القيميّ الزاخِر، وإنما بُعدنا، كحركة وسلوك، عن تلك النصُوصِ الحافِلة بالمثل والطّافِحة بالقيم والزّاخِرة بالفضائِل. لذا؛ فقد حقّ مَنْ قال: "لا تحدثني كثيراً عن الدّين، ولكن دَعْنِي أَرَى الدِّينَ في سلُوكِكَ وأخلاقِكَ وتعامُلاتِك"، فما أجمل أنْ نترجِمَ الإسلامَ في أفعالِنا وخصالِنا، وأن نتحدّث إلى النّاس بصفاتِنا حيّة شاخصّة، فالدّينُ المعاملة، وليسَ الدِّين المجادلة. و"الدينُ نفسهُ يؤكِّدُ التكامُل في التديُّن، فيربطُ العباداتِ بالمعاملات". قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾([٣٨]). وقال رسُول الله (صلّى الله عليهِ وسلّم): (مَنْ لَمْ تَنْهَ صَلاتُهُ عَنْ مُنْكَرٍ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إلاَّ بُعْدًا)([٣٩]). يقول (فهمي هويدي): "وإذا كان الحديثُ الشّريف قد أسقطَ اعتبار صلاة المسلم، إذا لم تنهه عن ارتكابِ الفواحِش والمنكرات، فقد يجوزُ لنا أنْ نستعملَ المنطِق النبويّ ذاته؛ لنقول: إنّ مَنْ لَمْ يمتثل دينه في أدائِه وخلُقِهِ ومُعاملاتِهِ فلا دينَ له([٤٠]). فالتعبُّد إذا لَمْ يُتَرْجَم إلى مواقِف إيجابيّة في سلُوكِ المسلمِ كُلّه، فإنّه يفقدُ وظيفته ومعناه. وذلِكَ الفصلُ المتعسِّف بين تعبّد المسلم ومُختلف مُمارساتِه اليوميّة، هو في حقيقتِهِ تفريغٌ للدّين من مضمُونه، وتحويلِهِ إلى مجرّد مُمارساتٍ وطقُوس([٤١])، يمارِسُها الكثيرُ مِنَ المسلمين مِمّنْ جزّأُوا الدين؛ لينسجمَ مع مصالحهم وعاداتهم التي ما أنزل الله بها مِنْ

سُلطان، "فإذا خرجُوا إلى السُّوق وزاولوا أعمالَهُم، وضعُوا تدينُهم على الرّفِ، ليُسلم قيادَهم السوقُ القائمة على الرِّبحِ وحدَه، فيستغلّون ثقة النّاس، ويحتكِرُون البضائع أثناء الأزمات، ويتلاعَبُون بالأسعار من أجلِ كسبٍ مادّي عاجِل، دون التفكير في مدى مشروعيّةِ هذا الأسلُوب أو ذاك"([٤٢])! وهذا ما أسماهُ (فهمي هويدي) بـ(التديّن المغشوش)، ذلِكَ التديّن الذي يُمارسه المحترِفُون والمتاجِرُون بالتعاليم تضييعاً لحقُوقِ النّاس واستغلالِهم.

فما أجمل أن نعيدَ إذاً تلك الصلة المبتُورة بين نصُوصنا وبين واقعِنا، فنحنُ أبعدُ النّاسِ عن ترجمةِ هذهِ القيم في أرضِ الواقِع، فحياتُنا أصبحتْ كلّها عبارة عن نصائح ونصُوص ومقولاتٍ ومأثورات، ولكنّنا نعيشُ في وادٍ وهي في وادٍ آخر! وكأنّنا تحوّلنا حقّاً إلى ظاهرةٍ صوتيّة لا تتنفسُ بالحياة ولا تنبضُ بالحركة، وأصبحَ شأنُنا شأنُ "القذيفةِ التي قد تنطلقُ، كاملةَ العناصِر، تامّة القوّة، ولكنّها تقعُ بعيدةً عن مرماها، فتذهبُ هَدْراً، وما أكثر الخُطباء الذين يُرسِلون مِنْ أفواهِهم حِكَماً بالغةً تنطلقُ هُنا وهُناك، كما ينطلِقُ الرّصاصُ الطّائِش، لا يُصيبُ هدفاً ولا يُدْرِكُ غَرَضاً"([٤٣]).

فما أحرى بالمسلمين اليوم أنْ يُقدِّمُوا إسلامَهُم من جديد بحالهم لا بمقالهم، وبخصالِهم لا بجدالهم، ولنا في تراثنا ما يُسعفنا في التدليل على ذلِكَ، فقد رُؤي (الجنيد البغداديّ) – رحمه الله – بعد موته، فقيلَ له: ما فعلَ اللهُ بكَ يا أبا القاسِم؟ فقال: "بليتِ الرسُوم، وغابتِ العلوم، وامّحتِ العبارات، وطاحتَ الإشارات، وما نفعنا إلاّ ركيعاتٌ، كُنّا نركعها في جوفِ الليل". وقَالَ (عُمَر بنُ ذَرّ) لأبيهِ: يَا أبتِ! ما لَكَ إذا تكلّمْتَ أبكَيْتَ النّاسَ، وإذا تَكلّمَ غَيرُكَ لَمْ يُبْكِهِمْ؟ فقالَ: يَا بُنَيَّ! لَيْسَتِ النَّائِحَةُ الثَّكْلَى كالنَّائِحَةِ الْمُسْتَأْجَرَةِ([٤٤]). فالنائحةُ التي فقدتْ ولدَها، تُمَزِّقُ بنياحها نياطَ القلُوب، وتستمطِرُ ببكائِها حرَّ الدمُوع، لكن النائحةَ المستأجَرة التي تنوحُ لا تُبْكِي أحداً ولا تُحرِّكُ ساكِناً، فهي مثل القينة التي تغنّي بلحنٍ حزين، لكنّها في الحقيقة لا تعاني مِنَ اللوعة ولا تشعرُ بالأسى!

ومِنَ الظّواهِر النمطيّةِ الخطيرة – التي تدخلُ ضمنَ إطارِ الصُّورِ الجاهِزة، ولا تمسُّ جوهرَ الحقيقةِ الثابتة –، تشويهُ صُورةِ الإسلامِ بمُمارساتِ بعضِ المسلمين الخاطِئة هُنا أو هُناك، تلكَ الممارسات التي تُنْسَبُ إلى الإسلامِ جَوْراً وبُهتاناً، على الرّغمِ مِنْ أنّها تتناقِضُ جُملةً مع ما يُعْرَف مِنَ الدّين بالضّرورة. فما يُمارسُه المسلِمُ من سلُوكٍ سلبيّ أو إيجابيّ يعودُ إليهِ وحدَهُ، ولا يجوزُ عقلاً ولا عُرْفاً أنْ يُتّهمَ بهِ الإسلام، لذا يجب أنْ ينهضَ كُلُّ مسلمٍ مِنْ أجلِ تبرئةِ ساحةِ إسلامِه مِنْ مُمارساتِ بعضِ المنسُوبين إليه، ولْيَكُنْ شعارُه: "أنا مُسلم، والإسلامُ دينٌ كامِل، لكنّني لستُ كامِلاً، إذا ارتكبتُ خطأً، فلا تلومُوا الإسلامَ، ولكن لُوموني أنا!". فأنا أمثِّلُ نفسِي ولا أمثلُ هذا الإسلامَ العظيم، ومَنْ أنا حتّى أمثّلَه، لذا فإذا وجدتُم ما يشينُ من قيمةِ تلكَ المبادئ السّامية التي بشّر بها إسلامُنا، عليكم أن توجّهُوا أصابعَ اتّهامِكم إليَّ أنا، فأنا وحدِي أحملُ وزري، وأنا وحدِي

احتملُ خطأي، أمّا إسلامي فهو بريءٌ مِمّا أُمارسهُ مِنْ فعلٍ أو عملٍ. وخاصّةً في هذا الزّمن العصيب الّذي تفشّت فيهِ سلُوكياتٌ طّائِشة، وتفاقمتْ دونه أعمالٌ جنُونيّة ترتكبُ بحقِّ الإسلام، وتمارسُ تحت يافطتِه، والإسلامُ بريءٌ منها ومِنْ وِزْرها براءةَ الذئبِ من دمِ يوسُف، فكَمْ من الدِّماء البريئة التي أُريقت ظُلْماً وبُهْتاناً باسمِ الإسلام، في الوقتِ الّذي شدّد فيهِ القرآن الكريم الوعيدَ بحقِّ كُلِّ مَنْ تُسَوِّل لَهُ نفسه بإراقةِ الدِّماء البريئة. ومِنْ ذلِكَ قولُه تعالى في مُحْكمِ كتابهِ: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾(٤٥). وقولُه تبارك تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾(٤٦). وقولُه جلّ وعلا: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾(٤٧). فكَمْ مِنْ مَوْءُودةٍ لفظتْ أنفاسَها الأخيرة تحت الأنقاض المتهاوية، وكَمْ مِنْ طفُولةٍ تمزّقتْ براءتُها بأسنةِ الرِّماحِ القاسية التي غرزَها أولئكَ الّذين ﴿لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاً وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُعْتَدُونَ﴾(٤٨)، أي: المجاوزُون للحلال إلى الحرام، أو البالِغُون في الشرِّ والتمرُّدِ إلى الغايةِ القُصْوَى(٤٩). وفي توصيفِ هؤلاءِ أكّد الشيخ (أحمد ديدات) بقولِه: إنّ "أشرسَ أعداءِ الإسلام هو مُسلمٌ جاهِل، يتعصّبُ لجهلِه ويُشوّه بأفعالِه صُورةَ الإسلامِ الحقيقيّ، ويجعلُ العالَم يظنُّ أنّ هذا هُوَ الإسلام". أمّا الشيخُ (الغزالي) فقالَ واصِفاً أولئِكَ الّذين شَوَّهُوا الإسلامَ بسوءِ فِعالِهم: "إنّ انتشارَ الكُفْر في العالَم يقعُ نصفُ أوزارِه على مُتدينين بغضّوا دينَ الله إلى خَلْقِهِ بسُوءِ كلامِهم أو سُوءِ صنيعِهم". ومن هُنا وجبَ علينا أنْ نعرِفَ أنّهُ حتّى في حالةِ الجرائِم فإنّ الشريعةَ معنيَّةٌ بإصلاحِ النّاسِ أكثر من عنايتِها بعقابِهم؛ إذ يقبلُ الشّارِعُ التجاوز عنِ الحقّ قبلَ التبليغ، ويدعُو إلى السِّتر، ويُؤْثِر العَفْوَ، ويفتحُ بابَ التّوبة(٥٠).

وختاماً نقول إنَّ الإسلامَ هو الرِّسالةُ السماويةُ السّمحة التي زاوَجَتْ بينَ القولِ والعمل، بينَ الفكرِ والسلُوك، بينَ الشريعةِ والحياة، بين الدنيا والآخرة، بين المعاش والمعاد، فلا تفريطَ ولا إفراط، ولا عسفَ ولا افتئات، إنّما تواصُلٌ وامتداد، وتكامُلٌ واعتدال! ❐

الهوامش:

١- من كلماتِ حسن البنّا في مقاله: "من وحي حراء"، بجريدة "الإخوان المسلمون" اليومية.

٢- في تقديمه لكتاب (علوم القرآن) لأحمد عادل كمال، نُشِر ضمنَ سلسلة كتاب المختار، في سنة ٢٠٠٥م.

٣- سورة محمّد، الآية: ٢٤.

٤- أنطولوجيا اللغة عند مارتن هيدجر، إبراهيم أحمد، ط(١)، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، ص١٣٠.

٥- الفتوحات المكيّة، ابن عربي، ط(٢)، تحقيق وتقديم: د.عثمان يحيى، تصدير ومراجعة: د.إبراهيم مدكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م: ٢٥٨/٤.

٦- شروط النهضة، مالك بن نبي، ط(١)، ترجمة: عمر كامل مسقاوي، وعبدالصبور شاهين، تقديم: محمّد همّام، دار الكتاب المصري -

القاهرة، ودار الكتاب اللبناني – بيروت، ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م، ص٨٣.

٧– حديث موقوف عن سُفيان بن عُيَيْنة، رقم الحديث: (٣٦٣).

٨– حديقة النبي، جبران خليل جبران، (د.ط)، المكتبة الثقافية، بيروت – لبنان، (د.ت)، ص٩–١٠، حديقة النبي، جبران خليل جبران، ترجمة موازية للنصّين الإنكليزي والعربي: د.ثروت عكاشة، ط(٩)، دار الشروق، القاهرة – مصر، ٢٠٠٠م، ص١٣–١٤.

٩– التدين المنقوص، فهمي هويدي، ط(١)، دار الشروق، القاهرة – مصر، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م: ٣٧.

١٠– م.ن: ١١.

١١– الطريق من هنا، الشيخ محمّد الغزالي، (د.ط)، دار الشروق، القاهرة – مصر، (د.ت)، ص٢٣– ٢٤.

١٢– م.ن: ٢٦.

١٣– ازدواجيّة التعليم الجامعيّ: مرئيّات للخروج من الأزمة، أ.د.عماد الدين خليل، مجلة (الحوار)، العدد (١٥٥)، السنة الثالثة عشرة، ربيع ٢٠١٦م: ٢٣.

١٤– م.ن: ٣١.

١٥– ﴿إِنَّا وجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾، د.عبدالكريم بكار، مجلة (البيان)، العدد (٦٤،) ص٩. وشبكة صيد الفوائِد، وذلك على الرابط التالي:
http://www.saaid.net/Doat/bakkar/012.htm?print_it=1

١٦– بين الصورة والحقيقة، لأبي الحسن علي الحسن الندوي، (د.ط)، دار عرفات للدراسة والترجمة والنشر، ص٥.

١٧– م.ن: ٤.

١٨– التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنّا، د.يوسف القرضاوي، في فصل "الربّانية"، ط(١)، مطبعة النهضة، قم – إيران، ١٣٧١، ص١٣.

١٩– وذكر الشيخ الألباني – رحمه الله – أنه حديث ضعيف وقال: الراجح أنه من كلام الحسن البصري – رحمه الله –.

٢٠– سورة الحجرات، الآية: ١٤.

٢١– سورة الصف، الآية: ٢–٣.

٢٢– ضريبة الإيمان، عمر علي غفور، صحيفة "الأفق الجديد"، العدد (١٦٥)، الثلاثاء ٥/ ٩/ ٢٠٠٦م، ١٢ شعبان ١٤٢٧هـ، السنة الرابعة، ص٤.

٢٣– التدين المنقوص، فهمي هويدي: ٤٠.

٢٤– رواه البخاري.

٢٥– العلاقة بين العلم والإيمان، للدكتور محمد راتب النابلسي، خطبة الجمعة – الخطبة (٣٩١)، بتاريخ: ١/ ٥/ ١٩٩٢م.
http://www.nabulsi.com/blue/ar/print.php?art=594 موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية.

٢٦– سورة المائدة، الآية: ١٠٤.

٢٧– سورة الزخرف، الآية: ٢٣– ٢٤.

٢٨– ﴿إِنَّا وجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾، د.عبدالكريم بكار، مجلة (البيان)، العدد (٦٤،) ص٥–٦.

٢٩– وإذا افتقرتِ المقولةُ إلى الدّليل فهذا هو التقليد، وإذا افتقرتِ المقولةُ إلى مُطابقةِ الواقِع فهذا هو الجهل، وإذا افتقرتِ المقولةُ إلى اليقين فهذا هو الظنُّ، أو الشكّ، أو الوَهْم.

٣٠– العلاقة بين العلم والإيمان، للدكتور محمد راتب النابلسي.

٣١– سورة الزخرف، الآية: ٢٤.

٣٢– السورة والآية نفسهما.

٣٣– ﴿إِنَّا وجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾، د.عبدالكريم بكار، مجلة (البيان)، العدد (٦٤،) ص٦.

٣٤– دراسات إسلامية، سيد قطب، ط(١٠)، دار الشروق، القاهرة – مصر، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م: ٢٧.

٣٥– م.ن: ٢٧.

٣٦- دراسات إسلامية، سيد قطب، فصل "قوّة الكلمة": ١٣٩.
٣٧- دراسات إسلامية: ١٣٨.
٣٨- سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.
٣٩- أثر صحيح عن ابن مسعود (رضي الله عنه) رواه عنه الإمام أحمد في الزهد، كما في كشف الخفاء ومزيل الإلباس. وقال الإمام الألباني: وجملة القول: إن الحديث لا يصحّ إسناده إلى النبيّ (صلّى الله عليه وسلّم)، وإنما صحّ من قول ابن مسعود، والحسن البصري، وروي عن ابن عبّاس (رضي الله عنه). وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٥: ٢٢): هذا الحديث ليس بثابت عن النبي (صلّى الله عليه وسلم) ولكن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، كما ذكر الله في كتابه، وبكُلّ حال فالصلاة لا تزيد صاحبها بُعداً، بل الذي يُصلّي خير من الذي لا يُصلّي، وأقرب إلى الله منه وإن كان فاسِقاً.
٤٠- التدين المنقوص، فهمي هويدي: ٤٠.
٤١- م.ن: ٤٠.
٤٢- التدين المفقود، عمر علي غفور، صحيفة "الأفق الجديد"، العدد (١٦٩)، الثلاثاء ٣/ ١٠/ ٢٠٠٦م، ١١ رمضان ١٤٢٧هـ، السنة الرابعة، ص٤.
٤٣- "حسن البنا" في موكب الدعوة " للشيخ محمد الغزالي.
٤٤- المجالسة للدينوري: ٧٣٦.
٤٥- سورة المائدة، الآية: ٣٢.
٤٦- سورة النساء، الآية: ٩٣.
٤٧- سورة التكوير، الآية: ٨-٩.
٤٨- سورة التوبة، الآية: ١٠. ﴿إِلاًّ﴾ أي: قرابة ورحماً، ﴿وَلاَ ذِمَّةً﴾ أي: ولا عهداً.
٤٩- تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، لمحمّد الأمين بن عبدالله الأُرَمِي العَلَويّ، (د.ط)، دار طوق النجاة، بيروت - لبنان، (د.ت): ١١/ ١٤٠.
٥٠- التدين المنقوص: ٥٦.

◀ نعم، هذا هو التديّن الذي نراهُ ونعيشهُ يوميّاً في حياتنا، التديّن الفارغ من مضامين اجتماعيّة وفكريّة وحضاريّة، التديّن الذي يكتفي بالقشور دون الأعماق، التديّن الذي يفصلُ العبادة عن الحياة، والإيمان عنِ السلوكِ والعمل الصّالِح ▶

أول العمل آخر الفكرة، وأول الفكرة آخر العمل

أمين حجي محمد أمين الدوسكي

✍ يجلو وفق المقولة الحِكَمِيَّة تلك وبانضواء التنظيم التدرجي لأفعال الإنسان في ظلها – من حيث ضرب نموذج فكرة الإيواء تحت سقف؛ والتي بالعمل تكون آخر شيء في البناء؛ لأن الأس والحوائط تتقدمه، وبالفكرة تكوّن أول شيء في الفكر يرُى؛ ومن حيث أن أول العمل في البناء هو الأساس؛ فهو آخر الفكرة في تدرج تنظيم العمل عليه والابتناء.. إن البناء والابتناء سواء كان أولاً أو آخراً مقرون بالفكرة؛ فالفكرة هي خميرة البناء وأسّ المضي إلى العلا" والدليل على ذلك؛ أن بناء ما تبتنى عليه الحياة في شتى المجالات؛ مقترن بالفكرة التي رتبت ودرجت له العمل المتلازم للبناء عليه.

والفِكرة هي عُملَةُ العقل؛ لأنّ الفكر هو إعمال العقل؛ وإذا كان العقل معمولاً لأجل الفكرة؛ فهو حقاً كالعملة في تعريفه لها، والفكرة الكاملة هي المبنية على العلم، حتى يبنى عليها كامل البناء؛ ويكمل بها البناء والابتناء!

وعليه، لقد توصلنا؛ إلى أن الإنسان المشخص يكون في الرتبة بعد الفكرة، لأن حياته المقرونة بالبناء متراخية عن الفكرة، والبناء المشخص – الذي يمثل كافة الأشياء المسخرة للإنسان – يكون في الرتبة الثالثة،

أي بعد شخص الإنسان، لأنها بفكر الإنسان تكون، ولأجله تقنّن!

والإنسان المشخص جُعلت رتبته بعد الفكرة؛ لأجل الإنسان المميز الذي هو الإنسان المعنوي، التي تدخل تحت اسمه كل معاني الإنسانية من العدل والخُلُق والقِيَم والتكريم وغيره؛ وبهذا المعنى تكون الفكرة بعده في الرتبة، والشيء يكون بعد الفكرة في الجزاء والمرتبة..

فإذا قدم الإنسان المشخص مرتبته على الإنسان المميز، فقد قدّم شخصه على فكره وفكر قرنائه، فيظلم، ويتعس به الآخرون. أما إذا أخّر شخصه بشخص الإنسان المميز عليه؛ فقد قدّم الفكرة – الذي العقل هو عملته – على شخصه، ويؤخّر حينها نتاج فكره لأجل نوعه الحقيقي؛ فيسعد على حساب تعب الشخص، وهو سنّة الكون في الرقيّ والتقدم!

فلما سبق، إذا أنعمنا النظر فيما نحن فيه من تقلبات، وهي أشبه بتقلبات المحتضر والمغمور في كربات الموت وسكراته، وعلى النقيض تجد تقلبات آخرين في العيش الكريم والرقي المستديم في الحضارة المادية؛ فتجد السبب؛ أن الناس اليوم بين مقدس لفكرة أو لشخص أو لشيء، والأول استطاع أن يُعبّدَ الآخرين لفكره، والثاني استطاع أن يُعَبّدَ الناس لشخصه، والآخر استطاع أن يعبد الناس لأشيائه فقط.. والنجاح والنصرة وضمان البقاء نصيب الأول، والضعف والهوان والخسران نصيب الثاني، والزوال والانعدام والاضمحلال جزاء الأخير.. لأن الأول جعل من الشخص والشيء خادمين للفكرة، والفكرة تشمل غذاء العقل – والذي هو العلم – وتشمل غذاء الروح، والذي هو العمل بخاصة العلم، وهو معرفة موجد العلم وبارئه – ويشمل غذاء البدن الذي معرفة ما يصلح للبدن من الغذاء، ولا يتأتى ذلك إلا بالعلم.. والثاني جعل من الفكرة والشيء خادمين للشخص، ولا قوة للشخص بذاته إذالم يقترن به العلم وخاصته.. والأخير جعل الفكرة والشخص خادمين للشيء الذي بقائه وحقيقته مقرونة بالفكرة، فيزول بزوال الفكرة، وذلك بجعل الشيء هو الأصل، والفكرة هي الخادمة والتبع.

وما بيناه هو فلسفة الإسلام وجوهره، فالحق الذي هو منهج الحق ورسوله هو الأصل، كما قال تعالى: (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْاِسْلَامِ ديناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وهو في الاخرة من الخاسرين)، وقال: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ النساء: ٨٠، وجعل الحق تعالى؛ الأشخاص والأشياء تبعاً لنهجه وفكرته وشرعه، وحذّر ممّا يضاده، بقوله: ﴿قُلْ إِنْ

كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، ٢٤ التوبة.

ولو تتأمل في حال المسلمين اليوم ترى أنهم يتضادُّون مع فلسفة الإسلام؛ إذ يستخدمونها لشخوصهم وأشيائهم بدل استخدام الأشخاص والأشياء لخدمة الإسلام، ولذلك تراهم يقدّسون الأشخاص والأشياء على الفكرة والمنهج والحق، بل ربما تجد من يجعل من فكرة الشخص وفهمه؛ هو الحق المطلق والدين المبين، وترى الآخر يجعل من الشخص هو الملاذ وهو القانون وهو الأمة، فينصهرون ويذّوبون الحق والشعب وخيرة الخلق في ذات الشخص ذلك، والأسوأ منه أنك قد تجد من يذّوب الشخص والحقّ في أشيائه، فتصبح معرفة الحقّ تبعاً لوجود المنكر، وإلا فهو منكر، ولذا فإذا قام بالحق وقاوم الباطل فلأجل أن يستخدمه لا ليخدمه.

وبذلك انتشر الظلم بينهم، ورفع العدل عندهم؛ لأنهم قدموا المهين على العزيز، والمعدوم الفاني على الباقي، والباطل على الحق، والشخصنة على الأمة والدولة وخيراتها؟!

أما شعوب الغرب فتجد أنهم استفادوا من فلسفة الإسلام تلك؛ بجعل (الفكرة) والمنهج والحق الذي يرونه هو الأصل، و(الشخص) تبع، و(الشيء) بذاته، حينها سيخدم الشخص الإنساني لا الشخص الأناني، ولذلك هم أذابوا الشخصنة والفردية والشيء في الفكر والمنهج وقضاياهم المصيرية، سواء كان الشخص يمثل الفرد أو الحزب أو الهيئة، وسواء كانت الفكرة تمثل الدولة أو الأمة أو المستقبل أو العدل أو المساواة أو احترام الكبير أو الرحمة بالفقير أو الخدمة للبلد، فانتشرت به روح السماحة بينهم، وشيم العدل عندهم، وراحة البال في أبدانهم، فانشغال العقل بما يهم ضرورياتهم، وما يتعلق به مصيرهم❐

من وحي الطفولة

علاء الدين حسن
Aladin.hasan@gmail.com

.. في دُورِنا، وتحت سقوف منازلنا، أبشارٌ غضَّة، وأجنحةٌ كثيرة، وفي أغصان دَوحِنا أعوادٌ طريَّة، وبراعِم ناشئة" أولئك هم الأطفال، ثمراتُ القلوب، وقِطع الأكباد، أطفالُنا عجزٌ تحت قُدرتنا، ومسكنةٌ تتفيَّأُ قوَّتنا، وهم مستقبلٌ مرهونٌ بحاضرنا، وحياةٌ تتشكّل بتربيتنا، وهُمْ بعد ذلك كلِّه: بعضُ الحاضر، وكلُّ المستقبل.

الطّفولة.. مرحلة بريئة مِن عمر الإنسان، مرحلة توحي بالجمال، وترمز إلى عالم متكامل مِن النَّقاء، والأطفال هم مرآة مجتمعاتهم، وكيفما يكن الأطفال تكن الأمم.. إنَّهم بهجة الحياة وزينتها.. الطِّفولة براءة روح.. الطِّفولة نقاء قلب.. والأطفال غراس الحياة، وقطوف الأمل، وقرَّة عين الإنسان، وزهور الأمَّة، وبراعم الغد المشرق.. الأطفال تذكار الصّبا، ووديعة الله المقدَّسة، وهديَّة السَّماء..

والطّفولة بستان يأوي إليه الكبار" فيغسِلوا همومهم في نقاوة أطفالهم، ويجتلوا جمال الحياة في بَسَمات صبيانهم.. أفصحُ تعبيرٍ يستمطِر الحنان: تأتأةُ طفل. وأبلغُ نداءٍ يستجيشُ الحبّ: لثغةُ صغير..

إنَّهم ربيع وزهر، وأكاليل ياسمين، قصَّة الأمل الّذي لا ينتهي. يقول الله عزَّ وَجلَّ: {المالُ وَالبَنونَ زِينةُ الحَياةِ الدُّنيَا}. الكَهف: ٤٦. وفي الحديث الشَّريف، يقول رسول الله (صلّى الله عليهِ وَسلّم): ((أكرِموا أَولادَكم، وَأحسِنوا أدبَهم)).

وقد قِيل في الأطفال عبر التَّاريخ الكثير، ممَّا يعبِّر عن شفافية نفوسهم، ففي أمثال الهند: (بيت بدون طفل كالقبر). وفي

إسبانيا يقولون: (أسمى حبّ هو حبُّ الأطفال). وفي التُّراث العربي" نجد قول الشَّاعر (حطّان بن المعلّى):

وَإنَّما أَولادُنا بينَنا، أَكبا
دُنا تَمشِي علَى الأَرضِ
لَو هبَّتِ الرِّيحُ علَى بَعضِهم
لامْتنعَت عَيني عنِ الغمضِ

وفي العصر الحديث، ازداد الاهتمام بالأطفال، وكان (جان جاك روسو) واحداً مِن أهمِّ روَّاد هذا الاهتمام، ومِن أشهر أقواله في الطِّفل: "ما مِن شكّ أنَّه يجب أن لا يعمل إلاّ ما يريد..". أمَّا التَّشكيليُّ العالميُّ (بابلو بيكاسو)، فيقول: "لقد قضيت خمسين عاماً مِن عمري" لأتعلّم الرَّسم كالأطفال". وقال (فولتير): (الأطفال.. إنَّهم حقّاً أغنية الحياة). وقالت (بام براون): "إنَّ هذه الأيدي الصَّغيرة الرَّقيقة تمسك بقلوبنا إلى الأبد".

ومِن أجمل ما قيل في الطُّفولة، ما قاله الشَّاعر السُّوريّ (بدويُّ الجبل) في قصيدة شفيفة جاء في بعض أبياتها:

وَيَا رَبِّ! مِن أَجلِ الطُّفولة وَحدَها
أَفِضْ بَركاتِ السّلم شَرقاً وَمَغرِبا
وَصِنْ ضحكةَ الأطفالِ يَا رَبِّ، إنَّها
إذَا غرَّدتْ فِي موحشِ الرَّملِ أعْشَبا

ويقول الشَّاعر (سليمان العيسى): "كلُّ واحد منَّا يحمل في أعماقه طفلاً يُحبُّ أن يغنِّي، ويقفز، ويمرح".

ورغم كثرة ما أنتَجَتْه المدنيَّةُ الحديثة مِن مفاهيم، إلاّ أنَّ ثمَّةَ أنماطاً سلوكيَّة خاطئة كثيرة لا تزال تُمارَس بحقِّ الطِّفل.. فكم بين جُدران البيوت، وأسوار المدارس، مِن طفولةٍ مُنتَهَكة، وبراءةٍ مُغتالة، يتعرَّضُ الأطفال في صورها للضَّغط النَّفسي، والعنف البدني، والتَّعذيب الجسدي.. ترى ذا الأربعة أعوام، أو الخمسة أعوام، يُقلّب عينين ماؤهما الطُّهْر، وبريقُهما البراءة، يُقلِّبُها في أبيه القادم إليه، ويخفِقُ فؤادُه الغضُّ لمرأى أبيه، مُنتظراً منه ضمَّةً أو قُبلة، فإذا لَسْعُ النَّار يفجَرُه، أو الضَّرب العنيف يتلقّفُه، وسلاحُ الطِّفل – ويا لسلاحه – أنَّاتٌ متقطِّعة، وزَفَراتٌ مُتحشرِجة، وقد غابَ المُعين والنَّاصر.

ومِن صور الإساءة المنتشرة: الصِّياحُ والصُّراخُ في وجه الطِّفل، وتهديده وتخويفه، وكثرةُ مُعاتبته وتعنيفُه..

– وبعد: إنَّ خطأ الأطفال مغفور، وذنبهم معفوٌّ عنه، فالله عزَّ وَجلَّ قد رفع عنهم قلم التَّكليف، فلنرفع نحن عنهم أساليب التَّعنيف، ولنا في هدي النَّبيِّ – ﷺ – قدوةٌ وأُسوة" عن (أنس) – رضيَ الله عَنه – قال: خدمتُ النَّبيَّ – صلّى الله عليهِ وَسلّم – عشر سنين، فما قال لي أُفٍّ، ولا لِمَ صنعتَ، ولا ألا صنعتَ❐

مرافئ حين تفقد الحكومات ما تبقى من سمعتها!

د.يحيى عمر ريشاوي

إحدى ركائز قوة أيّ كيان سياسي، أو مؤسسة اجتماعية أو اقتصادية، أو حتى أسرة عادية مكونة من أب وأمّ وطفلين! تكمن في كيفية الحفاظ على السمعة المكتسبة على مرّ السنين والأزمنة، وحين تفقد هذه السمعة لسبب من الأسباب، فإنه من الصعوبة بمكان إرجاعها والحفاظ على مكانتها السابقة.

المدارس والجامعات الأهلية تحاول جاهدة الحفاظ على سمعتها، المؤسسات والشركات التجارية تسحب منتجاتها وسياراتها الفارهة وتخسر الملايين، فقط بهدف الحفاظ على سمعتها الطيبة بين العملاء، شركات البناء والمعامل، المطاعم والمحلات التجارية، مكاتب المحاماة، والعيادات الطبيّة، وغيرها كثير، كلها تخطط وتضحي وتصرف الملايين والبلايين في سبيل الحفاظ على سمعتها بين زبائنها وعملائها وطالبيها !

أريد أن أقول إن الحكومات والدول عليها أيضاً أن تحاول جاهدة الحفاظ على سمعتها بين مواطنيها أولاً، وبين المجتمع الدولي ثانية. عليها أن تخلق لنفسها سمعة تقديم الخدمات، والشفافية في التعامل، والاعتماد على الذات، والاستفادة من خيرات البلاد، والعمل بمبدأ الشورى والديمقراطية، وتوسيع دائرة الحوار والتعبير عن الذات، وغيرها وغيرها، ومن ثم الحفاظ على هذه السمعة بكلّ غال ونفيس.

حين تحاول أن تسقط هذا المبدأ على واقع التجربة السياسية في الإقليم، وتجري اختباراً بسيطاً لتجربة حكومة الإقليم، من خلال هذه المرافق والمجالات التي كان من الممكن أن تبقي على شيء من السمعة، فإنك تصاب بخيبة الأمل، وتستغرب من حكومة كان من المفترض أن تكون نموذجاً يحتذى به لباقي مناطق العراق، لم يبق من نشاطاتها وإنجازاتها غير عدّ السياح القادمين من وسط وجنوب العراق! ولا شيء بعدها قطّ!

الخدمات في أدنى مستوياتها، وبعد ربع قرن من التجربة الإدارية، فإنّ المواطن في الإقليم ما زال يعيش في عالم الإمبيرات والمولّدات!! الواقع السياسي لا يبشر بخير، ونحن الآن نعيش المربع الأول – إن لم نكن خارج المربع– من تعطيل للبرلمان، وشلل تام لحكومة غارقة في الديون إلى أخمص قدميها! الأوضاع الاقتصادية من سيء إلى أسوء، هجرة الطاقات والقدرات في ازدياد مخيف، والعلاقات مع بغداد، والجولات المكوكية و(الحزبية) للعاصمة في مد وجزر، من دون أن يستشعر المواطن العادي حلاً لهذه المعضلات، أو أن يرى بارقة أمل لهذا النفق السياسي المظلم.

واقع الإقليم يقول، من دون خجل ولا (وجل): إن السمعة التي اكتسبت عبر بحر من الدموع والدماء، جرفتها المصالح الحزبية والمادية الضيقة، ومن الصعوبة بمكان – في ظلّ هذه الأوضاع – التغاضي عن الموجود، وكتابة كلمات المدح والتبجيل، والتظاهر بالصحة والسلامة لجسد أنهكته الصراعات والمصالح الحزبية القاتلة !! وحسبنا الله ونعم الوكيل!❐

- الأوضاع الإدارية والاقتصادية للإمارات الإسلامية — أ. د. عماد الدين خليل

- تسطيح الفكر الديني: قراءة في كتابين — سعد الديوه جي

قراءة في كتاب

الأوضاع الإدارية والاقتصادية والاجتماعية للإمارات الإسلامية ببلاد إيران في القرنين الثالث والرابع للهجرة

قراءة: أ. د. عماد الدين خليل

إن حضارة الإسلام، وتاريخه عموماً – كما لاحظ كثير من المؤرخين والمستشرقين – هي حضارة (الوحدة والتنوّع)، ولقد انعكس ذلك على ظاهرة نشوء الدويلات والكيانات الإقليمية في عالم الإسلام. فصرنا نجد تنوّعاً في التشكيلات السياسية التي انشقت عن جسد الدولة، ونجد في الوقت نفسه وحدة وتجانساً وتكاملاً في العطاء الحضاري، وفي الأساليب والأهداف الكبرى. وفيما عدا حالات محدودة شاذة عن القاعدة الشاملة، حالات ظهر فيها عدد من الدويلات تبنّت مبادئ وعقائد باطنية وشعوبية، ذات جذور غريبة عن عقيدة الإسلام وتصوّراته وقيمه، ومارست قواها الذاتية لا في الدفاع عن أرض الإسلام وعقيدته ووحدة مقدّراته، وإنما ضدّها (كما فعلت دولة قرامطة البحرين، على سبيل المثال)، بل إن بعضها (كالدولة البابكية في أذربيجان) سعت إلى عقد محالفات ومواثيق مع الأعداء الخارجيين المتربصين على الحدود.. فيما عدا هذه الحالات، فإن معظم التشكيلات السياسية التي شهدها عالم الإسلام، شاركت – حسب قدراتها وطاقاتها – في خدمة وحدة هذا العالم عقدياً وسياسياً وحضارياً، ولن تغني الأمثلة الموجزة هنا عن واقع تاريخنا نفسه.

إن حضارة الإسلام إذ تقوم على قاسم مشترك من الأسس والثوابت والخطوط العريضة ، بغضّ النظر عن موقع الفعالية الحضارية في الزمان والمكان، وعن نمطها وتخصّصها، فإنها تنطوي – في الوقت نفسه – على حشد من الوحدات المتنوّعة بين بيئة ثقافية وأخرى، في إطار عالم الإسلام نفسه، بحكم التراكمات التاريخية التي تمنح خصوصيات معينة لكل بيئة، تجعلها تتغاير وتتنوع فيما بينها في صنوف من المفردات والممارسات.

إنها جدلية التوافق بين الخاص والعام، أو ما يمكن عدّه أممية إسلامية تعترف بالتمايز بين الجماعات والشعوب والأمم، ولكنها تسعى – في الوقت نفسه – لأن تجمعها على صعيد الإنسانية. وهي محاولة تختلف في أساسها عن الأممية الماركسية التي سعت، ابتداءً وبحكم قوانين التنظير الصارمة، إلى إلغاء التنوّع، ومصادرته، وإلى تحقيق وحدة قسرية، ما لبثت أن تأكد زيفها وعدم قدرتها على التحقّق تاريخياً. وبمجرد إلقاء نظرة على خارطة الاتحاد السوفياتي (المنحّل)، حتى قبل حركة (البيروسترويكا)، والرفض المتصاعد الذي جوبهت به الأممية الماركسية، من قبل الجماعات والأقوام والشعوب التي تنتمي إلى بيئات ثقافية واجتماعية متنوعة، ومقارنة هذا

بما شهده التاريخ الإسلامي من تبلور كيانات ثقافية واجتماعية إقليمية متغايرة، في إطار وحدة الثقافة الإسلامية، وثوابتها، وأسسها الواحدة، وأهدافها المشتركة، يتبيّن مدى مصداقية المعالجة الإسلامية، وواقعيتها في التعامل مع ثنائية الوحدة والتنوّع، كواحدة من حشود الثنائيات التي عولجت بالقدرة نفسها من الانفتاح في الرؤية والمرونة في العمل.

لقد شهد عالم الإسلام، بموازاة التنوّع السياسي، أنشطة معرفية متمايزة، وثقافات شتى، على مستوى الأعراق التي صاغتها: عربية، وتركية، وفارسية، وكوردية، وصينية، ومغولية، وبربرية، وإسبانية، وزنجية، وأفغانية، وسلافية.. إلى آخره.. كما شهدت أنماطاً ثقافية، على مستوى البيئات والأقاليم: عراقية، وشامية، ومصرية، وسودانية، ومغربية، وإسبانية، وبحر متوسطية، وأفريقية، وأوروبية شرقية، وإيرانية، وتركية، وكوردية، وتركستانية، وصينية، وهندية. وكانت كل جماعة ثقافية تمارس نشاطها بحرية، وتعبّر من خلاله عن خصائصها، وتؤكد ذاتها، ولكن في إطار الأسس والثوابت الإسلامية، بدءً من قضية اللغة والأدب، وانتهاءً بالعادات والتقاليد، مروراً بصيغ النشاط الفكري والثقافي بأنماطه المختلفة. ولم يقل أحد إن في هذا خروجاً عن مطالب الإسلام التوحيدية، كما أن أحداً لم يسع إلى مصادرة حرية التغاير هذه. وفي المقابل، فإن أياً من هذه المتغيرات لم يتحول – إلاّ في حالات شاذة – إلى أداة مضادة لهدم التوجهات الوحدوية الأساسية لهذا الدين.

لقد منحت كل الشعوب والجماعات، التي انضوت تحت مظلة هذا الدين، فرصتها في الحياة والتحقّق والتعبير عن الذات. لقد كان المجال مفتوحاً بمعنى الكلمة، حيث سمح حتى للعبيد والمماليك أن يواصلوا الصعود إلى فوق، ويشكلوا دولاً، بل إن غير المسلمين أنفسهم، منحوا حقهم المشروع في المجالين المدني والديني على السواء، فليس ثمة يهودي أو مسيحي، أو مجوسي أو بوذي أو صابئي، لم يجد الطريق مفتوحاً أمامه للتعبير عن ذاته وقدراته، وممارسة حرياته الدينية، وأخذ موقعه المناسب في نسيج الحياة الاجتماعية، أو دوائر الإدارة والمال.

في ضوء هذه المعطيات وقع الاختيار على موضوع (الأوضاع الإدارية والاقتصادية والاجتماعية للإمارات الإسلامية ببلاد إيران في القرنين الثالث والرابع للهجرة / التاسع والعاشر للميلاد: الوحدة والتنوّع). وكانت الفكرة أن يمضي البحث لمعالجة السياقين الآخرين: العمراني والفكري الثقافي، لولا اتساع الموضوع، وتجاوزه الحدّ المطلوب في تعليمات أطروحات الدراسات العليا.

ولقد كان الباحث عند حسن الظن في جدّيته المدهشة، وتعامله مع موضوعه بعشق، واتقانه لعمله، تنفيذاً لتعاليم رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه). وقد دفعه هذا إلى بذل أقصى درجات الجهد من أجل ألاّ يترك أيّما ثغرة في بحثه.. بدءً بترتيب قائمة مصادره ومراجعه، الذي دفعه للسفر خارج العراق أكثر من مرة، وإلى المحافظات العراقية مراراً.. وبترجمة العديد من المصادر والمراجع من لغاتها الأصلية إلى العربية.. وقد كلّفه هذا وذاك ما يقرب من عشرة ملايين دينار.

وعند مناقشته في أطروحته هذه أمام لجنة من الأساتذة المتخصصين، عرف بتمكن واقتدار كيف يجيب على كل التساؤلات التي عرضت عليه، فيما دفع اللجنة، فضلاً عن جهده المثابر في إنجاز أطروحته، إلى منحه درجة (الامتياز) فيما هو له أهل وبه جدير.

إن موضوع (الوحدة والتنوّع)، الذي يمثل الجملة العصبية لتاريخنا الإسلامي، على امتداده في الزمن والمكان، يمكن أن يكون موضوعاً نمطياً يفتح الباب على مصراعيه لدراسات مماثلة، قد يتناول فيها هذا الطالب أو ذاك، من طلبة الدراسات العليا، مجموعة من الإمارات المتجاورة في الزمن أو المكان، بحثاً عن عناصر وحدتها وتنوّعها، وهي فرصة جيدة للاختيار، في زمن شحّت فيه الموضوعات الصالحة للبحث، بسبب كثرة ما أنجز من رسائل وأطروحات، كادت تغطي جلّ تفاصيل التاريخ الإسلامي في سياقيه السياسي والحضاري معاً.

ولقد أتيح لي أن أتعرّف على الباحث (حسين إبراهيم محمد) منذ أيام تدريسه ومجموعته في السنة التحضيرية الأولى للدكتوراه، فرأيت فيه ذلك الطالب المتقّد ذكاءً وجدية ورغبة في تقديم عمل يستحق التقدير.

وها هو ذا يحظى بأمنيته، فيجد كتابه فرصته المواتية للنشر من قبل (مؤسسة الوقف السنّي)، التي طالما طلعت على القرّاء بأعمال متألقة، تعرف كيف تختارها من أجل نشر الوعي الثقافي السليم بين الناس.

ومن الله وحده التوفيق ، وإليه وحده نتوجه بالكلمات والأعمال❐

تسطيح الفكر الديني:
قراءة في كتابين

د. سعد سعيد الديوه جي

(١)

يعتبر الفكر الديني من أهم الوسائل الايديولوجية في بنية المجتمعات الإنسانية، ويمكن أن يقدم بموضوعية، فيكون عاملاً إيجابياً في بناء المجتمع، ويمكن أن يستغل لخلط الأمور وإحداث الفرقة بين أفراد المجتمع، إن تمّ تقديمه بسطحية متعمدة لخدمة أهداف معينة، وعندها يكون عامل فرقة وخلاف.

و تمتلأ مكتباتنا ومواقع الشبكة العنكبوتية بآلاف الكتب والنشرات والمحاضرات، التي يصبّ معظمها في تسطيح الفكر الديني، من خلال عرض مسائل جانبية لا تقدّم ولا تؤخّر، أو من خلال خلطها بمواضيع تاريخية بحتة، وبالتالي يكون الهدف هو إذكاء التعصب وتكفير الآخر لأسباب تافهة لا تمسّ الأصول بشيء، والنظر للأمور من زاوية محددة واحدة لا تقبل بفكر الاختلاف. علماً أن الاختلاف في عهد النبوة والخلافة الراشدة وما بعدها كان أمراً واقعاً، وليس في نفيه ما يخدم الدين، كما يقول (د.طه جابر). والغريب في الأمر أن كتباً تحمل عناوين تاريخية صرفة، تغوص حتى الأعماق في أمور دينية لا علاقة لها، لا من قريب ولا من بعيد، بالعنوان، لنعرف أخيراً أن الكاتب يريد الرفع

من مكانة نهجه، باستغلاله لعنوان تاريخي ضخم، وحشد ما يرمي إليه داخل الكتاب من الاعتقاد بصلاحية هذا النهج ولا غير.

و هذه الوسائل هي ابتعاد مفتعل و مخجل عن الواقعية، وكلِّ أصول البحث العلمي المجرد، والتي تجنح حتى للتزوير وتشويه الحقائق من أجل تمجيد فكرة أو عقيدة معينة.

وأنا أتصفّح كتاباً بعنوان (السلاجقة)، للدكتور (علي محمد الصلابي)، فوجئت بأن الكتاب يأخذ منحى غريباً لتأكيد (سلفية) السلاجقة، على الطريقة الحديثة لمن يصفون أنفسهم بالسلفيين، وهو أمر لا معنى له على الإطلاق، وحشر لبعض الوقائع في تاريخ السلاجقة، لتأكيد موضوع خيالي لا معنى له.

والغريب في الأمر أن هذه النظرية قد بناها المؤلف على أساس أن السلاجقة كانوا على المذهب الشافعي، واتبعوا في المدارس النظامية، التي أسسها وزيرهم المشهور (نظام الملك) (ت ٤٨٥)، المذهب الأشعري في التدريس، وبما أنّ المذهبين كانا معتمدين على منهج الحديث والأثر ولا غير، فهم إذاً من واضعي أسس أهل السنة والجماعة على الطريقة السلفية الجديدة، والتي هي – بنظر صاحب الكتاب – الفرقة الناجية الوحيدة من بين فرق الإسلام، حسب الحديث الذي يرددونه صباحاً ومساءاً، والذي لم يفهموه حقّ فهمه، ولا هو بالمطلق الصحيح، واضعاً وراء ظهره ما يمثّله الإمام أبي حنيفة النعمان، وغيره من الأئمة، الذين يعتمدون على القياس والمناهج الفقهية الأخرى، إلى جانب القرآن والسنة، والذي قال بحقه الإمام الشافعي "بأن الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة"!!

إن عملية تشويه التاريخ الديني، بالاستناد إلى اختلافات فكرية بسيطة، وخصوصاً عن تعمّد، هي عملية مخجلة، فالاختلاف في الجزئيات لا يمثل ضعفاً في العقيدة، بل هو عين الحيوية، ويشكل قوة دافعة لتنشيط الأصول، والبحث في وسائل تقودنا نحو الأفضل في فهم العقائد.

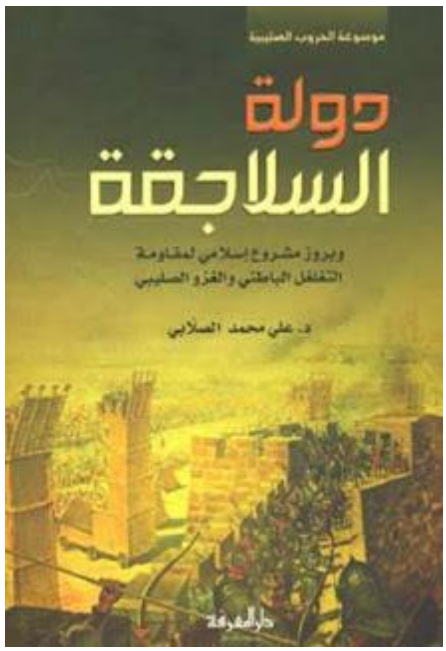

و نؤكد مرة أخرى بأن حشر هذه المواضيع، وبشكل مبالغ فيه، في كتاب تاريخي صرف، يمثّل وصمة عار في جبين البحث العلمي، وإلا فما معنى أن يتم عرض بعض المواضيع، ومناقشتها، مثل: حياة الإمام الشافعي، ورحلاته، وأسس الفقه لديه، ولا يتعرّض – مطلقاً – للعصر الذي عاش فيه الإمام الشافعي (١٥٠_٢٠٥ هـ)، على أنه كان عصراً يموج بتيارات فكرية متباينة، وأن كثيراً من مظاهر الترف والبذخ والفساد قد انتشرت انذاك، ومع ذلك لم يكفّر – رحمه الله – أحداً، و لم ينعت فكره واجتهاداته بأنها تمثّل الفرقة الناجية، ولم يعرف عنه التعصب لمذهبه أبداً.

لقد تم حشر كثير من المواضيع، مثل: (شروط صحة الحديث وقبوله عند الشافعي)، و(حكم مرتكب الكبيرة)، و(تسوية القبور)، و(بناء المساجد على القبور)، في كتاب يفترض فيه أن يتبع الأسلوب العلمي، وهو يحمل عنواناً تاريخياً بحتاً، هو (السلاجقة).

وأما عند كلامه عن (الأشاعرة)، أتباع (أبي الحسن الأشعري) (ت ٣١٦هـ)، فهو يضع عناوين أغرب، مثل: (دفاعهم عن السنة، وردودهم على أهل البدع)، و(جهودهم في كسر سورة المعتزلة والجهمية)، و(إنصاف ابن تيمية لأعلام الأشاعرة، يرحمهم الله جميعاً)، لتأخذ الأبحاث منهجاً لا لبس فيه حول وضع مقياس (ابن تيمية) –رحمه الله– لإعطاء شهادة الصلاحية للآراء والأفكار، حتى أنه لا يتردد في القول ص٣٦٣ من الكتاب "وكان ابن تيمية – رحمه الله– يرى أن لهم حسنات وفضائل وسعياً مشكوراً، وخطؤهم بعد الاجتهاد مغفور"، و"أنه كان سيفاً على المعتزلة"، وهذا كلّه في كتابٍ لا علاقة له بالمذاهب الدينية، ولأقوام عاشوا قبل (ابن تيمية) بقرنين أو يزيد.

ولا ينسى السيد الكاتب مهاجمة (المعتزلة) في كل عناوينه هذه، علماً أنها فرقة وليست

مـذهباً، بـالمعنى الكامـل للمـذهب، فهـم لم يكونوا أهل باطن، وكـانوا يقـرّون بالأركـان الخمسـة قـولاً وفعـلاً، وأفكـارهم في بعـض الجزئيات معروضة على الملأ، ومسألة صحتها من عدم صحتها لا تعني تكفيرهم وإخراجهم من الملة، على مقيـاس (ابـن تيميـة) – رحمـه الله– إن صحّ تكفيرهم حسب فكر المؤ لف.

وعلى كل حال، فإن الكاتب كلّما اقترب من الموضوعية والصدق، حتى في دفاعـه عـن النهج الذي يؤمن به، كـان أقـرب للقـارئ، واضعاً في ذهنه، سواء أكـان القـارئ معـه أو ضدّه في فكره، وهـذا – مـع الأسـف – مـا تخلو منـه معظـم أدبياتنـا الدينيـة، الـتي تميـل للسطحية إلى حدّ السذاجة.

وهذا الكتاب – مع الأسـف الشـديد – يعدّ نموذجاً صارخاً لهذا الاتجاه، الذي يـدعي بأن المدارس النظاميـة اتبعـت مـنهج (الإمـام الشافعي)، في حكمه على أهـل الكـلام بـأن يضربوا بالجريد والنعل ويطاف بهم في البلاد، ولو اتبعنا هذا الـنهج في حوارنـا مـع الآخـر لأصبحت منتدياتنا الأدبية، وشوارعنا، حلبـة للضـرب بالنعـل والأحذيـة، ولمـا اسـتطعنا مناقشة مخالفينا بالتي هي أحسن، حيث يقـول تعـالى: {ادع إلى سـبيل ربـك بالحكمـة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن}.

لقد ولّدت هذه النزعات جماعات لا تفهم من القرآن الكريم إلا ظاهر حروفه، فيفهمون

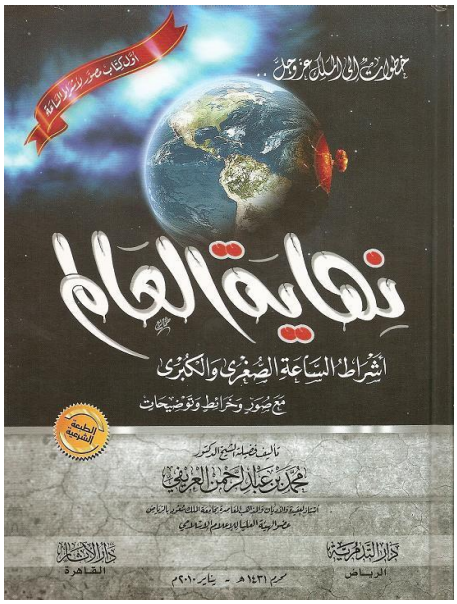

الآية الكريمة {ما فرطنا في الكتاب من شيء} ٣٨ الأنعام، بأنه يكفيهم عن الخوض في أيّ شيء.

* * *

(٢)
اضطراب المفاهيم الدينية حول (نهاية العالم)

لقد حـل مصـطلح (نهايـة العـالم) – مـع الأسف – محلّ مصطلح (القيامة) و(السـاعة) و(اليوم الآخر)، وهي كلها مصطلحات دينية خالصة تتعلق بدورة الحياة المتكاملـة، ولـيس لهـا أيّ بُعـد سياسـي، كمـا لمصـطلح (نهايـة العـالم)، الـذي اسـتورده الفكـر الإسـلامي بتأثيرات توراتية وإنجيلية، نادراً ما التفت إليها

كتّابنا المسلمون في هذا المجال، فوقعوا في مطبات لا يحسدون عليها، وأوقعوا كثيراً من الناس فيها.

إن ارتباط نهاية العالم بقيام دولة العدل الإلهي أمر لا أساس له في المعتقد الديني، ففي يوم القيامة هناك المؤمن والكافر: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (الروم). فالساعة وقيام الموتى أمور غيبية لا جدال حولها، وكل ما يشاع حولها من تفاصيل دقيقة لا أساس له من الصحة" لأن الله تعالى يقول: {ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاّ بَغْتَةً} (الأعراف)، وكلّ ما علينا هو التصديق والإقرار بها بعيداً عن الدوافع السياسية، التي كانت وراء معظم الأحاديث المنسوبة للرسول (صلى الله عليه وسلم) في هذا المجال.

وفي مكتباتنا مؤلفات عديدة حول نهاية العالم، وما يتبعها من أحداث مثيرة، صارت صفة العصر" وذلك بالاستناد إلى أحاديث منسوبة للرسول محمد (صلى الله عليه وسلم)، رغم ما فيها من تناقضات تبلغ حدّ الإساءة غير المباشرة له، ولسيرته العطرة، ناهيك عن الابتعاد عن المفاهيم القرآنية الثابتة، التي لا تهتم مطلقاً بالتفاصيل لمثل هذه الأمور، بقدر اهتمامها بالعبرة من كل حدث، وما يتبعه من نتائج، وهو نهج قرآني متميز يختلف اختلافاً جذرياً عن المنهج التوراتي (الإسرائيليات)، والذي أخذ مساره داخل الفكر الإسلامي في هذا المجال، مع الأسف الشديد.

والكلام عن أشراط الساعة (القيامة) بالتفصيل الممل، يجعل هذه المؤلفات كومة من الخرافات تدعو للغثيان والحزن، في حين أن القرآن الكريم لا يهتم مطلقاً لهذا النهج، وله نهجه البلاغي المتميز، الذي يذكّرنا بـ(القيامة)، وليس بنهاية العالم أو الكون، والتي ستأتي بغتة كما بيّنا آنفاً، والناس بين مؤمن وكافر، وهو أمر واقع لا محالة، ونؤمن به، لتجزى كل نفس بما كسبت.

هذا المقال ليس نقداً شخصياً لمؤلف بعينه، بقدر ما هو تنبيه إلى ما وصل إليه فكر

الإثارة واللاموضوعية المتعلق بما يسمّى (نهاية العالم)، من خلال كتاب لمؤلف مشهور.

وبين أيدينا كتاب للداعية المعروف (محمد عبدالرحمن العريفي)، بعنوان (نهاية العالم.. أشراط الساعة الصغرى والكبرى)، وأسوأ ما فيه ما يحمله غلافه من عنوان: (أول كتاب مصوّر لأشراط الساعة)" حيث يمتلئ الكتاب بأشراط الساعة الصغرى والكبرى، بالاستناد إلى أحاديث منسوبة للرسول (صلى الله عليه وسلم) لا رابط بينها، ولا تسلسل زمنياً، وتمثّل خروجاً غثاً عن كل السياقات المنطقية والقرآنية. والغرابة في الأمر بأنه قد وضع صوراً ومرتسمات حديثة، تشمل القطارات والسيارات والسدود والجراد والخنازير والدروع والتروس.. إلخ، بجانب كل علامة، على طريقة تعليم القراءة لطلاب الأول الابتدائي، وكأن هذه الأشياء طلاسم لا يعرفها القارئ، وهي أمور لا تصبّ إلا بالاستخفاف بعقل القارئ المسكين، وإمعاناً بإعطاء صورة ساذجة من الإثارة! والكتاب شأنه شأن معظم الكتب في هذا المجال، يحتاج إلى الكثير من المناقشة والجدل حول هذه الأمور الشائكة، وعلاقتها بالإسرائيليات، وحجم الخيال والتهويل فيها.

ومن الأشياء اللافتة للنظر: وضع الخرائط بأسماء البلدان، وهي خرائط ما بعد (سايكس بيكو)، وكأنما هي خرائط بأسماء البلدان قبل ١٤٠٠ عام، فالعراق وسورية والأردن وغيرها أسماء مدن في تلك الفترة، وليست بحدودها المعروفة الآن كدول مستقلة، وهو ما لم يلتفت إليه السيد المؤلف مطلقاً، الذي يورد كذلك أحاديث منسوبة للرسول (صلى الله عليه وسلم) عن تمصير (البصرة) (جنوبي العراق الحالي)، والتحذير منها، رغم أنها بنيت في زمن (عمر) (رض) حوالي ١٦هـ.

وفي (ص٩) من الكتاب تظهر الجملة: "وفي عقود الهجرة الألف وأربعمائة! يخرج المهدي الأمين، ويحارب كلّ الكون"!

يا للهول، كيف سيخرج المهدي؟ لا نعرف، وكيف سيحارب الكون كله، وهو على حصانه، ويخرج خارج (المجموعة الشمسية)، وربما خارج (المجرّة) التي نحن فيها، ثم يذهب إلى ملايين المجرّات في هذا الكون، الذي لم يحدّده العلم الحديث بعد! أليس هذا معنى الكون؟!

وفي (ص ٤٦) يقول الشيخ: "ومن تفاسير علامات الساعة الصغرى ظهور القنوات الفضائية، وهي العلامة الثامنة، وكثرة انتشار الكتابة..."، إلى غير ذلك من الأمور التي لا معنى لها. والعلامة ٥٥ تتعلق بموت العلماء والفقهاء، كالألباني وابن باز وغيرهم، وهذا الادعاء عجيب غريب، فليس العلماء فقط يموتون، فكل نفس ذائقة الموت،

وقد مات جهابذة العلماء في الإسلام ولم تحدث القيامة!

أما العلامة رقم ١٠٦ فهي فتح (القسطنطينية/ إسطنبول)، ومن المعلوم أنها فتحت عام ١٤٥٣م على يد (محمد الفاتح) – رحمه الله–، ولكن الخيال الجامح يقول: إن هناك فتحاً آخر" أيْ إنّ (القسطنطينية) بجوامعها وحضاراتها وعمرانها ستضيع، ويحتلّها الروم، ثم يردّها (المهدي)! فالمهّم أنْ نبرّر كلّ شيء، وكلّ شيء خاضع للتأويل والحدس، مهما كانت مصداقية الحديث المنسوب.

وأمّا العلامة ١٠٩، فهي عودة الناس إلى الأسلحة والمركوبات القديمة، أيْ إنّ الدنيا وكل مظاهر المدنية المتعلقة بظهور أشكال الطاقة الحديثة ستختفي، ناهيك عن علامات عجيبة ليس أقلّها تكلم الجمادات والسباع، ولا نعرف بأيّ لغة، رغم أنه في العلامة رقم ١٣٠ يفسّر الرواحل الجديدة بالسيارات! فبأيّ وقود ستسير السيارات، والزمن قد رجع إلى الوراء، وإلى زمن السيف والدرع والحصان!

ومن الأمور التي تحتاج إلى وقفة في زمن العلم والمقارنة والتحليل، ما جاء في (ص ١٢٧) في العلامة ٨٤ من كثرة الروم وقلة العرب، فإن الشيخ (العريفي) يخبط خبط عشواء لتبرير هذه العلامة!

فالروم عنده هم الأوروبيون والأمريكيون وغيرهم، ويقول: إنهم سمّوا بـ(الروم) نسبة إلى (الأصفر بن الروم بن عيسو بن إسحق بن إبراهيم)" استناداً لكتاب (التذكرة) للقرطبي، بدون أن يكلّف نفسه ما وراء ذلك!

وإذا ساءنا بهذا الأمر، فالأوروبيون (ساميّون) – أيْ أولاد عمّ العرب – لأنّ (عيسو) يرجع بأصله إلى (إبراهيم) عليه السلام، صعوداً إلى (سام بن نوح) عليه السلام، ولا يوجد أيّ مصدر تاريخي أو ديني يؤكد هذه المزاعم، أو ينفيها، عدا ما جاء في (التوراة)" حيث لا ذكر للروم فيها مطلقاً. وعليه، فهذه المزاعم تعني اختفاء علم الأنثروبولوجي تماماً، واختفاء كل الدراسات المتعلّقة به، التي قامت طوال قرنين في هذا المجال. هذا من ناحية، أما الناحية الأهم، وهي لو أن الشيخ (العريفي) كلّف نفسه ورجع إلى الإصحاح (٣٦) من (سفر التكوين) لما وجد النسب الذي اخترعه (القرطبي)، والمتعلق بأولاد وأحفاد (عيسو) شقيق (يعقوب) التوأم.. فمن أين جاء (القرطبي) بهذا النسب؟ وهل من الجائز أن نتبع كل ما نقرأ فقط؟!

وإمعاناً في التبريرات المتهافتة حول كثرة الروم وقلّة العرب، فإنه يعزو الأمر لانتشار الإنجليزية وانحسار العربية، علماً أن المتكلمين

بالصينية والهندية والإسبانية هم الأكثر في العالم، وإنا لله وإنا إليه راجعون!

ومن علامات نهاية العالم: تكلّم الحيوانات والجمادات وشراك النعل، فذئب سوف يسرق غنمة، ويدّعي أن الله رزقه بها، ثم يخبر الراعي بلغة عربية فصيحة بالذهاب إلى المدينة ليستمع للرسول (صلى الله عليه وسلم).. ورجل يسوق بقرة عليها أحمال ثقيلة، فتلتفت البقرة وتقول: إني لم أخلق لهذا، ولكني خلقت للحرث! هذا علماً أن البقر من الحيوانات التي لا تستطيع الالتفات. ويسمعها الرسول (صلى الله عليه وسلم)، بعد أن سمع تعجب الناس، فيقول: "إني أؤمن به"!.

هذا التهافت فيه من الإساءة للسيرة النبوية الشريفة الشيء الكثير، فهل تمعّن الشيخ بما كتب، أم يكفي أن يسطّر كل ما يقرأ، حتى لو كان فيه إساءة مبطّنة؟

وهل سأل من يؤمنون بهذه الأحاديث أنفسهم عن معنى كلام الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأني "أؤمن به"، وهو الذي يطلب من الناس أن يؤمنوا بما جاء به، ولا يحتاج هو لآية كي يؤمن؟ فالمعجزات والآيات لا ترسل للأنبياء والرسل، وإذا كانت هذه العلامة قد حدثت وقت البعثة، فما معنى ذلك؟! وكذلك قوله بأن المسيح الدجال حيّ، كما جاء في حديث (تميم الداري) المزعوم، وأنه كان موجوداً في جزيرة، فنحن نعيش في أجواء أشراط الساعة الصغرى والكبرى منذ البعثة النبوية الشريفة، فماذا بقي لكي نتوقع مجيئه؟

كثيرة هي المبهمات والإسرائيليات في هذه الكتب التي تسيء للدين وللسيرة النبوية، من حيث ندري ولا ندري، وهي أمور تعمل على تسطيح الدين وسلب العقول، والله تعالى أمرنا بالإقرار بالساعة والإيمان بها، كما جاء في القرآن، بدون تفاصيل مستجدة من الخيال والإسرائيليات، وهو القائل: ﴿الذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ (الأنبياء)❐

بصراحة

هل يمكن إخراج العراق من المحاصصة الطائفية؟

صلاح سعيد أمين
Selah1434@gmail.com

نسمع من هنا وهناك، وخصوصاً عندما تشتدّ الصراعات و المنازعات السياسية بين الكتل السياسية المختلفة، المحسوبة على الطوائف المكونة للعراق، أصواتاً تدعو إلى عراق خال من النغمة القومية، والمحاصصة الطائفية، عراق عابر للهويات الإثنية، ومحتضن لكل أبنائه، بتلاوينهم المختلفة، ضمن هويتهم الجامعة (العراق)، على اعتبار أن هوية العراق تجمعهم دون تمييز، وتمنحهم إطاراً سليماً للتعايش والتساكن على مائدة واحدة!.. لكن السؤال المثير للجدل، وبالنسبة لدولة كالعراق على وجه الخصوص هنا، هو: هل يمكن بالفعل إخراج العراق من المحاصصة الطائفية؟ وهل يقبل العراق نشوء نظرية خالية من المحاصصة الطائفية؟

الإجابة الواضحة تدفعنا للرجوع إلى بدايات تشكيل الدولة العراقية، وكيفيّة مسيرتها منذ ولادتها لحدّ هذه اللحظة. وباختصار شديد، فإنّ الدولة العراقية، وخارطتها الجغرافية، منذ تأسيسها تقريباً قبل قرن من الآن، وبالتحديد في ١٩٢١، قد تشكّلت على أساس مكونات مختلفة، طائفيّة وعرقيّة ومذهبيّة، وأن الصراعات الطائفية، والمنازعات العرقية، لم تفارق هذه الدولة منذ تشكليها لحد الآن لحظة. ولا يخفى أن السلطة في هذه الدولة منذ بدايات عمرها حتى التغيير النيساني في ٢٠٠٣ تحسب على طائفة معينة، مذهبياً على السنّة، عرقياً على العرب، في حال ينكر أهل السنة هذه النظرة بشدّة، ويعدّونها ظلماً بحقهم..

وبعد التغيير النيساني في ٢٠٠٣، وسقوط الصنم ببغداد، وعلى أساس التغيّرات التي تلت بعد ذلك، تشكّلت الدولة العراقية من جديد على أساس طائفي مكوناتي واضح، أكثر بكثير من ولادتها الأولى، ويقنّن (الدستور العراقي) – هذه المرّة – الهويّة الطائفية للدولة العراقية، ويجسّدها، بما في ذلك حسم المناصب العليا في الدولة للمكونات المختلفة، فتأخذ كلُّ طائفة حصّتها من كعكة العراق الجديد.. ولم نسمع من أحد، أو من طائفة معينة، صراخاً، أو احتجاجاً: لا للهوية الطائفية للدولة، لا للمحاصصة في تسنّم مناصب الدولة.. ولم نسمع من أحد رفضه تسنّم منصبه، بحجة عدم قبوله لهذا التقسيم الطائفي للمناصب الحكومية.

ولا ننسى، وبعد ظهور (داعش) خصوصاً، كيف قامت طائفة معينة، وعلى أساس فتوى مرجعيتها العليا، بتشكيل حشد عسكري خاص بهم، والمتابعين للشأن العسكري يشيرون إلى أن هذا الحشد ابتلع الجيش العراقي، وبعض قادتهم يقولون صراحة: إن حشدهم أقوى من الجيش العراقي..

أخيراً، إن العراق لا يمكن أن يخرج من طائفيته، لأن الطائفية جزء من كينونة هذه الدولة. والطائفية بذاتها لا تعدّ مشكلة، بل المشكلة تأتي عندما لا تستطيع تلك الطوائف أن تقبل بعضها بعضاً. فالمعضلة تأتي عندما يريد أحدهم كسر ضلوع الآخر المختلف، لاختلافه معه في التفكير والطائفة.. وإلا فإنّ الاختلاف، والتمايز في التفكير، هو مصدر قوّة، ومنبع ثراء، وعامل تقدّم، وليس العكس..❐

تقارير

- الأمين العام: ما يجري في الإقليم عملية استخفاف بالإنسان — المحرر السياسي
- انسداد الأفق السياسي الكوردستاني — المحرر السياسي
- مؤتمر في الشيشان يثير حفيظة المرجعيات الإسلامية — تقرير: الحوار

الأمين العام للاتحاد الإسلامي الكوردستاني:

ما يجري في الإقليم عملية استخفاف بالإنسان وتجويع لمواطني كوردستان

متابعة وإعداد: المحرر السياسي

✍ أعرب الأمين العام للاتحاد الإسلامي الكوردستاني عن امتعاضه وأسفه لما آلت اليه الأوضاع السياسية والمعيشية من جمود وتردٍّ في إقليم كوردستان، محذّراً من عواقب كارثية في حال استمرارها.

موقف الأستاذ (صلاح الدين محمد بهاء الدين) جاء خلال رسالة تهنئة وجهها

إلى الأمتين الكوردية والإسلامية بمناسبة عيد الأضحى المبارك، الذي وافق يوم الإثنين ٢٠١٦/٩/١٢.

وقال في معرض رسالته: "في الوقت الذي نستقبل فيه العيد، يشهد الإقليم جموداً سياسياً، فالحكومة مشلولة والبرلمان معطل، والمواطنون مهدّدون في أرزاقهم وأقواتهم"، مضيفاً: "وأطفالنا محرومون من فرحة العيد، وشباب الوطن عاطلون ومهمّشون وفاقدون لأيّ بارقة أمل، وهم بانتظار الفرصة السانحة للهرب والهجرة، وحرائر بلدنا في حسرة، وأعينهن تفيض دموعاً، والموظفون والعمال والمعلمون، جميعهم، ينتظرون (نصف الراتب) مرة كل شهرين!!..".

مردفاً بالقول: "البيشمركة في جبهات مواجهة (داعش)، بانتظار انتهاء الحرب، وهناك مخاوف من اندلاع حرب أخرى، وعلى هذه الحالة يتلبسهم الهمّ، وهم يترّقبون وصول رواتبهم لإسعاف احتياجات أطفالهم".

وتابع الأمين العام قائلاً: "الأحزاب، والسياسيون، ومنظمات المجتمع المدني، والنخبة السياسية، والمثقفة، بعضهم يراقب الوضع السياسي ويحلله، والبعض الآخر يرفع الشعارات ويطلق الكلمات الرنانة"... وفوق هذا كلّه، السلطة، وموالوها، غير مبالين ولا آبهين لهذه المأساة، بل تراهم منشغلين برحلاتهم وسفراتهم السياسية".

وأضاف في رسالته: "الشعب بكافة شرائحه وفئاته وقطاعته، مكسور القلب، تظلّله الحسرة، خالي الجيب، يقضي ساعات حياته اليومية بلا أمل، والله يعلم متى يمتلئ وعاء صبره وتحمّله".

وزاد بالقول: "باختصار هنا في الإقليم عملية استخفاف بالإنسان، وتجويع لمواطني كوردستان، وعلى مرأى من العالم، معارضاً كان أو صديقاً"، مؤكّداً: "المسؤولون لا يلقون بالاً لهذه اللوحة المأساوية، وهم منشغلون بالتناحر والترصد لبعض".

ونبّه الأمين العام في رسالته السلطة القائمة من مغبّة الاستمرار في هذه السياسة، قائلاً: نحن في الاتحاد الإسلامي الكوردستاني نتابع هذه الحالة، بمنتهى الامتعاض والأسف، وننبّه مسؤولي الإقليم، والمتنفذين في الحكومة، إلى أن هذا الشعب الأصيل والمناضل والمخلص لا يستحق أن ينال هذه العقوبة، أو أنْ يتعرّض لهذه الحرب النفسية!! هل يجازى على جهوده ونضاله بهذه الشاكلة؟ ليس مشروعاً، رغم امتلاك كوردستاننا لثروات بشرية وطبيعية، أن يحصل هذا التراجع الاقتصادي والانهيار المالي".

وكشف الأمين العام عن إبلاغ الحكومة رسمياً بموقف (الاتحاد الإسلامي الكوردستاني)، مناشداً إياها بإخلاص إلى

تدارك الوضع، عبر تلبيه مطالب وحقوق المواطنين، الذين وصل الاستخفاف بهم مستوى خطيراً جداً، له عواقب كارثية. موضّحاً في هذا السياق بالقول: "ربما ينجم عنه انفجار جماهيري، وحينها ستضيع جميع المكتسبات، ولن تنفع المناصب ولا الأموال"، مطالباً باتخاذ قرار سياسي وإداري يبعث الأمل في النفوس.

وكان الأمين العام الأستاذ (صلاح الدين محمد بهاء الدين) قد أبدى استعداده للوساطة بين فرقاء العملية السياسية بغية رأب الصدع وإعادة الأمور إلى مجاريها، لكن حجم الخلافات السياسية حال دون تحقيق ذلك.

ويعاني الإقليم وضعاً مالياً صعباً، إضافة إلى أن الوضع السياسي المتأزم بات يخلق نوعاً من التشظّي والإرباك على المستويين الشعبي والنخبوي❐

انسداد الأفق السياسي الكوردستاني

تقرير: المحرر السياسي

✍ يمر إقليم كوردستان بحالة من انسداد الأفق السياسي التام، نتيجة غياب الحلول لأزمات السلطة والإدارة، وأخطرها الانخفاض الحاد في الإيرادات العامة، والتي انعكست على الواقع المعيشي لغالبية الفئات المجتمعية، يتصدرهم موظفو الجهاز الإداري في مختلف القطاعات.. هذا الاضمحلال لمصادر الموارد المالية تتحمله الحكومة (الحزبان الرئيسان القابضان على السلطة)، وهي تواجه باستمرار انتقادات لاذعة وأحياناً تهديدات باعتصامات مفتوحة، وأبعد من ذلك عصيان مدني. والمؤشرات توحي بانفراط عقد الائتلاف الحاكم نهائياً – ائتلاف من خمسة أحزاب – (الديمقراطي الكوردستاني، والاتحاد الوطني، وحركة التغيير، والاتحاد الإسلامي، والجماعة الإسلامية). وهذه المؤشرات تتأتى من بيانات – مواقف – صادرة من (المجلس التنفيذي للاتحاد الإسلامي)، وبيانات لقيادات في (الجماعة الإسلامية)، حثا فيها الحزبين الرئيسين (الديمقراطي الكوردستاني) و(الاتحاد الوطني) على الإسراع في التخفيف من آثار الأزمة المالية، وأقلها التقيد بمواعيد صرف رواتب الموظفين – المخفضة إلى النصف وأكثر – في مواعيدها المقررة. وقد ردت رئاسة الوزراء بالدعوة إلى اجتماع موسع زعمت أنه سيكون مكاشفة وإصلاحاً للأوضاع المتردية، وفي المقابل ردت الأحزاب

الثلاثة برفض حضور الاجتماع، وقالت إنه بمثابة خطوة أخرى للهروب للأمام والتملص من المسؤوليات تجاه مواطني الإقليم. وتعجز الحكومة عن الايفاء بتعهداتها وتتراجع خطوات عن التزاماتها المالية بشكل يهز مصداقيتها، حتى باتت الفئات الوظيفية لا تثق إطلاقاً بأي خطوة تقدم عليها، ويكفهر الوضع بغياب الشفافية في مسألة الواردات النفطية، فالسلطة تتكتم على هذه القضية وتحيطها بسرية تامة رغم تسريبات لوثائق يكشف عنها بين الحين والآخر برلمانيون تُظهر وقوع فساد في قطاع النفط الكوردستاني.

ورغم تحركات رئاسة الوزراء ورئاسة الإقليم على مسارين دبلوماسيين متوازيين، عراقياً ودولياً، للحصول على دعم مالي لتجاوز النازلة الاقتصادية الداخلية، إلا أن النتائج تأتي غير فاعلة، فالزيارة الأخيرة لوفد حكومي رفيع إلى بغداد أفضت فقط إلى اتفاق لتقاسم واردات النفط المستخرج من بعض حقول كركوك، والمصدر عبر خط أنابيب إقليم كوردستان إلى ميناء جيهان التركي.

ويبدو أن الحكومة الحالية تواجه إفلاساً مالياً حقيقياً، خاصة مع تزايد الديون المتراكمة عليها، والبالغة أكثر من ٣٠ مليار دولار وفقاً لتقارير اقتصادية غير رسمية.

ويشكل الصعيد العسكري والميداني – الحرب ضد داعش – عاملاً إضافياً ضاغطاً

أمنياً واقتصادياً، لا يمكن التكهن بنتائجه على المديين القريب والبعيد مع قرب عملية استعادة السيطرة على مدينة الموصل، حيث تشارك فيها قوات البيشمركة بمختلف صنوفها القتالية.

وكذلك الصعيد السياسي الذي هو محور بقية الصعد الأخرى، لا زال الانقسام بمثابة معول هدم للجدار المجتمعي الكوردستاني، وهذا الانقسام عمقه تعطيل البرلمان وإقالة وزراء من الائتلاف الحكومي، وقد استعرضنا حيثياته في تقارير إخبارية سابقة لـ(الحوار).

ويزيد المشهد السياسي تعقيداً أيضاً الانشقاق الحاصل في صفوف قيادات (الاتحاد الوطني) وعلى الطرف الآخر تمسك (الديمقراطي الكوردستاني) بسياساته الإدارية المتصلبة، وفقاً لمراقبين.

وما برح الحزبان المذكوران يتقاسمان مناطق النفوذ السياسي والإداري في ما يعرف بـ (المنطقة الخضراء) و(المنطقة الصفراء)، وكذلك دخول كل طرف في تحالفات إقليمية وتفاهمات على المستوى العراقي بمعزل عن بعضهما، والمسألة باتت مثار جدل واستهجان الشارع الكوردي، إذ إن ذلك يولد نوعاً من الازدواجية في القرار السياسي والتصادم في الكثير من المحطات الإدارية، فتردي الحالة الاقتصادية وجمود العملية السياسية تمثلان (كرة الثلج) التي باتت تكبر شيئاً فشيئاً منذرة باكتساح ما بطريقها، وهذا ما لا يرجوه ولا يتمناه الجميع، سلطة وشعباً❐

مؤتمر في الشيشان

يثير حفيظة المرجعيات الإسلامية لأهل السنة

تقرير: الحوار

المؤتمر المنعقد بالعاصمة الشيشانية (غروزني) لمجموعة من الوجوه الدينية المثيرة للجدل، أثار حفيظة المرجعيات الإسلامية الكبرى لأهل السنة والجماعة في العالم.

المؤتمر عقد للمدة من ٢٥-٢٠١٦/٨/٢٧ تحت عنوان (من هم أهل السنة)، بدعم من (رمضان قادروف) القائم بأعمال رئيس جمهورية الشيشان الخاضعة للحكم الروسي، وشارك فيه مجموعة من الوجوه الدينية المعروفة والمثيرة للجدل، يتصدرهم (أحمد الطيب) شيخ الجامع الأزهر، و(شوقي علاّم) مفتي مصر الحالي، و(علي جمعة) مفتي مصر السابق، وهي شخصيات داعمة لسلطة الانقلاب التي يقودها (عبدالفتاح السيسي)، وكذلك (الحبيب علي الجفري) داعية يمني صوفي، و(عبد الفتاح البزم) مفتي دمشق، بالإضافة إلى ما يقرب من مئتي مشارك من مختلف الدول.

المؤتمر حاول انتزاع صفة (أهل السنة والجماعة) من (السلفية والوهابية) و(جماعة الإخوان المسلمين)، واعتبرها فرقاً طائفية دخيلة على السنة، زاعماً أن (أهل السنة والجماعة) هم فقط أتباع الفرق التالية: (المحدثين والصوفية والأشاعرة والماتريدية).

مجريات المؤتمر من حيث الشخصيات المشاركة فيه، والبيان الصادر عنه، أحدثت جدلاً وردود أفعال واسعة، فقد وصفه العلاّمة الشيخ (يوسف القرضاوي) بمؤتمر ضرار، على غرار مسجد الضرار الذي أقامه المنافقون في المدينة أيام الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم).

وقال الشيخ القرضاوي في بيان: "إن المؤتمر بدلاً من أن يسعى لتجميع أهل السنة

والجماعة صفاً واحداً أمام الفرق المنحرفة عن الإسلام، المؤيدة سياسياً من العالم، والمدعومة بالمال والسلاح، إذا به ينفي صفة أهل السنة عن أهل الحديث والسلفيين، وهم مكون رئيس من مكونات أهل السنة والجماعة".

وأضاف الشيخ القرضاوي في بيانه المنشور في موقعه الالكتروني: "أن الأمة الإسلامية لم يعد لديها من رفاهية الوقت لإحياء الخلافات التاريخية القديمة بين مكونات أهل السنة والجماعة، بينما تئن مقدساتها وتستباح حرماتها، وتسيل دماؤها في فلسطين وسوريا واليمن وغيرها".

من جهته انتقد الشيخ الدكتور (محمد بن إبراهيم السعيدي) أحد مراجع السلفية في (السعودية)، مخرجات مؤتمر غروزني بالقول: "هو مؤتمر تآمري على العالم الإسلامي، يقع ضمن العديد من التحركات الغربية لقتل كل مظاهر يقظة الشعوب الإسلامية إلى حقيقة دينها، وإعادة العقل المسلم إلى حضيرة الخرافة، وتسلط الأولياء المزعومين وسدنة القبور وعقيدة الجبر على حياة الناس وعباداتهم".

من ناحيته استنكر الشيخ (علوي بن عبدالقادر السقاف)، المشرف العام على (مؤسسة الدرر السنية)، مجريات مؤتمر غروزني قائلاً: "في الوقت الذي كانت كلمات أعضاء المؤتمر تنال من علماء المسلمين من أهل السنة والجماعة ودعاة التوحيدِ، كانت تقصف الصواريخ الروسية على رؤوس إخواننا في الشام، ولم يصدر أي شيء في المؤتمر عن جرائم روسيا الشنيعة".

الى جانب ذلك شاطر العديد من السياسيين والكتاب مواقف المرجعيات الإسلامية المنتقدة لمؤتمر غروزني واصفين إياه بالمحاولة اليائسة من الرئيس الروسي (فلاديمير بوتين) للضرب على وتر الطائفية والتخندقات المذهبية لإنقاذ أنظمة سياسية متحالفة معه في منطقة الشرق الأوسط.

وتواجه سياسات بوتين داخل الاتحاد الروسي انتقادات شديدة لأنها تضفي للتدخل في نزاعات إقليمية ودولية تعمق من عزلة روسيا دولياً، وتؤدي إلى استنزاف قدرات البلاد الاقتصادية والبشرية.

وعلى مستوى العالم الإسلامي، فإن الدور الروسي غير مرحب به في المنطقة، ويعد سبباً رئيساً في إدامة الصراع بسوريا❐

آخر الكلام

لا جديد تحت الشمس!

محمد واني

هذه العبارة يعتبرها الكاتب المرموق (مصطفى محمود) (حكمة) قال بها أحد الحكماء القدماء، طبعاً عندما كانت الأشياء تعيد انتاج نفسها، ولكن بصورة جديدة، وأسلوب جديد، وإضافات شكلية (رتوش)، لجوهر لا يتغير، يظلّ يكرّر نفسه بأشكال مختلفة.. وبحسب هذه الحكمة فإن كل ما نقول ونقوم به ما هو إلا إعادة لما قيل وفعل سابقاً: الروايات، والقصص، والنظريات الفلسفية، والشعارات الثورية، كل اختراع، ما هو إلا توليفة من الأفكار القديمة مركبة على نمط آخر.. وكل رواية جديدة ما هي إلا نفس المشاكل القديمة معروضة بشكل آخر، وكل نظرية جديدة ما هي إلا النظريات القديمة من وجهة أخرى.. لا جديد!

لكن ماذا عن العلوم والتكنلوجيا الحديثة، التي تبتكر كل يوم، بل كل ساعة، علماً جديداً، وتستكشف جانباً مجهولاً من حياة الإنسان والكائنات ومجاهيل الفضاء.. برأيي إن هذه (الحكمة) تعنينا وتخصنا نحن المسلمين أكثر من غيرنا، لأننا فعلاً منهمكون باجترار الماضي وتكرار وقائعه بحذافيرها، مهمتنا في الحياة أنْ نكمل مشوار أسلافنا (الصالحين)، ونؤيد ونطرح أفكارهم، ونقتفي أثرهم، ونتكلم بلسانهم، وندافع عن قضاياهم، ونقاتل من أجلهم.. فأنشأنا أحزاباً وحركات إسلامية (معاصرة)، طبقاً لأفكارهم واتجاهاتهم، واختلفنا كما اختلفوا، وتقاتلنا كما تقاتلوا، ولم نزد أو ننقص ما قاموا به حبة خردل.. طبعاً لم نصل، ولن نصل، إلى شيء، لأننا فعلاً تحوّلنا إلى ظلّ لأموات!.. وفي خضمّ انشغالنا بالماضي السحيق، نسينا الحياة المعاصرة، وعلومها، وتكنلوجيتها، وتخلفنا عن الركب الحضاري، بينما الغربيون تقدموا وأبدعوا في كل الميادين.. طبعاً من البديهي ألاّ يوجد شيء جديد تحت الشمس، لأننا فعلاً نعيش في الماضي، أما بالنسبة للغربيين فكل شيء جديد تحت الشمس، كل يوم ابتكار وإبداع جديد، لأنهم يعيشون في الحاضر والمستقبل، ولا يعني لهم الماضي إلا ذكريات ولّت وانقضت و.. خلاص!.

نحن ننتكس ونندحر كل يوم، ونضيف هزيمة جديدة على هزائمنا الكثيرة، وهم يحققون كل يوم انتصاراً جديداً، وإضافة جديدة للإرث الإنساني.. بفضل تحسسهم بالمسؤولية الحضارية، وأهمية اللحظات الزمنية التي يعيشونها، أصبحوا أسياداً على الأرض، وعلينا، بينما تحولنا نحن إلى عبيد أذلاء، بفضل تقاعسنا وانجرافنا إلى الماضي السحيق، وعدم إدراكنا وفهمنا لكلام ربنا الذي يقول: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ❐